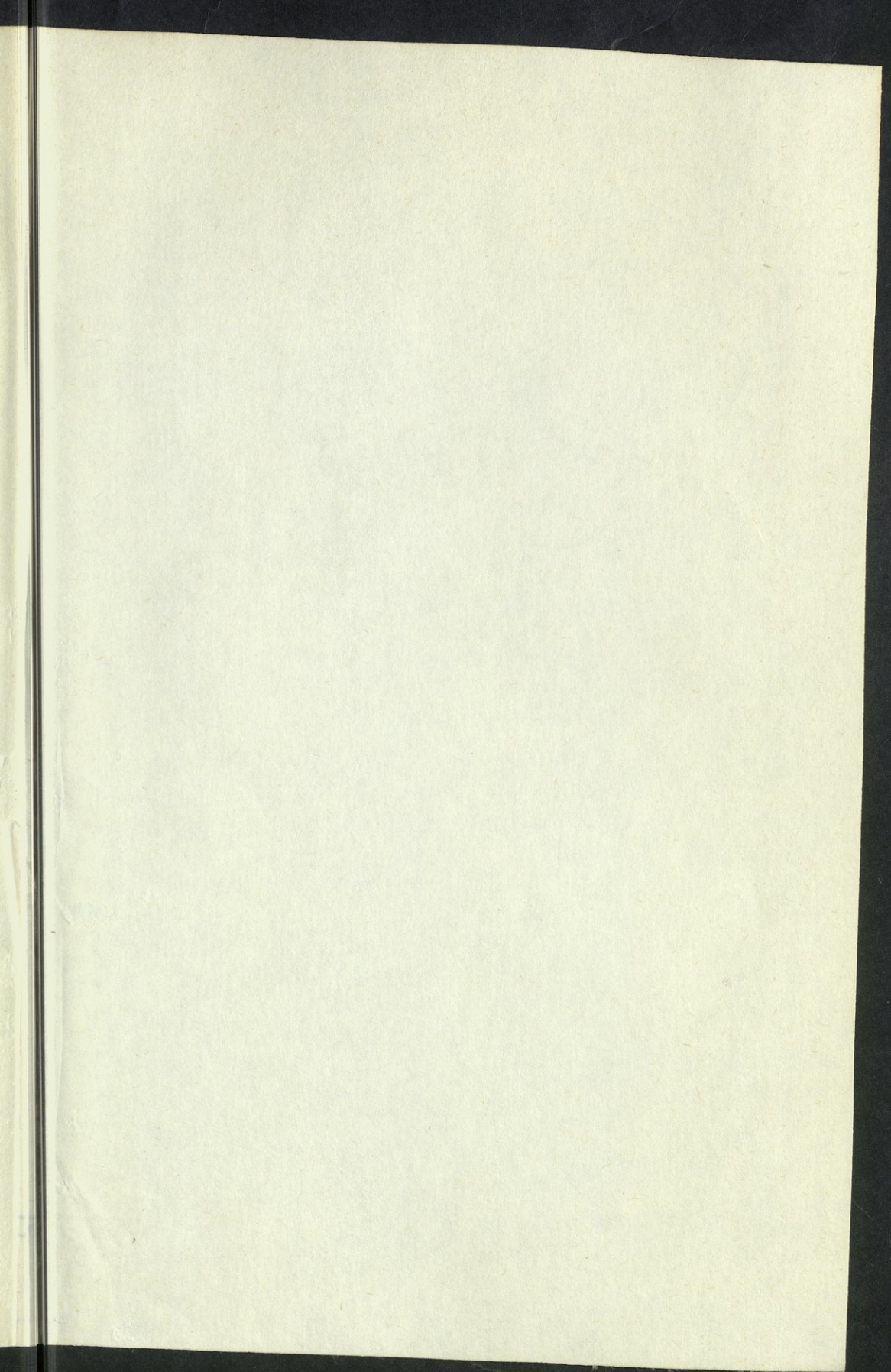
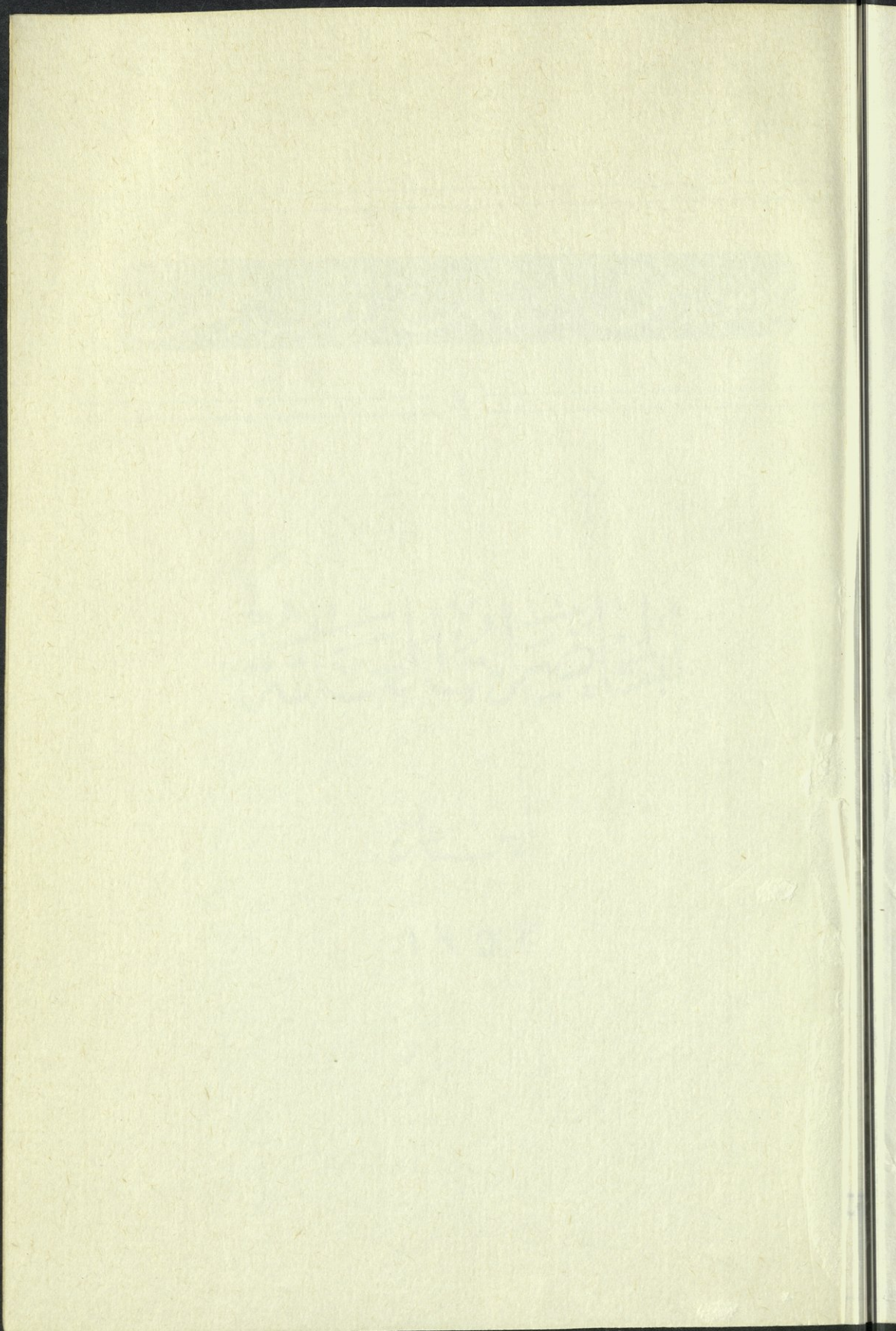


A. U. B. LIBRARY

N. MAKHOUL  
BINDERY  
11 FEB 1974  
Tel. 260458





007129m.53

852.74  
089.927A  
D213mA  
1952  
c.1

منشورات دار الكتب الوطنية بجلد

۱

المحاضرة العامة

لعائلة

۱۹۵۲

cat. 179 Mar 1953

MS. No. 207  
1907

سید بن ابی طالب

تذکرہ سید بن ابی طالب

کتاب

۲۰۶۱

MS. No. 207



## توطئة

.. في اوائل هذا العام استطاعت « دار الكتب الوطنية » ان تحيي موسم المحاضرات ، وان تدعو غير واحد من رجالات الفكر للكلام في شتى القضايا الثقافية : في الادب ، والتاريخ ، والعلم ، والاقتصاد ، والاجتماع .. وقد تكرموا مشكورين فلبوا دعوة الدار ، واستطعنا ان نقدم الى الجمهور الحلبي الكريم الوانا مختلفة من الغذاء الفكري الشهي .

وها نحن اولاء نضم هذه المحاضرات في كتاب لتعم فائدته من جهة ، ولنورخ من جهة ثانية ، ظاهرة من الظواهر الادبية في مدينة سيف الدولة ذات الماضي الباهر في تاريخنا الادبي القديم .

ونرجو ، وقد اصبح موسم المحاضرات موسماً تقاليدياً تنهجه الدار كل عام ، وهي ماضية في دعوة كبار المفكرين للمساهمة ببحث شتى قضايا الفكر ولا سيما هذه القضايا التي تمس حياتنا القومية والاجتماعية

وتمسّ الأمة العربية في وثبتها الكبرى ، أقول ، وهذا نهج الدار -  
ارجو ان تقدم الى جمهور القراء كل عام كتاباً يضم ثمرات طيبة من  
ثمرات الفكر البشري .

ولا يسعنا في هذه التوطئة ، ونحن ننشر هذا الكتاب الا ان نتقدم  
بوافر الشكر الى بلدية حلب الكريمة ممثلة برئيسها ومجلسها البلدي على  
ما أسدوه ويسدونه لهذه الدار من مؤازرة ورعاية .

نعم ، من الحق علينا ان نعترف بفضل هذه المؤازرة التي تدعم عملنا  
ولا سيما ، ودار الكتب ، لم تمد يدئة للمطالعة فحسب بل اصبحت بيئة  
للاشعاع الفكري يلتقي على مسرحها اكابر رجالات الفكر والادب  
واساطين رجال العلم والفن ، وتعقد في قاعاتها المؤتمرات ؛ وتقام مواسم  
للفنون بشتى فروعها : للرسم والتمثيل والموسيقا وغير ذلك مما يتصل  
بشتى نواحي المعرفة .

وقد مرت بالدار فترات كانت الهيئات الثقافية تتزاحم على ايامها ،  
وكثيراً ما اقيمت في اليوم الواحد اكثر من حفلة واحدة ، وان دلّ هذا  
على شيء فعلي ما تؤديه هذه الدار من خدمات جلي للجمهور الحلي الكريم .  
ونحن اذ نقدم هذا الكتاب الى حضرات القراء ، وهو اول كتاب  
يصدر عن دار الكتب ، نرجو ألا يقف جهدنا المتواضع عند هذا الحد

بل نرجو مخلصين ان نوفق الى نشر بعض المخطوطات ، مما تحتفظ به  
خزانات حلب - وهي مليئة بالكنوز - ولا سيما ماله علاقة بتاريخنا  
القومي وتاريخنا الفكري معاً .

وبتحقيق هذه الامنية نريد ان نخطو الخطوة الثانية اسوة بما تعمله  
سائر دور الكتب في العالم ، وهذا عمل جليل تقدره ، ولا شك ، بلديتنا  
الموقرة التي لم تكن في يوم من الايام ضنينة على العلم ، أو مقتررة على شئون  
المعرفة . ولا سيما والدار نفحة من نفحاتها ، كما ان مشروع المدارس  
- وهو من اعظم مشاريع العلم - اثر من أضخم آثارها (١)

سامي الكبيلي  
مدير دار الكتب الوطنية

هذه امنية نرجو ان تتحقق قريباً  
والله الهادي الى الصواب .

١٩٥٢/١١/٢٢

---

(١) استطاعت بلدية حلب ، خلال ثلاث سنوات ، ان تبني عشر مدارس كبرى على  
أحدث طراز كانت قرابة الخمسة ملايين ليرة سورية قدمتها هدية الى مديرية المعارف . وهذا عمل  
جبار سبقت به بلدية حلب جميع بلديات المدن الكبرى .

Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

## كلمة الافتتاح (١)

في هذه الليلة المباركة ، نفتتح باسم الله ، موسم المحاضرات التي سيتفضل بالقاءها بعض قادة الفكر .

ويسرني ، بهذه المناسبة ، ان اتحدث اليكم بإيجاز عن تاريخ خزائن الكتب وقاعات المحاضرات لما لها من فوائد ومزايا كثيرة ، ذلك انها العامل الاول الذي تركز عليه قواعد الثقافة العامة وركن تتوثق به دعائم الحضارة ، ناهيك ان خزائن الكتب هي المراجع العامة في انتقاء المصادر والوثائق والمستندات على اختلاف انواعها .

ايها السادة : مما يؤسف له ويجب التنبيه اليه هو انه على خطورة خزائن الكتب العربية ووفرة عددها في سالف الأزمنة لم يهتم بين جميع المؤرخين من دون لها تاريخاً وافياً مستقلاً بنفسه ؛ بل دونوا كل ما جاء عنها عرضاً في سياق كلامهم عن غيرها من الحوادث والاعخبار . ولئن جاءنا في الزمن الاخير بعض المفكرين فنقلوا عن بعض المصادر تاريخ خزائن الكتب العربية الا اننا لم نجد في بعض وقائع هذه المؤلفات مراجع صحيحة ثابتة يمكن الركون اليها والاعتماد عليها . ومع هذا فاننا لا نرى بدأً من إهداء عظيم الشكر لهم على ما أنفقوا من جهود قوية وما لاقوه من عناء ومشقة في سبيل التحري عن الحقيقة تلك التي اتفقت عليها

---

(١) الكلمة التي افتتح بها موسم المحاضرات الاستاذ احمد منير الوفاي رئيس البلدية آنذ

بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٥٢

كلمة مشاهير المؤرخين في الغابر والحاضر من عرب وعجم بان اهتمام العرب بتأليف الكتب وترجمتها وجمعها كان داعياً الى اهتمامهم الشديد بتأسيس مكتبات عامة وخاصة انتشرت انتشاراً غريباً لم تألفه بقية الأمم قبل الفتح وبعده، فالعامة منها أسسها الخلفاء والملوك كدار الحكمة في بغداد ودار العلم في القاهرة وأمثالهما في الشام وفلسطين وغيرها من الاقطار العربية والاسلامية؛ أما المكتبات الخاصة فقد تكاثرت في جميع الامصار تكاثراً مدهشاً بعناية نصراء الادب واصبحت تعد بعشرات الآلاف بل بالمئات التي تضم كتباً قيمة في قصور الامراء ودور العلماء من المسلمين وغير المسلمين ففاقوا بتلك الثروة الادبية والعلمية جميع شعوب الارض دون جدال . وان كل من اطلع على ما بقي من تلك الكنوز الثمينة في المعارض التي تقيمها دار الكتب المصرية ، او متاحف الغرب حولاً بعد حول يشهد للعرب بسلامة الذوق وبراعة الفن فيما خلفوا من الآثار الكتابية العظيمة الشأن .

دار الفلك دورته ( وتلك الايام نداؤها بين الناس ) واذا الايام تعبت بهذا التراث الجليل بعد افترارها فتنكبه نكبة هائلة تقضي على الاكثرية الساحقة من خزائن الكتب العربية بزوايا الحروب العديدة وقيام الفتن الاهلية والخصومات الدينية والمؤثرات السياسية وغارات البرابرة فتذهب بعضها فريسة النار والماء وتنهب بعضها وتلف بطرق مختلفة ، وعلى الجملة فان هذه المصائب والكوارث وما تبعها من فساد نظام واستبداد حكام واستئثارهم بالمغانم وفوضى احكام وجود عام واستسلام للقضاء والقدر جعل العالم الاسلامي في ظلمة حالكة ووحشة شاملة : جهل مطبق ، وظلم فادح ، وفقير مدقع .

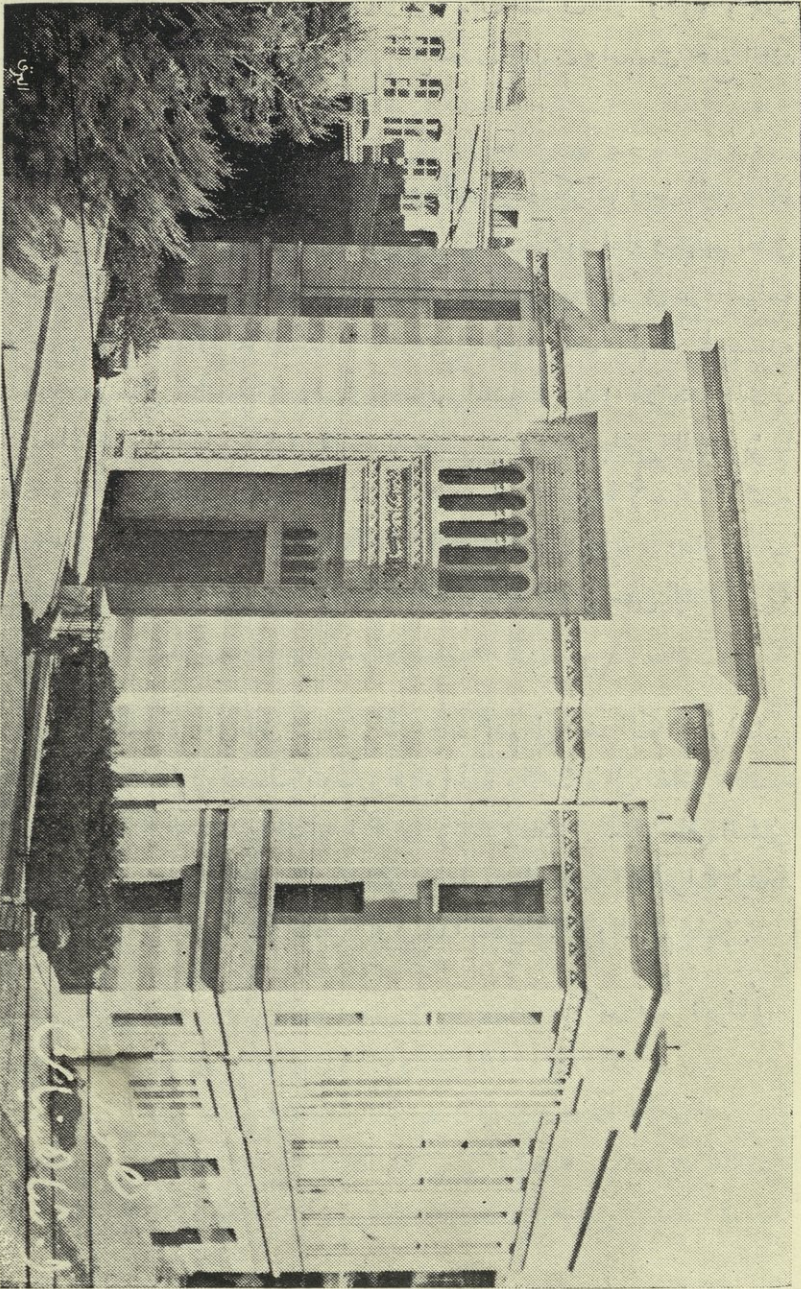
هذا ما كانت عليه الحال في الشرق . أما الغرب فقد حمل من الشرق معه بذور الاصلاح ايام الحروب الصليبية وبدأ يغرسها في ارضه حتى انتجت هذه البذور اشجاراً باسقة عصفت بها الريح حيناً ودب اليها الفساد حيناً ولكنها تحملت الشدائد حتى استوى امرها وكونت لها شخصيتها التي ازاحت الستار عن كنوز الطبيعة في شتى مرافق الحياة العملية وجعل لها الكلمة العليا على سائر شعوب

الارض بكل شي مصدره المادة وتوفرت للغرب الوسائل المادية والادبية فالتفتوا الى التأليف فأبدعوا فيه ولم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا ولجوه وجمعوا الكتب على اختلاف اصنافها وأجناسها من كل حذب وصوب واصبحت جميع البلاد الغربية حافلة بالمكتبات العامة والخاصة .

وبعد سبات عميق تنبه الشرق مذعوراً ففكر وفكر فيما وصل اليه والألم يحز ضلوع علمائه العاملين المصلحين الذين هبوا للمعالجة جمود اهله وجهلهم المطبق وما ان بزغ القرن العشرون حتى تجلت في الشرق نهضة مباركة في علم السياسة والاجتماع والاقتصاد وأخذ المفكرون يتبارون في مضمار هذه النهضة المحيطة متذرعين بالوسائل الناجعة للوصول الى اهدافهم المنشودة . نادوا بالاحتذاء بالبلدان الغربية الراقية باحداث مكتبات وقاعات للمحاضرات تابعة للمجالس البلدية يؤمها الطلبة ورواد الادب للدراسة والاستفادة فأنشأوا مكتبات جامعة لأصناف الكتب . وحسبنا من هذا القبيل ان نذكر المكتبة البلدية في الاسكندرية ، ودار الكتب الوطنية في حلب الشهباء وغيرهما من مكتبات عديدة انشئت في بعض البلاد العربية بهمة رجال مخلصين .

ايها السادة : اني قبل ان اختم كلمتي هذه اقدم الى حضراتكم باسم المجلس البلدي خالص شكري لتفضلكم بحضور هذه الحفلة والاستماع الى المحاضرة القيمة التي سيقمها عليكم الآن مدير هذه الدار الاستاذ الفاضل السيد سامي الكيالي واني إذ ارحب بحضراتكم أمل ان تفضلوا بالحضور الى بقية المحاضرات ليتخذ المجلس البلدي من مشاركتكم تشجيعاً له في هذا العمل النافع والسلام عليكم .

صمير الوفاي



دار الكتب الوطنية بـبغداد



الحاضرون



محمد سعيد الزبيدي



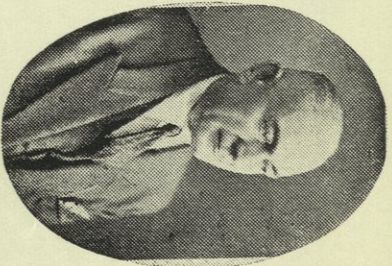
وهيب السمان



فستان مرفعي



فيل هنراوي



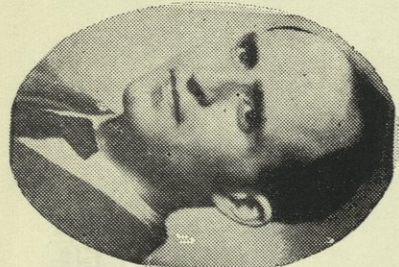
سامي الكبياني



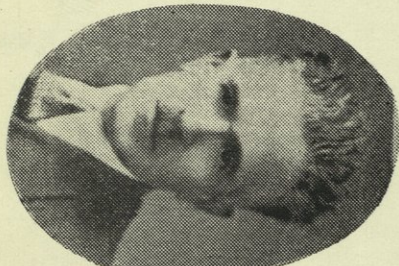
فؤاد الزمراس البستاني



ارباب نهور



انجر الطرابلسي



عمر يحيى



عبد الرحمن الكبياني



Vertical handwritten text between the top-left and top-right stamps.



Vertical handwritten text to the right of the top-right stamp.



Vertical handwritten text between the second row, left and right stamps.



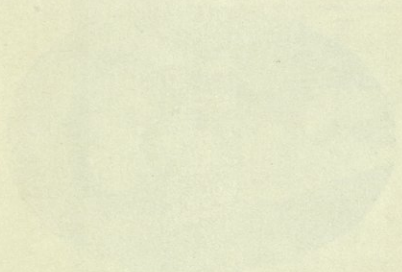
Vertical handwritten text to the right of the second row, right stamp.



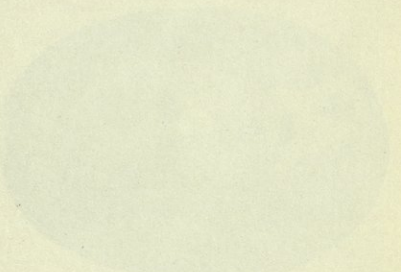
Vertical handwritten text between the third row, left and right stamps.



Vertical handwritten text to the right of the third row, right stamp.



Vertical handwritten text between the fourth row, left and right stamps.



Vertical handwritten text to the right of the fourth row, right stamp.



Vertical handwritten text between the fifth row, left and right stamps.



Vertical handwritten text to the right of the fifth row, right stamp.

المحاضرة الاولى

## صفحة من تاريخ حلب الادبي

سامي الكبيالي

مدير دار الكتب الوطنية

= القيت بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٥٢ =

طائفة فريضة

طائفة فريضة

طائفة فريضة

طائفة فريضة

طائفة فريضة

ان قصة الصلات بين الشرق والغرب ، وصلات الفكر بصورة خاصة -  
قصة طويلة الفصول ، كثيرة المناظر ، وهي تمر ، عبر العصور ، بالوان مختلفة  
ومظاهر متعددة ، ولا يمكن لانسان ان يلم بها في محاضرة ولا عدة محاضرات .  
ولكن في وسعه ان يشير الى بعض جوانبها اشارات سريعة .

وفي تاريخنا الفكري والسياسي مظاهر مختلفة لتاريخ هذه الصلات ،  
بعضها اواكثرها مما تناولته اقلام المؤرخين بالبحث والتنقيب ، وبعضها ظل  
مطويماً في بطون الكتب .

ومن هذه القصص قصة الشيخ فتح الله والقيس ادوار بوكوك  
وشجرة التين التي نقلت من حلب الى لندن .

وقد يخال لحضراتكم ، بعد سماع هذه العناوين ، اني سأروي اسطورة  
من الاساطير ، ولا اجانب الحقيقة اذا قلت انكم في تخيلكم لا تبعدون كثيراً  
عن الواقع .. فشجرة التين التي نقلت من حلب الى لندن ، قبل ثلاثمائة سنة  
ونيف ، تحمل في اطرافها عناصر قصة .. ولكن لم يكن نسيجها من الخيال بل  
من الواقع ، قصة من قصص الفكر . قصة هذه الصلات الفكرية بين الشرق  
والغرب في القرن السادس عشر الميلادي .

ولن اسرف في التوطئة اكثر من هذا بل اريد ان ادخل صميم  
الموضوع دون هذه المقدمات الملتوية .

\* \* \*

قبل ثلاثمائة سنة ونيف هبط حلب وجل انكليزي فكث فيها خمس  
سنوات يدرس العربية على احد شيوخها الاعلام ، فلما استقام لسانه العربي ، بعد  
ان اجاد الحديث باللغة العامية - لغة حلب الدارجة - عاد الى بلاده يكتب ويؤلف  
وينشر المخطوطات ، وما زال حتى ترك ثروة ادبية اصبحت مرجعاً للكثيرين من  
فطاحل المستشرقين .

فما قصة هذا الرجل ؟

ان الدراسات الادبية ، ولا سيما الدراسات المتعلقة بشئون الاستشراق  
لا تبخل علينا بسر قصته ، فهو مستشرق معروف ، وله بين المستشرقين الاعلام  
مقام مرموق سواء بما افه من كتب او بما نشره من مخطوطات .

ولا بأس من إلمامة صغيرة عن نشأته الدراسية ، فقد ولد ادوار بوكوك  
Edward Pococke سنة ١٦٠٤ م في مدينة اكسفورد ، وتعلم في مدرسة  
مجانية ، ثم في كلية « كورب كريستي كوليج » Corps Christi Colleg  
- مدرسة جسد المسيح - حيث حصل سنة ١٦٢٤ م على شهادة الماجستير في الآداب ،  
اي انه ظفر بهذه الشهادة العالمية وهو في العقد الثاني من عمره ، واذ تميز على  
اقرانه بالذكاء والمعرفة والميل الى البحث المجرد انتخب سنة ١٦٢٨ استاذاً في  
الكلية التي تخرج منها لتدريس التوراة ، واستطاع في هذه الفترة ان يعثر بين  
مخطوطات خزانة البودليان على الترجمة السريانية لأربع رسائل من العهد الجديد  
المفقودة ، وهي رسالة بطرس الثانية ، والرسالتان الثانية والثالثة ليوحنا ، ورسالة  
يهودا التي لم تكن في الترجمة السريانية القديمة للتوراة .

وإذ كان للعلم ، في تلك الفترات ، هذا الطابع الديني اصبح ادوار بوكوك

في سنة ١٦٢٩ قسيسا ، وهو في الاصل من عائلة دينية ، ولا نعرف العوامل التي دفعته لأن يترك المحيط الجامعي ليلبس ثياب الكهنوت ؟

أيمكنه من دراسة اللاهوت ، والوسط الديني الذي عاش فيه هما الدافعان الى ذلك ؟ .. ربما .

وكشباب امتلأ قلبه بالمعرفة احب ان يدرس العربية كمنفذ لمعرفة الشرق ، او لرحلة اعتمدها الى بلاد الشرق العربي فتعلم على مائاس باسورا الالماني وبدأ يدرس عليه مبادئ العربية حتى اذا تعلم ابجديتها وبعض كلماتها اتصل بوليم بيدويل Wiliam Bedwal اكبر علماء الانكليز بالعربية آنشد .. ووايم بيدويل هذا هو الذي اصدر اول ترجمة انكليزية للقرآن الكريم ، وكان يصف اللغة العربية بانها اللغة الوحيدة للدين ، واللغة الرئيسية للسياسة والعمل من الجزائر السعيدة الى بحار الصين .

لقد اخذ ادوار بوكوك مبادئ العربية عن هذين المستشرقين ، واذ تفتحت امامه الآفاق احب ان يتوسع في معرفة هذه اللغة - لغة القرآن - والاحاطة بدقائقها واسرارها .

فكيف السبيل الى ذلك ؟

لقد رأى ، وبإحياء من استاذيه ، انه لا بد لتحقيق بغيته من رحلة الى بلاد الشرق العربي ليأخذ العربية من منابعها .. فالى اية بقعة من بقاع الشرق العربي يسافر ؟ واي مدينة من مدنها يختار ؟

أيسافر الى القاهرة ام الى دمشق ام الى بغداد ؟

ان واحدة من هذه العواصم العربية الكبرى لم تجذبته ، بل اجتذبت حلب ، عاصمة الحمدانيين ، فما سر هذا الاختيار ؟

\* \* \*

لا نعرف شيئاً عن ذلك ، وليس لدينا من مذكراته وكتبه ما يشير الى هذه الناحية ، وحتى الذين عرضوا الى سيرته وكتبه لم يشيروا اليها ، واغلب الظن ، وهذا ما نقوله على سبيل الافتراض - ان المركز التجاري العظيم الذي كان حلب في تلك الفترة والتي كان يراها السياح الاجانب اعظم مدينة في تركيا وآسيا بعد الآستانة ، ثم اكتظاظها بالتجار الاوربيين الاجانب - ان كل ذلك من العوامل التي دفعته ان يختار حلب لدراسة اللغة العربية فيها .

\* \* \*

لقد كانت حلب في تلك الفترة ، طريق تجارة الشرق الى الغرب وبالعكس ، وكانت ملتحقة الطرق بين آسيا والشام والجزيرة والعراق ، وقد ظلت محتفظة بهذا المركز التجاري الهام الى قبيل اكتشاف طريق الرجاء الصالح وقبل افتتاح قناة السويس .

وكما تجتذب حلب اليوم التجار الاجانب ووجلات الاقتصاد والبيوتات المالية من شتى اطراف الدنيا بسبب ازدهار زراعة القطن في اراضيها والمناطق المحيطة بها ، فان مركزها التجاري الهام ، في تلك الفترات ، قد اجتذبهم فجاءوها متاجرين من فرنسا وانكلترا وايطاليا وهولنده حتى بلغ عدد البيوتات التجارية الاوربية سنة ١٧٧٥ ثمانين بيتاً .

قد يقول قائل وما علاقة رجل العلم بشؤون التجارة ، اي بمركز حلب التجاري حتى يتخذها بيئة لدراسته العربية ؟

وجوابنا ان ليست شهرتها التجارية هي التي اجتذبه ولكن اكتظاظها بالاجانب ، ولا سيما بالتجار الانكليز ، هو الذي حفزه ان يفضلها على غيرها من مدن الشرق .

وتدل بعض المصادر على ان الانكليز كانوا من اوائل الاجانب الذين اسسوا في حلب « وكالة تجارية » وكانت الوكالة تتألف من قنصل وعشرة تجار ووكيل قنصل وحاجب وقسيس .



واذا عرفنا ان ادوار بوكوك ، قبيل سفره الى الشرق ، قد نزع ثوبه الجامعي وارتنى اللباس الكهنوتي ، وانه يمّت الى عائلة من رجالات الدين ، جاز لنا ان نفترض - واقتراضنا هو الواقع - انه قد جاء حلب بصفة قسيس للقنصلية البريطانية .

وقد بدأ منذ قدمه ، يبحث عن استاذ ضليع في اصول اللغة العربية ليتلمذ عليه ، ولم يطل بحثه ، فسرعان ما وقع اختياره على الشيخ فتح الله فاتخذه استاذه المفضل الذي لازمه طوال مدة اقامته في حلب . . فمن هو هذا الشيخ الحلبي الذي تلمذ عليه القس الانكليزي قبل ثلاثمائة سنة ؟

- ٢ -

ان تاريخ حلب الادبي في تلك الفترة لم يكتب بعد ، وان ما كتب عن ادباء القرن الحادي عشر الهجري مشوش مضطرب لا يتقع غلة الباحث ، ولا بد لمن يتصدى لتاريخ هذه الفترة من حياة حلب الفكرية - من ان يرجع الى عشرات المؤلفات القديمة ليعثر على سطور تنقع غلته ، وهذا ما جرى لنا حين اخذنا نبث عن « الشيخ فتح الله » الذي درّس العربية للمستشرق ادوار بوكوك .

وقد وقفنا في غضون تلك المؤلفات على اسم غير واحد ممن سمي باسم « فتح الله » من علماء حلب : منهم الشيخ فتح الله المشهدي ، والشيخ فتح الله الآمدي والشيخ فتح الله المعروف بابن النحاس وغيرهم وغيرهم .

وحين قرأنا سيرة كل واحد من هؤلاء العلماء لم نر فيها ما يربط بين حياة الاستاذ والتلميذ ، سواء من حيث النهج والتفكير والميول او من حيث ما بين عمرهما من تقارب .

فالشيخ فتح الله المشهدي قد توفي سنة ٩٦٣ هـ وهي توافق سنة ١٥٥٦ م ،

- ٧ -

اي قبل ولادة ادوار بوكوك بـ ٤٨ سنة ، ومن جهة ثانية فلم يعرف عن الشيخ فتح الله المشهدي براعته في علوم العربية ، وكل ما ذكره المؤرخون عنه : دواية حسنة في كتابة قوائم الاخشاب وجمال الخط ، وهذا كاف ، في تلك الفترة المظلمة من حياة الفكر ، ان يدون المؤرخون اسمه في سمط العلماء الاعلام !

والشيخ فتح الله الأمدي المعروف بفتح جلي قد عرف بالزهد والتقوى واقامته حلقات الذكر ، ولم تطل اقامته في حلب بل نزح الى عينتاب ، وكان ولاية الاتراك يعتقدون بصلاحه ، ويشهر كون به ، ويغدقون عليه الاموال الطائلة فيصرفها في شئون الخير ، ومن اعماله الخيرية انشاؤه مدرسة وجامعاً وتكية ، وقد انصرف عن الدنيا بكليته حتى قيل انه حج حتى سنة اربع وستين وتسعمائة ثلاث عشرة حجة .

ورجل هذا شأنه ، لا شك ، انه كان يعتقد ان التدريس لأجنبي رجس من عمل الشيطان ، ورغم ان وقته لم يكن ليساعده على مثل هذه الامور ، ومن جهة ثانية ، فان معاصريه من المؤرخين لم يشيروا الى تبحره بعلوم العربية .

وطال بنا التنقيب للعثور على هذا الاديب المسمى « الشيخ فتح الله » الذي تتلمذ عليه ادوار بوكوك الى ان وقفنا على سيرة الشيخ فتح الله المعروف بابن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ وهذا من فحول ادباء القرن الحادي عشر ، عرف بين شعراء عصره برقة النظم وجزالة النثر وانسجام الالفاظ حتى قيل انه لم يكن ليوافقه احد في اسلوبه .

يقول المحيي في خلاصة الاثر :

« كان فتح الله في حداثة سنه من احسن الناس منظراً ، وأبهام صباحة ورشاقة ، وكان « ابنا الغرام » يفدونه وهو يعرض عنهم ، ويجافهم حتى تبدلت محاسنه فعطف عليهم يستمد ودادهم ، وكانت النفوس قد انفت منه فرمته في زاوية الهجران ، ثم اندمج في مقولة الكيف ، وتزيا بزي الزهاد !

ان عناصر حياة هذا الشاعر الحلبي تؤلف وحدها قصة مستقلة ، ولا  
ندري أنسلكه بين الشعراء الماجنين ام بين المتصوفة الزاهدين ؟

فقد كانت صحاحته ورشاقته من العوامل التي جعلت الماجنين واصحاب  
الميول الشاذة يطاردونه ، ففقر منهم وآثر العزلة فضايقه . ثم شعر بألم الحرمان من  
هذه المجتمعات التي تفيض بالمباهج وأراد ، بعد ان استكمل رجولته ، ان يوثق  
صلاته بهم فهجروه . . . وقد احب هو ايضاً فأخفق في حبه . . . ولم ير من وسيلة  
لتبديد شجونته وهمومه غير الادمان على المكيفات فتعاطى الحشيش والافيون ، ثم  
هجر حلب بعد ان هجره حبيبه وسافر الى دمشق فاقى فيها كل حفاوة ، ومن دمشق  
الى مصر ، ثم الى الحجاز حيث اعتكف في المدينة المنورة يعيش عيشة المتبتلين  
الزاهدين . وما زال فيها حتى اخريات ايامه .

لقد خيل اليّ حين قرأت سيرة هذا « الشيخ فتح الله » - وفي سيرته  
الكثير من ملامح بيرون وبودلير واوسكار وايلد . خيل اليّ انه الشاعر الحلبي  
الذي تلمذ عليه ادوار بوكوك .. ولكن نزوحه عن حلب ، وهو في شرخ الصبا ،  
ثم تطوافه في المدن كالعاشق المهائم المدنف والقائل من قصيدة :

انا التارك الاوطان والنازح الذي تتبع ركب العشق في زي قائف

يعيش في غيبوبته من اثر المكيفات التي تعاطاها بعد تلك الصدمات العنيفة التي  
مرت به - ان هذه الحالات المضنية التي عاشها وهو معشوق تارة وعاشق تارة  
اخرى ، وهو ميئوس في حالتيه - ان كل ذلك جعلني اعتقد ان استاذ ادوار  
بوكوك لم يكن هذا الشاعر الماجن الزاهد الذي ارجو ان أجلو صفحات حياته  
في دراسة مستقلة في يوم قريب .

ان التاريخ الادبي لحلب ، في القرن الحادي عشر الهجري ، يعج باسماء كثيرين من الاعلام في فنهم - فنون وعلوم عصر الانحطاط - وكل واحد منهم ، على رأي مؤرخي تلك الفترة : « أوحد الفضلاء وأبلغ البلغاء » ! او « نجم طلع من افق المكارم زائد الارتفاع ، ونزل منازل سعد رقي فيها عن قوس الشرف بأطول ذراع ، يقطع اوقاته في طلب الفضائل والكمال ، ولا ينزهه طرفه في غير سماء خلال ، أو رياض جمال ، فلو كان العلم بالثريا لناله ، أو بالعيوق لطاله » !

وقد أخذنا نبحت في جوف تلك الظلمات عن بريق ينير لنا الطريق ، واذنا بنا نلتقي بطائفة من الادباء والشعراء والمؤرخين ، وكل واحد قد بلغ الذروة في البلاغة بالنسبة لعصره ، اذكر منهم ابا الوفاء العرضي صاحب تاريخ معادن الذهب ، ونور الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية ، وعبدالله بن محسن قضيب البان صاحب رسالة « الفتوحات المدينية » الذي حذا حذو محيي الدين بن عربي في « الفتوحات المكية » .. وغيرهم من الادباء والشعراء الذين كانوا يعنون بقشور اللفظ دون المعنى .. وحتى في الفترة التي بدأ فيها الغرب عصر نهضته وانبعائه ، نعم ، في تلك الفترة المظلمة بينما كان الغرب يضع اساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد مما غير وجه حياته تغييراً تاماً كان ادباًؤنا يدورون في تلك الدائرة المغلقة من الآراء المتحجرة والالفاظ الميتة . واذ شعر شعرائنا مثقل بقيود الصنعة ، ومحصور في دائرة التقليد ، تغلب فيه مظاهر الضعف الخلق كالجبن والملق والشكوى والاغراق والقحة ؟؟ . ولا يزيد في كلتنا هذه ان تقسو على ادباء حلب ، في تلك الفترة من عصر الانحطاط ، لانتهاجهم هذا النهج ، فقد كان جميع ادباء البلاد العربية يرسفون تحت هذه الاعباء الثقيلة ، وكان الادب العربي بمجموعه ذا لون واحد ، قد خلا من عناصر الحياة ، كل مادته التلاعب بالالفاظ وتجميلها ، والافتتان بانواع البديع والتصنع والتورية والاحاجي والالغاز وغير ذلك من البهارج التي اورثت ادبنا السقم والهزال !

واذ اشير الى هذه الناحية من طابع الادب في ذلك العصر ، لا اريد ان اتوسع اكثر من هذا خشية ان يقذفنا هذا الاستطراد ، وبجمله واسع ، الى ملتويات بعيدة ، وكلامنا ينحصر في جلاء صفحة من صفحات الحياة في تلك الفترة ، وكان حافظنا اليها الصلة الوثيقة التي ربطت بين كبير مستشرق الانكليز في القرن السادس عشر الميلادي وبين الشيخ فتح الله الحلبي - ذلك الاديب الذي يحتمل بدوره ، مكانة مرموقة بين ابناء عصره ، وهو كما يصفه معاصروه ، « أوحده عصره في فنون الادب وعلو المنزلة » . فقد ترجمه ابن معصوم في سلافة العصر فقال : « قى العلم وكبه ، وبيت الفضل وأهله ، الحكيم الحكم ، السائر الامثال والحكم ، معدن المعارف ، وكنز الافادة ، وكعبة الفضائل وقبلة الوفادة ، تصانيفه في سماء الوجود كواكب ، وتأليفه لجمع الفوائد مواكب ، الى ادب مورده في البراعة معين ، يحسد إتمد مداده كحل عيون العين ، وديوان شعره عزيز المثل ، واكثر مقاطيعه حكم وامثال ، وكان له مجلس وعظ ونصح ، يزدحم لسماعه البكم والفصح ، فيقرع الاسماع بتذكيره وتحذيره ، ويصدع قلوب اولي المنكر بنكيره ، ويقص من المواعظ أحسن القصص ، ويقسم من اخبار الخوف والرجاء أوفر الحصص ، ولم يزل سالكاً هذه السبيل وارداً من صفو عينها السلسبيل حتى طوى الدهر منه ما نشر ، والدهر ليس بمأمون على بشر » .

ومن هذا الوصف نعلم ان الشيخ فتح الله الذي اختاره ادوار بوكوك ليدرسه العربية كان على جانب وفير من علوم العربية ، وكان اديباً ، ناقداً ، شاعراً ، متحدثاً .. ونعلم مما قرأناه في مختلف كتب السير انه من الرجال المدودين ، قد ألف وصنف ، وتولى افتاء القدس وسافر الى مختلف المدن ، وصحبه الوزير نصوح باشا والي حلب في رحلاته الى بلاد الروم ، وكان الوزير قد تتلمذ عليه ايضاً فلقي منه كل مكرمة .

ونصوح باشا هذا من كبار رجال الدولة في عهد السلطان احمد الأول ، وقد انتدبه والياً الى حلب ايمع الفتن والاضطرابات التي سادت مدة طويلة بين حلب ودمشق .. فقد وقعت ، في تلك الفترة ، مأس بين المدينتين يقشع لها البدن ،

وكانت الاقطاعية الجارحة تسيطر على مقدرات الوطن بشكل مريع ، فكان انشاء الوطن الواحد فريسة للاهواء ، وقد وقعت مظالم من الانكشاريين واتباعهم المتقلبين يدمى لها جبين الانسانية فجاء نصوص باشا ليقضي على هذه الفتن والاضطرابات فنجح في مهمته وأحبه الخلييون ، وكان الشيخ فتح الله من المقربين اليه ، حتى اذا انتهت مهمته وسافر والياً الى ديار بكر ثم الى استانبول ليشغل منصب الصدارة صحبه معه ، وان دل هذا على شيء فعلي المكانة التي كان يتمتع بها ادبنا الحلي

وقد كان لصحبة الشيخ فتح الله ذلك الوزير الخطير في سفراته المتعددة الى مختلف البلدان اثره غير المنكور في صقل شخصيته وامتداد افق ثقافته وبعد صيته ، وهذا الذي حفز رجال القنصلية البريطانية في حلب ان يدلوا ادوار بوكوك عليه .

#### - ٤ -

لقد توثقت الصلة بين الاستاذ وتلميذه فكان يلزمه صباح مساء ، وظل يقرأ عليه ، ويتعلم منه خمس سنوات كاملة الى ان استطاع ان يحذق الفصحى بعد ان حذق العامية من افواه الحلبيين .

وقد اهتم ادوار بوكوك الى تعلمه العربية ، بكنوز حلب ، اريد بمخطوطاتها ، وحلب مشهورة بين مدن الشرق كله بان خزاناتها تضم أندر المخطوطات وأنفسها في شتى فنون المعرفة .

لقد كانت تلك الكنوز مبعثرة هنا وهناك في مختلف مدارس حلب وجوامعها ، لا تضمها خزانات ولا تضبطها فهارس وسجلات ، انتشرت على الرفوف أو القمت في النوافذ والكوى ، قد علاها الغبار وعبثت بها الرطوبة والعفن والأرسة ، فوقف ادوار بوكوك من هذه الكنوز وقفة المتحسر المتألم .. كان يقلب كل مخطوطة صفحة صفحة ، وكانت تطول وقفته ، وقد يقضي النهار

بكامله دون ان يروي نهمه ، وكان يتساءل كيف يسمح الشرقي لنفسه ان يترك هذه الكنوز طعمة للغبار والرطوبة والعفن والأرضة ؟ لا .. ان مكانها ليس هنا ، في هذه الأمكنة الباردة التي ستحيلها ركاماً من الاوراق المهترئة .

لقد ودَّ ادوار بوكوك ، وهو يتلقى دروس العربية من استاذه الشيخ فتح الله - ودَّ لو استطاع ان ينقل كنوز الشرق الى الغرب ليضعها في المكان اللائق بها الى جانب الكنوز الثمينة التي يحتفظ بها الغرب . ولكن كيف السبيل للحصول على هذه المخطوطات النادرة ؟

لا نريد ان نورد بهذه المناسبة المثل الجايي العامي الذي يقول : « ان المال الداشر يعلم الناس الحرام » . لا .. فادوار بوكوك ، وله صفة الاستاذ الجامعي وصفة رجل الكهنوت - أرفع من ان يمدَّ يده الى سرقة كتب من جامع أو مدرسة ولا سيما وهو ممن ينتسب ايضاً الى السلك القنصلي ! .. ولكن المتولين - جازاهم الله على فعلتهم النكراء - هم الذين مهدوا السبيل لادوار بوكوك ان يضع يده على مئات الكتب من أنفس مخطوطات حلب ، كان يبتاعها بواسطة بعض المتولين أو بعض المدرسين بأثمان اقدر انهما بخسة للغاية ، وما زال حتى جمع من حلب مخطوطات تزيد على الألف ، وفي رواية قد قاربت الألفي مخطوط !

يقول الدكتور ج. ا. آر بري مؤلف كتاب « المستشرقون البريطانيون » ، في صدد كلامه عن بوكوك انه في اثناء السنوات الخمس التي عاشها في حلب جمع مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية تكون الآن قسماً من آثمن محتويات المكتبة البودلية - نسبة الى استاذه وليم بيدويل مترجم القرآن الذي أهدي مكتبته الى جامعة اكسفورد .

ويقول برز لويس في كتابه « مساهمة البريطانيين في الدراسات العربية » ، وهو يعرض الى مخطوطات حلب ، التي نقلها ادوار بوكوك :

« فقد اقتني مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية عاد بها الى اكسفورد ، فأقنعتها من الدمار الذي كان من المحتمل ان يحل بها » !

اتقدها من الدمار الذي كان من المحتمل ان يحل بها .

لقد استوقفتني هذه الجملة كثيراً ، ففيها تطوي كل هذه الفوارق بين الشرق والغرب ، بين حرصه على مثل هذه الكنوز وتهاوننا في الحفاظ عليها .

وهذه المخطوطات التي تحمل بين صفحاتها علوم الأولين من فلسفة ومنطق وفلك وتاريخ وشعر وأدب - لم تكن في نظر بعض شيوخنا الاجلاء الا "تخرصات" أولى بها القمامات أو أسنة الالهيبة ! فالجمالة الطاغية على روح العصر في تلك الفترات السود لم تكن لتعطي اهمية بالغة لمثل هذه الكنوز التي كانت مبعثرة هنا وهناك ، غير معتنى بها كما قلت ، لا يلتفت اليها الا بعض كبار المدرسين الذين كانوا لا يهتمون ايضاً الا بكتب الفقه والتفسير . أما بقية كتب الأدب والحكمة والشعر والرياضة والفلسفة والمنطق فكانت في نظرهم اضافيل وتخرصات ، وهي اليوم لا تقدر بثمن ومرجع وثيق لقطاع مؤلفي الغرب والشرق الذين يُعنون بعلوم العربية وآدابها .

ونحب ان نساءل ، ونحن نتحدث عن هذه المخطوطات التي نقلت من حلب الى لندن على يد ادوار بوكوك هل كان ذلك بمعرفة استاذ الشيخ فتح الله ؟

انتا لا تريد ان نحمله وزر هذا العمل ، كما انتا لا تريد . من جهة ثانية ، ان نبرئه ، فلولا اتصال بوكوك به واستغلاله دالة الاستاذ على تعليمه ، لما استطاع ان يغشى مدارس حلب وجوامعها ويظفر بتلك الكنوز .

<sup>ولس</sup> ولكن فقدت حلب ، هذه الثروة الثمينة ، فبحمد الله ، انها وصلت الى أيدي تعرف للعلم قيمته ، فلولا اولئك الهداة الأعلام الذين اتخذوا الاستسراق صنعة لهم لفقدت اكثر تلك الكتب النفيسة ولعدا عليها الزمان شر عدوان !

وكل من أحاط بشئون الاستسراق يعلم ان في خزائن كتب انكلترا وفرنسا والمانيا وهولندا وروسيا واسبانيا وايطاليا والنمسا والسويد والدانمرك ما يقرب من الستين الف مخطوطة من المخطوطات العربية ، ولأكثر هذه المخطوطات



فهارس حسنة مطبوعة ، تهدي الناس الى ما فيها من كنوز ، والى ما في تلك  
الكنوز من فوائد تاريخية وعلمية وأدبية » (١)

فلولا المستشرقون الاعلام لكان اكثر هذه الكنوز طعمة للدمار .  
وإذا علمنا ان قسماً غير قليل من هذه المخطوطات قد نشر نشرأ علمياً أفاد  
الثقافة العربية افادة لا يجدها منصف قدرنا فضل اوائك الهداة من المستشرقين  
على حركتنا الفكرية . ولئن وضع بعضهم علمه لاغراض السياسة وخطط الاستعمار  
فان اكثرهم قد خدم العلم للعلم ، وكانت جهودهم ترمي الى صون هذه المخطوطات  
ونشر نفائسها ، وهي جهود جديرة بالتقدير والتمجيد .

- ٥ -

حين رجع ادوار بوكوك الى وطنه رجع مزهواً بعلمه وبما حمله من  
كنوز ، وقد استقبلته لندن كرجل مغامر - والسفر الى الشرق في تلك الظروف  
لون من المغامرة - فما كاد يستقر به المقام وينفض عنه اعباء السفر ، ويعرض  
هذه الكنوز التي حملها معه على زملائه واساتذته حتى اخذت شهرته تستفيض ،  
واذ كان من خريجي اكسفورد ومن حملة شهادة الماجستير فقد اسند اليه في  
١٠ آب سنة ١٦٣٦ المنبر الجديد لاستاذية اللغة العربية ، فحاضر في الأدب والنحو ،  
وكانت اولى محاضراته عن بلاغة الامام علي وكتابه ، وقد طبعت هذه المحاضرة سنة  
١٦٦١ م ، وأقبل على محاضراته لا تلاميذ الجامعة فقط بل اكثر المتخرجين من  
الجامعة وبالاخص زملائه في التدريس .

وفي ختام السنة الدراسية فكسّر برحلة ثانية الى الشرق ، ويظهر ان  
السنوات الخمس التي قضاها في حلب قد اثارت في نفسه الحنين اليها والى مختلف  
بلاد الشرق .. وقد كان هذا الحنين يدفعه الى ارسال الرسالة تلو الرسالة الى  
استاذة ، وكما كنا نود ان نعر على هذه الرسائل ، وهي وثائق ثمينة تشير الى  
علائق الفكر بين الشرق والغرب ، ولا نعلم اذا كان ورثة ادوار بوكوك يحتفظون  
ببعض رسائل اديبنا الحلبي الذي كان يشير حنينه الى موطنه .

(١) المخطوطات العربية في دور الكتب في امريكا لكوركيس عواد ص ٣

وحين قام برحلته الثانية الى الشرق سافر مع وليم جريفز المستشرق  
البريطاني المختص بشئون الفلك والذي كان يجيد العربية والفارسية معاً .

وقد سافرا الى تركيا وأقاما في استانبول حتى سنة ١٦٤٠ م ، وكان لا  
بدلاً لادوار بوكوك وقد وصل الى الشرق ، من زيارة حلب التي كان لها اثر غير  
قليل في تكوين شخصيته الادبية ، وربما كانت حلب ، هي قصده من الرحلة الى  
الشرق و « مخطوطاتها » هي السبيل !

وقد جاء الى حلب يحمل الى اصدقائه وإلى استاذه الكثير من الهدايا ..  
وبؤ كد بعض المستشرقين البريطانيين ان ادوار بوكوك التقى باستاذه الشيخ  
فتح الله في هذه الرحلة ، ولكن تحقيقنا يدحض ذلك ، فهذه الزيارة كانت في الفترة  
الواقعة بين سنة ١٦٣٧ وسنة ١٦٤٠ م . والشيخ فتح الله البيلوني قد توفي سنة  
١٠٤٢ هـ الموافقة لسنة ١٦٣٢ م ، أي بعد وفاته ببضع سنوات ، ونرجح انه ،  
في الرحلة الثانية قد التقى بابن الشيخ فتح الله ، وقد كان كأبيه من الادباء المعروفين  
في زمنه ، وبصفه معاصروه بقولهم :

« كان غرة في جبهة الفضل ، كثير الادب ، راوية للشعر والوقائع ، خبيراً  
بصنعة النقد ، غواصاً على دقائق الادب ، ولد بحلب ونشأ بها ، وتآدب بوالده  
فتح الله ، وقد ولي القضاء وسافر الى مختلف المدن - الى مصر وسوريا ، وله شعر  
يفيض رقة وعدوبة »

وقد رأى ادوار بوكوك عند ابن استاذه الاديب ، الشاعر ، الناقد كل ما  
يكمل ثقافته الادبية ، ولا سيما بعد ان عهدت اليه جامعة اكسفورد بـ كروسي  
الدراسات العربية .

واستطاع ، في هذه الرحلة ايضاً ، ان يجمع أنفُس المخطوطات وأندرها ،  
وان ينقل معه ، كما تقول الرواية الانكليزية ، شجرة تين غرسها في حديقة جامعة  
اكسفورد ، وظلَّ يتفياً ظلّالها الى آخر ايام حياته ، وقد ظلت هذه الشجرة أقدم  
شجرة من نوعها في انكلترا . اما لماذا نقل شجرة التين ولم ينقل شجرة فستق  
مثلاً .. فهذا امر يرجع الى الذوق لا مجال لتعمليه ، ولم يحاول من كتب عنه ان  
يمرض الى هذه الناحية اكثر من رواية الخبر !

بعد هاتين الرحلتين انصرف ادوار بوكوك الى الحياة الادبية الخالصة ،  
فبدأ يؤلف وينشر بعض المخطوطات ، واستطاع في فترات متقطعة ان ينشر الكتب  
والمخطوطات التالية :

١ - كتاب « الحضارة العربية » وهو مقتبس من كتاب « مختصر الدول »  
لأبي الفرج ابن العبري ، وقد صدر سنة ١٦٤٩ م وأهداه الى ملك انكلترا ، وقد  
اعيد طبعه في اكسفورد سنة ١٨٠٦ م .

٢ - كتاب المختار من تاريخ العرب الذي يعتبر اول نص عربي طبع في  
اكسفورد ، وقد عرض في هذا الكتاب الى نشأة العرب وعاداتهم وآدابهم وديانتهم .

٣ - كتاب « مختصر التاريخ العام » لابن البطريق سنة ١٦٥٨ م .

٤ - ترجمة مجمع الامثال للعيداني ، وهو كما تعلمون يضم أمثال العرب ،  
وترجمته من الصعوبة بمكان عظيم ، وقد نشر الترجمة المستشرق الهولندي شولنتز .  
وطبع اجزاء منها سنة ١٧٧٣ م . وسنة ١٧٧٥ م .

٥ - لامية المعجم ، وهي دراسة نقدية لقصيدة الطغرأني تصححها ترجمة  
ونفاير وافية ، وقد طبعت سنة ١٦٦١ م .

٦ - مقالة عن مزايا القهوة من كتاب طب عربي نشرت سنة ١٦٥٩ م .

وبعد نشره هذه الكتب استفاضت شهرته لا في بلاده فحسب بل في جميع  
المعاهد العلمية ولا سيما في البلاد التي تعنى بالاستشراق وبالمخطوطات العربية .

\* \* \*

هذه هي ، ايها السادة ، قصة شجرة التين التي نقلت من حلب الى لندن  
والتي لا تزال مزدهرة الى اليوم كما يقول برزلويس ، - وان كنت اشك في ذلك -

أو قصة الثمار البانعة ، أريد تلك المخطوطات النادرة التي نقلت من حلب الى لندن،  
وبتعبير أعم قصة هذا المستشرق الذي جاء حلب قبل ثلاثمائة سنة فوجد عند احد  
فطاحل ابنائها ضالته المنشودة - عند الشيخ فتح الله البيلوني - ذلك الامام الذي  
يرقد في تلك التربة المهجورة من ترب حلب ، في الزاوية المتهمة الكائنة في زقاق  
البيلوني ، الواقع وراء خان الميسر في محلة جب اسد الله .

\* \* \*

وهكذا ، فقد استطاعت حلب ، في تلك الفترة من حياة الفكر ، ان  
تثير السبيل لرجل تعتبره دوائر الاستشراق من الرواد الذين وضعوا أسس هذا  
العلم على دعائم وطيدة والسلام .

### مراجع هذا البحث :

- خطط الشام محمد كرد علي  
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر للمحي  
تاريخ حلب لكامل الغزي  
اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء للطباخ  
مجموعة الفرفة التجارية الحلبية  
مساهمة البريطانيين في الدراسات العربية لبرنر لويس  
قاموس الاعلام لشمس الدين سامي  
الاعلام لخير الدين الزركلي  
المستشرقون البريطانيون للدكتور ا. ج. ابري  
المستشرقون لتنجيب العقبي  
سلافة العصر لابن موصوم  
دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٥٠  
تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك .  
المخطوطات العربية في دور الكتب في امريكا لكوركيس عواد

المحاضرة الثانية

## الخرائط الادبية التي عاصرتها

خليل الزمرادي

= القيت بتاريخ ٧ آذار ١٩٥٢ =

و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه

٥٥٥

و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه  
و كذا في غير ذلك من الامور التي تليق من شأنه

## التمهيد بقا نيومك تالما

### مراجع طرايب

- ١- كتاب...
- ٢- كتاب...
- ٣- كتاب...
- ٤- كتاب...
- ٥- كتاب...
- ٦- كتاب...
- ٧- كتاب...
- ٨- كتاب...
- ٩- كتاب...
- ١٠- كتاب...

٥٥٥

سيداتي ، سادتي !

أضحكني صديق لي شاهد عنوان « محاضرتي » هذه ، فابتدرني قائلاً :  
ان هذا العنوان يجعلك كبيراً ، لكي يسمح لي بمعاصرة الحركات الأدبية ... وقد  
يكون قوله صحيحاً لو اننا كنا نجما حيث كان الناس يحمون ببطء واجترار ، وحيث  
كانت تمثي الحركات الرئيسية ببطء واجترار . ولكننا ، في عصر تتوثب فيه  
الحركات ، وتبدل معالم الاشياء بين ليلة وضحاها ... وما عرف الفكر البشري  
 يوماً أن ظلالة تسبقه بهذه السرعة في يوم كهذا اليوم ... كما لم تعرف الانسانية  
اياماً تمخضت بالحوادث الكبار كهذه الايام . ويحق لنا أن نقول - فخورين أو  
آسفين - اننا شاهدنا عجائب الانسانية في ارتفاعها وانخفاضها ، وإنسانيتها وبهيميتها :  
نحن الذين عشنا في حربيين مظلمتين . ولا ندري ماذا ينتظر العالم ؟ وتلك - اذا  
جاءت - نالمة الأثافي ، كما تقول العرب في أمثالها . فعلى جباهنا انطبعت حوادث  
يصح لنا أن نردد فيها قول المتنبي :

أني الزمان بنوه في شببيته فسره ، وأنيناه على الهرم

ولكن ... ما لنا والحوادث الخارجة عن نطاق موضوعنا ! إذ يهمننا منها  
تلك الحوادث التي جعلت آدابنا تضطرب وتختبط مثلها ...

ان من يقارن بين الانتاج الغزير الذي تجود به المطابع اليوم - دون النظر الى قيمته - وبين الانتاج الضئيل السابق يقدّر المجال الذي تقدم به الفكر وأسرع فيه الأدب . وإن كان هذا الانتاج يتفاوت في روحه وقيمته . ففي مطلع القرن العشرين لم يكن هنالك شيء الا ما يُشعر بأن روحاً جديدة تدبّ فيما نسميه جسداً عربياً هامداً ... من آثار قديمة يختلط فيها أدب عصور الانحطاط ، والأدب الفحل العباسي ... ومن آثار حديثة لا يزال التقليد يغلب عليها ، وعدم الصراحة في القول والتفكير .

فتحننا عبوننا - في هذا الجو - على النور ، وطلبنا أن نقرأ ، وكنا لا نجد كتباً تليقنا قراءتها ، واذا وجدنا لم نجد ما يترج مع أنفسنا . نسأل أساتذتنا ، فيقولون لنا : - عليكم بكليلة ودمنة ، ... بنهج البلاغة ... بمقدمة ابن خلدون ... فنحمل هذه الكتب . ، نقرأها ، نحملق فيها ، ثم نطوبها بأئسين لاننا لم نفهم منها شيئاً . إما لمزاجها البياني ، أو مستواها الفكري . وعلة الكتب علة رئيسية في حياة الشباب .

إن لي رأياً في أن للكتب أعماراً خاصة تترك آثارها فيها . فالكتاب الذي يسرك في مرحلة ما قد لا يكون في غيرها إلا شيئاً ميتاً . والكتاب الذي كنت تفرّ منه قد تقبل عليه في مرحلة ثانية ، وقد تعيده . وما ذلك لان الكتاب قد تغير ، وانما التغير قد حدث فيك ، وفي عواطفك ، وفي اهوائك ... ولذلك كنا نعرض عن تلك الكتب القيّمة - في ذلك العمر - لانها ليست من عالمنا ، بينما تقبل عليها الآن لانها وجدت مأربها الى أنفسنا . ولذا أحب ان اذكر اني من اصحاب الرأي القائلين : « بأن القيم الادبية لا يمكن ان تتحجّر ، والنقد نفسه لا يمكنه ان يضع قواعد ثابتة الاثر الادبي ! » فأنت تهتز للاثر الادبي ، بالاعجاب او الاعراض عنه بحسب اهتزازات نفسك وتقبلها لهذا الاثر . أي « ان المذهب التأثري الذي قال به النقد الفرائسي « جول ليمتر » هو المذهب الذي يسيطر على كل ما تنتجه القرائح . فأنت مدعو اذاً الى التمتع بالآثار الادبية والتلذذ بها . ولذلك يعتمد اصحاب هذا المذهب على العاطفة والادراك الموحى به . ولكن اذا سألتهم : ماذا أعجبهم من هذا؟



لم يحددوا لك ما أعجبهم ؛ لانه لا 'يحدد' ، ولا يستقر . إن ما أعجبهم يحيا بصورة خفية في الاصل الخفي للنفس الانسانية ، وفي مدارج العقل من حياتنا العميقة الصماء ! ولذلك تبدت قيمة الاثر الادبي نفسه عند قارئ وقارئ ، بل عند ناقد وآخر ؛ بل لتبدل عند الانسان نفسه بالنسبة الى اطواره المتعاقبة في مجرى حياته . فكم أعجب قارئ لشاعر - مثلاً - في حديثه ، ثم زال هذا الشاعر من حياته . أكان واهماً في حاله ؟ لا ، انه كان اكثر صدقاً في الحالتين بالنسبة الى أطوار نفسه وحياته ... اننا نحن المتبدلين دائماً ، نعيش ونأمل في عالم يتبدل . وهب ان الشيء الملحوظ قد وقف عند شكله الواحد ابداً ، فيكفي أن نفسنا - أنى انعكست - تتحرك وتموج بشقى الاحساس ، وبذلك يستحيل علينا الجواب بغير تأثيرنا الحيني . إن الآثار الادبية كذلك تتحرر إزاء مرآة عقلنا . ولما كان هذا التحرر طويلاً فان المرآة تبدل في البرهة الواحدة ، ولما كان الاثر الواحد يرجع اليها مرة ثانية بطريق المصادفة فانه ، إذ يمود ، لن يعكس الصورة نفسها التي عكسها في المرة الاولى ... وما كان تأثير اليوم بموجب لتأثير الغد ؛ لان لكل حين تأثيره بحسب الحالة النفسية التي نكون عليها . واكثرنا قبض له أن يقرأ كتباً وروايات وقصائد وأن يتأثر بها في حينها ، لانها صادفت هوىً حينياً في أنفسنا ، وهذا الكثير قبض له أن يمود الى شيء منها ؛ فاذا بها لا تحرك ساكناً ، ولا تترك سوى الفراغ . لان الامر كما قاله فيلسوف يوناني « انك لا تغتسل في نهر مرتين » وأنت تظن انك واحد في شعورك ، ثابت في عواطفك ، وأنت في الحقيقة كتلك الشجرة التي تنمو ، وتكتسي ، وتعري كأنها من ذاتها في عوالم لا تتناهى .

ليس من اليسير برغم تحديدي العنوان الذي وضعته ان اكون - كما يطلب العلماء - مركزاً للموضوع ، محمداً لخصائصه ؛ لاننا نحيا في - عهد من ادبنا - يشبه أعنف نقطة في اوقيانوس تلاقفت فيه تيارات مختلفة ، وهبت عليه عواصف مختلفة ، فأصبحت لا تعرف أين موضعك منها ؛ وإن الامر نفسه ليثقل عليّ لو أردت تحديد تأثير تلك الحركات في نفسي وحدها ، فكيف العمل على جعل تلك الحركات مذهباً عاماً مستقراً ؛ ولكني متيق منها تلك الخطوط الكبرى التي تأثرنا بها.

لنعد الآن القهقري ! ومنكم من يستطيع العودة معي بسهولة ، ومنكم - وهم الشباب - يستطيعون أن يتخيلوا معي هذه العودة ، وليست بعيدة عليهم ؛ لأنهم لا يزالون يعيشون بافكار مبدأ هذه العودة وعواطفه ... ففي منتهى الحرب الاولى خرجنا منها أحداثاً ، ولكن ليست لنا همّة الاحداث ولا طموحهم لأن تجاعيد الجوع والألم والشقاء وقد اهل طبعت جباهنا بما لا نساها . فكان فينا الجوع الحقيقي . والجوع المجازي الى اكتشاف الآفاق الادبية . وقد كان من فئات الحرب الاولى أن انقطعت الصلات بين الاخوات من البلاد العربية . فلما عاد التواصل قامت حركة عنيفة مندفعة تشبه لقاء أمواج عنيفة حيل بين بعضها والبعض . ثم تواصلت . فهضنا نستمع ، وأقول : نستمع لان الشعر كان يُتقنى به في كل موضع ، وكان كبار الشعراء في الافطار العربية يواصلون الغناء . ونهضنا نقرأ ؛ لان المطابع العربية بدأت تجود بمختلف القرائح . ولكننا - رغم هذا - لا نزال حائرين في أي الكتب اجمل ؟ الحق أن آراء اساتذتنا لم تنفعنا شيئاً في هذا المضمار ؛ لاننا كنا لا نقرأ الا ما يلذنا ، وإن خالفونا فيه . لانهم يحكون على عقولنا ، ولكنهم لا يحكون على أذواقنا . وأذكر الكثير مما كنت اعانيه من هؤلاء الاساتذة وبعض الناس حين يجردوني أقرأ مثلاً « لجبران ، أو الريحاني ، أو نعيمة » باعتبار أن افكار هذه الجماعة مسمّمة . ولكني - ويا للعجب ! - تناولت سموم هذه الجماعة في حداتي بأكبر كمية ، ولم تظهر علي اعراض التسمم ! وينقمون علينا أننا نقرأ روايات المنفلوطي مثلاً ، لانها روايات غرامية ، والغرام ممنوع بين الشباب ؛ كأنما هو مادة لا يُسمح بها - عندهم - الا للكهول وعند الكهولة فقط ! فلذلك كنا حريصين على مناوئة هذه الجماعة ، وتحديثها فيما نطالعه ، لاننا نريد ان نعرف بسلطان أذواقنا ، ولذلك وجدنا أنفسنا ...

نحن الآن ازاء حركات كما وصفتها عنيفة ، متناقضة ، متخاصمة كتلك الخصومة التي كانت بين أهل القديم وأهل الجديد ، أو كتلك الخصومة التي تبقى بين العقل المتسمر والعقل المتطور ، على ان لكل حركة من هذه الحركات خصائصها الفكرية والفنية ... وكلها قد انصبت في تفكيرنا وأدبنا . ومن العجيب انها أضاعت تقريباً خصائصها الذاتية لتتحول الى حركة واحدة ذات خصائص

موحدة ، وما مثل الافكار والحركات الادبية تختلف ، وتمصف ، ثم تتحد ،  
وتمازج في اللغة واحدة .

هنالك : الحركة الادبية « المهجرية » ... وقوامها رجال هجروا الوطن الى  
ما وراء البحار طلباً للرزق الميسور . وهم يحملون شعلة ادبية في صدورهم . فيهم  
التاجر ، والمحرر ، والكادح سعياً . ولكنهم حين ينتهون من اعمالهم المختلفة  
يجمعهم ادب واحد ، وفي ذلك سر انطباع الانسان على أن يتغنى حيث كان بألامه  
وسرته ، وان يلجأ الى الفن من واقعه الثقيل ، مروحاً بأوهامه عن نفسه ، يوم  
كان الفنان لا يقدر على اكثر من الاوهام ... وقد وجدوا في تلك الارض تربة  
صالحة لجدور الادب الصحيح ؛ فان فيها الحرية التي كانت مفقودة في بلادهم ، وفيها  
الحنين الدائم الى الاهل والوطن ، وفيها الاتصال بثقافة الغرب من غير ترجمان .  
وفيها اللفة التي شجعت على خلق جمعيتهم الادبية المعروفة « بالرابطة القلمية »  
وأبرز رجالها جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وايليا ابو ماضي الشاعر .  
كانت هذه الحركة الادبية ومنتجاتها الرائعة تجوز البحار ، لتصل الينا وفيها  
حرارة العاطفة ، وصدق الشعور . ومن منكم لم يقرأ في حديثه آثار هذه المجموعة ،  
ومن من الاحداث لا يقرؤها اليوم كما كنا نقرأها؟ ويلتذون بها كما فعلنا امس ؟  
دون ان تحدش ركازة اللغة ، واضطراب البيان آذانهم ؟ لانها عتيقة بروحها ،  
عتيقة بألوانها ، عتيقة بجزئيتها وصراحتها . ولعل أشمخ هذه المدرسة « جبران »  
الذي خلق فناً بكل شيء فيه ... قد احتل قلوب النشء بفتنة بيانه وموسيقاه  
- كما يقولون - . ولكنه في الحقيقة لم يفتنها الا بسببين : الاول انه استطاع أن  
يصور الكتابة ... الكتابة العميقة المغيمة في الشباب حين ينطوي على نفسه ،  
ويئس ، وينحدر ... والثاني انه استطاع ان يصور التمرد العنيف في الشباب  
نفسه حين يجد سبيلاً الى التمرد . والكتابة والتمرد حالتان متناقضتان اسماً ،  
ولكنهما متلاقيتان وجوداً في النفس ، لانهما نتيجة طبيعية لاصطدام طموح النفس  
في الحياة والواقع ، وبخاصة طموح النفس الفنية ! أما تمرد الذي كنا نحبه ،  
ونحبيه فهو حالة طبيعية تستجيب للاوضاع الجامدة في مجتمعاتنا ؛ فعندنا اوضاع  
جامدة ، وحالات تقايدية ليس فينا القدرة على مجابها ، أو الحد من سلطانها . فاذا

جاءنا واحد يعلن هذه البطولة قرأناه كأنما يصور أنفسنا ، ويعبر عمّا أسكتنا  
الجن عنه . ولذلك يعيش « جبران » دائماً بأبطاله المتمردين لأنه ينقل عن تمردنا  
الباطن . أما « جبران » الكئيب فهناك كاتب - في مكان آخر - يغلبه على هذه  
الصفة ، وهو « المنفلوطي » والمنفلوطي كاتب محبوب عند النشء كثيراً . هذا  
يريد إصلاح المجتمع عن طريقة استدراج شفقة الأقوياء ، وتصوير آلام الضعفاء ،  
فلست ترى في صورته الا كل صورة مظلمة الالوان ، تحمل في طياتها اليأس  
والوجوم . وذلك لا يرى صلاحاً ممكناً الا بنزع ثوب المسكنة والاستسلام ،  
وإعلان التمرد الفكري والروحي على كل شيء ، حتى على الفكر نفسه .

ثم يرى تمرد جبران بنطفيء ، وتحمل محله صوفية انسانية تدعو الى قيام  
الحياة على المسالمة ، لا على التنازع . وتبني الانسانية المتحابة لا الانسانية المتباغضة .

قد تسألني : كيف تبدلت هذه النفس ؟ وما هي الدوافع الى هذا التبدل؟  
أراد الناقد المعروف « ميخائيل نعيمة » أن يرد تمرد جبران في عواصفه الى تمرد  
الفيلسوف الالماني « نيتشه » في كتابه « هكذا قال زرادشت » والحق ان هناك  
تشابهاً كبيراً بين هذين الكتائين في الافكار والصور والاسلوب . أما الدوافع  
الانسانية الاخرى فأردّها بنفسي الى « الناقد نفسه نعيمة الذي لم يبدل فكرته  
وطريقته منذ زاول التفكير والادب . فهو ابن الادب الانساني الذي اعترفه من  
الادب الشرقي والادب الروسي . فهل استطاع « ميخائيل نعيمة » وهو الصديق  
الملازم لجبران ان يتغلب بروحه الانسانية الهادئة على تمرد جبران؟ إنه استطاع...  
ولكن انسانية جبران بقي لها اسلوبها الشخصي في كتابه « النبي » المكتوب  
بالانجليزية . ولعل « نعيمة » نفسه يجولنا هذه الناحية يوماً كما جلا لنا اسباب  
تمرده . وإلا فان جبران ذاته بما يحمل من صور الشرق وأدب الشرق كان قادراً  
على أن يجد طريقه كما يريد ...

وهكذا نجد أن أبرز ما تمتعت به هذه المدرسة - على قصر عمرها - تعبير  
انساني حر ، اتخذ النفس الانسانية موضوعاً له . فيه حرارة العاطفة والتمعق في  
وصف التأثيرات النفسية ، حتى باتت الى الانفعالات الشعرية أدنى . وكان من أثرها

البياني البعد عن الاساليب الخافية ، والاكثر من التراكيب . والصور الغريبة  
الملوثة .

وهناك الحركة الادبية المصرية : وهي أم الحركات الادبية في العالم العربي :  
وكانت الحركة الادبية فيها على أشد ما تكون اختباطاً واضطراباً ، لانها تضم أذباء  
مختلفي النزعات ، متبايني الثقافات ، فمنهم اهل القديم الذي لا يتسع صدره لأي  
جديد ، ومنهم أهل الجديد الذين ينفضون اليد من كل قديم . ومنهم الذي ينتصر  
للأسلوب ، ومنهم الذي يجد الأسلوب كساءً أو طلاءً ، ويجعل الأهمية للمعاني ...  
كل هؤلاء كانوا يعملون ويتلاقون ، ويتخاضون . والأدب - لا بد - هو الكاسب  
من هذه الخصومة ... لقد كان المثل الأعلى للشعر شعر شوقي ، والمثل الأعلى للنثر  
نثر المنفلوطي باناقته . وفي ذات يوم نسمع أن كتاباً اسمه « الديوان » في نقد شوقي  
والمنفلوطي ، كتبه شابان محرران صحفيان : هما عباس محمود العقاد و ابراهيم عبدالقادر  
المازني . سمياه الديوان ، لا باعتباره ديوان شعر ، لانها ارادا فيه التقد لا الشعر ،  
أخرجه سنة ١٩٢١ . وقد جاء في مقدمته « أنه كتاب يتم في عشرة أجزاء  
موضوعه الادب عامة ، ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة  
وأوجز ما نصف به عملنا أنه « إقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما ،  
والاختلاط بينهما ، وأقرب ما يميز به مذهبنا أنه مذهب انساني مصري عربي :  
انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان ، خالصاً من تقليد الصناعة المشوّهة ،  
ولانه من ناحية اخرى ثمرة كفاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك  
بين النفوس قاطبة ... » . وقد مضى التاريخ بسرعة لا تبدل ، وقضى أن تحطم  
كل عقيدة اصناماً عبت قلبها . وربما كان تقدماً ليس صحيحاً أوجب وأيسر من  
وضع قسطاس الصحيح ... فلماذا اخترنا أن تقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل  
المبادئ الحديثة ... وسردفها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ... » ولكن هذا  
الوعد لم يتم ، لان صاحبي الديوان اكتفيا بجزءين حطما فيها شوقي شاعراً ،  
والمنفلوطي نائراً .

من هنا بدأت حركة جريئة تفهم الأدب فهماً صحيحاً ، واستطاعت هذه

المدرسة أن تربى جيلاً جديداً يتذوق الادب تذوقاً جديداً لا يقف عند اناقة في  
الاسلوب او زخرفة في الصورة . ومن المسلم به ان هذا الجيل الجديد يجب ان  
يكون مثقفاً متمكناً حتى يمكنه ان يميز . وهكذا التقي كتاب « الغربال » الآتي  
من المهجر ، والديوان القادم من مصر يدعو الى أدب صحيح ونقد يستقيم  
في الذوق الصحيح ، دون ان يكون له قواعد ... ولكن اللهجة التي استخدمها  
صاحبها الديوان رمتها بالحقد والحسد . وإنها للهجة قاسية يبرأ منها النقد النزيه .  
ومما زادها اتهاماً وقوفها على النقد دون ان يعرضها للنماذج الادبية العالمية التي  
وعدا بها في المقدمة . واذا وفيما بشيء مما لم يمدا به فهو مجموعة شعرية للعقاد  
والمازني ، وكلنا يعلم نصيب الاثنين في الشعر . وهذا كله لا يمنعنا ان نقول :  
« إن اقوم المقاييس النقدية الادبية التي قامت في ادبنا الاخير كان يحملها هذان  
الرجلان اللذان منحا : احدهما القسوة والفظاظة ، وثانيهما الخفة والتهمك ...  
ونقدتها - كما قلت - مستلهم من « المذهب التأثري » . والحق ان النقد الذي  
استلهمه المتأثرون بالادب السكسوني كان نقداً تأثرياً . - كالعقاد والمازني -  
بينما النقد الذي نهجه المتأثرون بالادب اللاتيني كان اكثر ميلاً الى « القوانين »  
التي يحارل اصحابها اخضاع الادب والذوق لها - كطه حسين في بعض كتبه -  
وقد اخضع النقد لكثير من التجارب ، وظهر ان كل نقد ، يهمل فيه نصيب  
الذوق فالى الفشل ...

وفي قلب هذه الحركة استعرت حركة ثانية هي ابعد مدى وعمقاً في اسبابها  
ونشأتها ، لانها لا تستقر الا حيث تبدأ الحياة ... هذه الحركة قامت بين اهل  
القديم واهل الجديد كما قامت وتقوم في كل عصر . وقد قدم كل فريق عدته  
وعتاده . وبهمنا من هذه الحركة دواستها « كذهب » دون ان نقف على ما جاء  
فيها من مهارات ومنافرات . وهذا المذهب الذي يزيد ان نعبه عنه بالمذهب  
الذي يسمح بحرية الفكر في المباحث الدينية والادبية .

منذ خرج الفكر الاسلامي - من منطقتة المجدبة المهددة - على يد الشيخ  
محمد عبده وجمال الدين الافغاني اللذين اقتنعا الاذهان بان من عوامل انحطاط

التفكير الحجر على تلك الحرية التي ابدعت الحضارة السابقة ؛ هذه الحرية العقائدية التي كانت اليونان مهدها الاول هي الجديرة بان تعيد الى الفكر العربي خاصة الحياة مرة ثانية . والحرية لا تتحقق بمجتمع قبل ان يشعر الفرد بحريته تجاه نفسه وتجاه مجتمعه . ولذلك سمح بعض المفكرين لانفسهم بالمناقشة والاخذ والرد فيما كان الناس يمتقدون بأنه لا مجال فيه للمناقشة . وكان من ابطال هذه الحرية الفكرية جمال الدين والشيخ محمد عبده وقاسم امين الذي اعلن الحرب على قيود المرأة ... وكثيرون من هؤلاء الأبطال اضطهدوا ، وحمل عليهم . ولكن المذهب الذي اعلنوه هو الذي انتصر ، فبدأ الناس يشكّون في القيم الموروثة ويتناقشون في الاشياء المقدسة ... ويسلخون عن « إيزيس » المحجوبة كل الحجب ليخرجوها عارية للناس . فكان من نتاج هذا المذهب الجريء كتابان احدنا ضجة عنيفة في مصر : الكتاب الاول « الخلافة » الفه الشيخ علي عبدالرازق اثبت فيه ان الخلافة امر لا تعلق له بالدين ، وانما هو اتفاق دنيوي لم ينص عليه القرآن ولا الأثر ، ولا الرسول نفسه حين اهمل امرها . فكان ظهور هذا الكتاب محرراً كلاً للافكار المقيدة . قابله اهل الجديد بالاكبار ، واهل القديم بالانكار ؛ لانهم وجدوا فيه بادرة - للدين - منذرة . حوكم المؤلف ، وحكم ، وفصل من منصبه في الازهر ... ولكن متى كانت الافكار يحكم عليها ؟ فقد علمنا التاريخ ان كل فكرة عذب اصحابها هي الفكرة التي اشتعلت وانارت ، وان الذين يحرقون الافكار الحرة هم وحدهم الذين يحترقون ... وبعد قليل نسي هذا التحدي ومضى ، الكتاب لسبيله ، والشيخ في ارتفاعه ...

والكتاب الثاني - وهو الذي يمس حركتنا الادبية هو كتاب الشعر الجاهلي لطلح حسين ... الذي وضع الشك في هذا الشعر كله دون ان يمس الدين . فكانت الضجة التي احدثها اعنف ، وبخاصة انها جاءت قبل ان تدي تلك الضجة . وكان منها اهتزاز الاوساط العلمية والشعبية التي تأثرت بهذا ؛ حتى عرض الأمر على المجلس النيابي المصري ، فطلب عزل المؤلف من الجامعة ، والغاء منبره الجامعي ... ولكن المسألة تعقدت حين تخطت هذه الحدود ، فيناصر وزير

المعارف مبدأ حرية التفكير ، ورئيس الوزارة يقترح على الثقة ... ثم تسوي  
المسألة تسوية مرضية .

في الكتاب الاول مبحث ديني حر ، وفي الثاني مبحث أدبي حر . وقد  
انتصر المذهب الذي جرى عليه المبحثان لا أمام السلطة القضائية فحسب ، بل أمام  
الرأي العام كله . ورأينا نحن اننا لا نميل مع هذا وذاك ميلاً أعمى مجرد الآراء  
الشكوكية . ولكننا نحترم اولاً مبدأ التفكير الحر ، ونخطيئاً ثانياً الوسائل التي  
يستخدمها كل فريق ليفرضها على الفريق الآخر . فقد تكون آراء طه حسين مخطئة  
من ألفها الى يائها ؛ ولكن الطريقة التي يجب ان تستخدم لتخطئتها هي طريقة  
المناقشة ومقارعة الحجج بالحجة ، لا طريقة جمع عوام الناس ، وتحريضهم باسم  
المقدسات وغيرها على المفكرين . وكما قلت : إن الافكار ما خضعت ولن تخضع  
للقوة . وقد رأينا في الغربيين اصول المباحث الحرة للوصول الى الحقيقة . فالقيود  
التي توضع أمام حرية البحث تعتبر خطيرة لا بالنسبة الى البحث وحده ، بل بالنسبة  
الى نفس الحقيقة التي تخرج عنها .

وقد ترك ذلك أثرأ عنيماً في الاوساط القديمة والحديثة ... فهذا «الرافعي»  
يكتب كتابه « تحت راية القرآن » دعا فيه الى أن الدفاع عن الشعر الجاهلي هو  
دفاع عن القرآن . وهو دفاع مبني على العاطفة والحمية . بينما خرج من ذلك كتب  
اخرى أهدأ نفداً وأثبت مناقشة . كما ان لهذه الضجة صدى تركته في الاوساط  
التقدمية . والنوادي الادبية . وهذا هو الشاعر العراقي الرصافي يشير الى الحادثة  
في قصيدته التي أنشدها في حفلة مبايعة شوقي بامارة الشعر :

ولكنني قد أظن الحفلة التي	تقام له - ذا اليوم - في مصر ساخرا
إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها	تقيم على الاحرار - في مصر - حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها	« علياً » و « طه » حاصباً متطائرا
فما بال هذا عدداً في مصر مارقاً	وما بال هذا عد في مصر كافراً !
إذا لم تك الافكار في مصر حرة	فليس لمصر ان تكرّم شاعرا
الا ان هذا الشعر ليس بطائل	إذا كان عملاً يبالغ العلم قاصرا
كما أن هذا العلم ليس بنافع	إذا لم تكن فيه النفوس حراً



وكان ذلك كان إيداناً بكتابة التاريخ الإسلامي الأول بروح النقد  
والمناقشة ، وتوارد من ذلك على المكتبة العربية كتب حديثة فيه ، وأدب حديث  
تولته أقلام رفيعة ، بدأها « هيكلي » بكتابه « حياة محمد » متأثراً بكتاب « حياة محمد »  
لاميل درمنغاييم فقد استوحى منه الاسم ، ومضى في كتابه . وأهم مراحل هذا  
الكتاب أن حياة الرسول كتبت بروح علمية ، منطقية ، تجمع الحوادث وتقرأها ،  
وتناقشها ، وتثبت ما ثبت ، وتنتفي ما تنتفي ، أي انه أخضع الأدوار البطولية من  
تاريخنا للروح العلمية . فكل شيء يحلل ، ويناقش ... وتبذل فيه محاولة التوفيق  
بين الإيمان والعلم والحضارة الحديثة ... فهو يتصل بالحاضر ، ولكنه لا يحطم  
الماضي . اشتهر هذا النوع من التأليف ، وشجع صاحبه على إتمام حلقة الدراسة ،  
فألف في أبي بكر وعمر ... ثم أخذ عنه « عباس محمود العقاد » هذا المذهب ، فأخرج  
« عقرباته الإسلامية المعروفة » . وكان من هذا ان أولع فريق من العلماء والأدباء  
بتجديد الدراسة الإسلامية وبنائها على العقل والتجديد ، بما يتلاءم مع التفكير  
الحاضر . و « العقاد » في عقرباته لا يتبع طريقة التحليل والمناقشة كسابقه ،  
ولكنه أميل الى ان يذكر تأثراته الشخصية ، وأن ياتي أضواء عقله على الاشياء ،  
فيلوئها بما يريد .. فهو يحمي الشخص « كطل » كما يفعل « كاريل » في كتابه  
« الإبطال » . والعقاد ينجح في طريقته هذه بفعل شخصيته القوية .

وكان ، من ذلك القديم ايضاً ، طريق آخر يشبه طريق « جول ليمتر » في  
كتابه « على هامش الكتب القديمة » يحميها بطريقة عرض جديد . أثر هذا  
الكتاب في « طه حسين » فألّف « على هامش السيرة » وهو كتاب يعتمد على  
التاريخ ؛ ولكنه ليس من التاريخ في شيء . وفيه التحليل النفسي الكثير وهو  
البعيد عن التحليل ؛ لأنه اراد ان يجمع بين الخيال والحقيقة ويستخدم الاساطير ،  
ويكون حراً - على أوسع مدى - في انتقاء الحوادث او اختلافها ليصح له منها  
إطار موحد . فهو قديم بحوادثه ، جديد بروحه . وجاء بعده « توفيق الحكيم »  
يخضع ذلك التاريخ لحواره المنمق الفني ، فجمع أقوالاً ، ونظماً ، وخلق لها اجواء  
مناسبة ، ولكن لم يكن لعمله أثر كبير ؛ لان الكاتب تقيد بالحوار المعقول ؛ فخاته

الآفاق المكتشفة كما فعل سواه . وبدخل هنا ما فعله الرافعي في قصصه الإسلامية .  
لكن الرجل كان لا يرى الا نفسه ، ولا يعيش الا مع اشخاص تخلقههم نفسه .

وإن مثل هذا الاندفاع شيئاً فانه يمثل أخذ الفكر العربي بأسباب الحضارة  
الجديدة بعدما كان لا يعترف الا بماضيه . فهو الآن يحترم مثله الماضي ويعمل على  
إحيائه بأسلوب جديد . وما كان منه وحوله - من منازعات - فقد دلت على يقظة  
أدبية ، وجادت بحركات عنيفة .

ولعلنا لا ننكر - على هامش هذه الحركة - الجهود المبذولة لحياء الادب  
القديم بنصوصه إحياءً علمياً صحيحاً . وهي حركة بدأها المستشرقون ، ثم تناولها  
بعض أدبائنا بالرعاية . وكثير من هذه الكتب صححت مقاييس النظر الى الادب  
الصحيح وتميزه عن الادب الزائف . كما ان ما سينشر منها نشرأً علمياً سيبدل  
الدراسات الادبية المشوّهة . ففيها إحياء الرجال ، والبحث عن الذخائر المطمورة .  
ولكن لست أدري كيف اختلط الأمر عند بعض الذين انبروا لهذا العمل ؛  
فراحوا يمجحون ما ليس جديراً بالحياة ؛ مع ان الغاية الاساسية هي أن نستخلص  
الآراء التي غرقت في الطين ، لا الطين نفسه . ولذلك بت أخشى الاسترسال في  
هذه الناحية على غير هدى ، لانها تثبتنا عن الحاضر ؛ عن مادة حياتنا نفسها ،  
عن الابداع نفسه وطالما رددت بيني وبين نفسي : « عجيب أمر هذا الادب ،  
وأمر هؤلاء الابداء الذين يشغلون بالأموات ، ولا يشغلون بالأحياء ! »

ولعلنا لا ننسى التيار الفكري والادبي الذي انحدر علينا عنيفاً من  
الغرب ، تمثل لنا تياره الخاص ، وادبه الخاص . ولعل هذا التيار يمثل اعنف  
ما هنر الفكر العربي والادب العربي في العصر الحاضر . والأدب العربي لم  
يعرف اتصالاً بلغ هذا المدى مع الادب العربي كهذا الاتصال . وقد سبق  
لفكر العربي - في العصر العباسي - ان اتصل بالثقافات الاجنبية ، وتفاعل معها .  
ولكن أدبه بقي منكشأً على نفسه . ولا ندري فيه الخسران الذي جناه في هذا  
الانكماش ... ويبقى هنالك الفرق واضحاً في ان اهل العصر العباسي اتصلوا  
بثقافات هلك احبابها . والآن نتصل بثقافات ، اهلها قائمون عليها . واتصالنا هذا

جاء بلغة الاقوام الاجنبية نفسها ، والقارئون للآداب الاجنبية باللغات الاجنبية  
كثيرون . وهم وحدهم يقدرون ما بلغه هذا الادب في التعبير الدقيق عن خلجات  
النفوس ، والحقائق النبيلة . وادباء هذا النوع يتأثرون بهذه الافكار التي  
يقرءونها ، فتتصل بافكارهم ، وتلتحم بأسلوبهم . وهناك اتصال آخر جاء - عن  
طريق الترجمة - ! وقد اشتدت حركة الترجمة الادبية في مطالع عصر النهضة ،  
ثم اشتدت على ايدي ادياء أحسنوا التعريب ، وان اختلفوا في أمانة الاصل !  
كالنفلوطي والزيات الذي نقل « آلام فرتر » وكان نقله - يومذاك - عيد الشهداء  
عند الادياء . وفليكس فارس معرب الكتاب الجبار « هكذا قال زراداشت » .  
وغيرهم ممن أحسنوا - بهذا النقل - الى الأدب العربي الحديث . واكثر ما  
اعطى هذا الانتاج اكله في مجال النقد الموضوعي ، والقصة الطويلة والقصيرة ،  
والتمثيليات الفنية والواقعية . ولولا هذا الاتصال لما كان لنا اليوم مسرحيات  
توفيق الحكيم ، وأقاصيص محمود تيمور ، والنقد الذي خلص من قيود التقريظ  
الفارغ والتدجيل العقيم .

ولا يزال الانصباب على الترجمة على أشده . وفي اعتقادي ان الترجمة  
ضرورية للادب العربي ، لان المترجمين لم ينتهوا من نقل الآثار العالمية التي تفتخر  
بها الانسانية في كل عصر . ويجب ان نشجع هذه الحركة ... ولكن اكثر ما  
يبعث على الخوف ان تجاراً امتهنوا الادب يتقلون عن الآداب الغربية - الصالح ،  
وغير الصالح - لا يريدون وجه الادب ، ولا تفعه . ومثل هذا سيترك أثره السيء  
في المطالعة والمطالعين .

هذا ولن ننسى - بهذه المناسبة - الدور الخطير الذي قامت به مجلات  
مختلفة نذرت نفسها للادب . ومن هذه المجلات مجلة « الميزان » لصاحبها المرحوم  
احمد شاكر الكرمي . صدرت في دمشق واسمها يدل على ما كان يريد صاحبها  
منها ، وهو نفس ما اراده اصحاب الدبوان في مصر : من عرض للادب الصحيح ،  
وقضاء على مهرجي الادب ! ومجلة « الرسالة » واختها « الرواية » اللتان تركتا  
أثراً محموداً في الادب العربي . وقد مرّ يوم كانت « الرسالة » فيه سيدة الموقف

في آدابنا ، لانها كانت منبر كبار الكتاب . يلتقي فيها مترجم كتاب « النفس والرقص » طه حسين ، وصاحب مقالات وحي القلم الراجحي والعاقد والمازني واحمد امين والحكيم ... فهي - بحق - مدرسة جيل كامل ، والسفيرة المجهدة بين الادب العربي والادب المنقول .

كما ان الامانة تقضي علينا بالتنويه بجهود مجلّة عاشت طويلاً ، وثبتت - برغم قلة المساعد - وهي مجلّة « الحديث » التي وقفت من الحركات الادبية الاضطهادية بمصر موقفاً مجيداً . وكانت رسولة لافكار الادباء المصريين في سوريا ، ممن نالهم اضطهاد المجتمع كطه حسين ... وفي اعداد سنواتها الاولى شاهد حق على هذا الجهاد الادبي الذي استجاب بامانة وحمية للحركات الادبية البعيدة . ولولا جلد صاحبها لأسمى حديثه قديماً مطويماً ... وهناك المجالات الكبرى القوية التي نشأت ولا تزال تقوم برسالتها كالاديب والكتاب ، او نشأت وزالت كمجلّة الكاتب المصري والمكشوف .

أما عن الحركة الادبية في سوريا فلا استطع ان اجعل منها حركة مستقلة ، لانها كانت اكثر ما كانت تابعة للحركات الادبية الخارجية . وكثيرون من ادبائها في بلاد بعيدة كأدباء المهجر . والذين هم فيها : فمنهم من شغلته الحركة الوطنية ، وفي أدبه فيها . ومنهم من لا يستطيع أن ينشر أدبه وطريقته داخل بلاده لاعتبارات مادية فكان يستعير منابر المجالات المصرية التي أغرقت كثيراً بالادب السوري . وبرغم المحاولات المتعددة التي قام بها شيوخ الادب وفتيانهم لم يوفّقوا في خلق توجيه أدبي سوري . وليس معنى ذلك أن الادباء السوريين لم يسايروا النهضة الادبية . فان منهم من تضافرت جهودهم مع أدباء الاقطار العربية ، وكانت لهم آفاقهم المستقلة الرحبية .

هذه هي الخطوط الرئيسية التي استطعت ان أرسمها للحركات الادبية الثرية في عصرنا الحاضر . وهذا الحاضر اذا القيمة عليه نظرة المتأمل وأيناه مشعباً بكل عناصر الحياة والاضطراب . وقد آن لنا أن نلخص ما جاءنا به هذا الادب : عايننا هذا الادب : أن ليس هنالك مدرسة أدبية ثابتة ، إذ اكل فرد

عالمه الخالص . واذا كان الفرد نفسه عرضة للتقلب المستمر ، فكيف يكون حال الجماعة ؟ فكل أديب انما يكتشف نفسه ، ويتبع الطريقة التي تألفها نفسه .

وعلمنا هذا الادب : أن النقد العلمي فشل في تحليل الاديب كما تحلل الشجرة أو الساقية ، وأن النقد المستند الى المؤثرات والانفعالات الشخصية هو الذي انتصر .

وعلمنا هذا الادب : أن محاولة اخضاع الاذواق لشكل واحد من الحقيقة محاولة خائبة . « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . أما الذي بقي فهو حقائق مختلفة ، حيث كل حقيقة تدعو الى مذهبها بحرية وجرأة .

وأرانا هذا الادب : أنه حطم القيود التي كانت تحول بينه وبين المجتمع ... فالاديب لم يعد يحيا حياة انطوائية . ولم يعد يكتفي بنفسه وحواطفه مادة لأدبه ... وفي هذا المجال يعيش الادب القومي والادب الاجتماعي ... الى هذا العالم يخرج الاديب من عالمه المغلق ليلتقط من الحياة اليومية الف مشهد ، ويتجرى في هذا المشهد عن الغرائز والاهواء التي تمثل الرواية الانسانية : وما كانت الحياة الحقيقية يوماً بحياة صفوة مختارة من الناس قد تكون كاذبة مرآية . وانما الحياة في وصف حياة الاكثرية ، حياة الشعب الصادقة . والفن قد يكون في تصوير هذه الحياة . وأديبنا في كل يوم يرحل خطوة عن عالم نفسه ليختلط بهذه المجموعة من الناس . واكن ما ينتظر أديبنا في المستقبل لا يزال اعظم مما رأيناه ... فهل نال أديبنا من الناحية الاجتماعية ما يجب أن ينال ؟ وهل تحسس بالعاطفة الانسانية التي تجعله انسانياً ؟ وهل أدنى واجبه من الناحية القومية كما يجب ان يؤدي ؟ وهل وجد شخصيته بعدما أضعها في التيارات الادبية الاجنبية ؟

على أنني لا اريد الاجابة على هذه الاسئلة ، ولا يهمني أمرها ان كانت الجواب سلباً أو إيجاباً ... وانما كل ما يهمني أنني متفائل جداً في هذه الاضطرابات الفكرية والأدبية ، وأريد أن تبقى لانها علامة الحياة والانطلاق نحو أدب يرفع الانسان الى أعلى من الانسان ، ويستبدل هذا المجتمع بمجتمع أفضل منه ... ومضى اعتنق الادب مثل هذه الرسالة أصبح في طريق الكمال . وإن كان لا يزال على الطريق ...

*[Faint, illegible handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page.]*

## نحن في المعترك

عسان التويني

رئيس تحرير جريدة «النهار»

= القيت بتاريخ ١٤ آذار ١٩٥٢ =

۱۰۰۰

کتابخانه

کتابخانه

۱۰۰۰



### نحن في المعترك !

وكيف لا نكون ، والعالم بأسره قد انقسم الى قوى متعاركة ، تحتم على الانسان ، وتفرض عليه فرضاً ، هذا الصراع الذي فيه تستमित من أجل السيطرة على العالم وعلى عقل الانسان ، ومن أجل بناء ما تسميه ، هذه القوى وتلك ، وما تظنه ، عالماً أفضل ، يعيش فيه انسان أفضل !

كيف لا نكون في المعترك ، وكل امة تجدد نفسها في عراك مع نفسها ، من أجل ان تختار لنفسها ، لا سيامة - والسياسات عابرة - بل تخطيطاً لمستقبل أفضل ، في عصر ، سرعة التطور فيه تصرع المخططين ، ولا يكاد الحاضر يوفر مجال التطلع الى المستقبل ، حتى يكون المستقبل قد صار حاضراً ، وليس من تأهب له بعد ...

ثم كيف لا نكون ، نحن ، في المعترك ، وهذه الارض التي عليها نعيش قد كانت ، وقد لا تزال ، بل وقد تظل ، ملتقى الجحافل ، وساحة اصطراع الشرق مع الغرب ... يفاخر بعض اهلها ، فيما به يفاخرون ، بأنها كانت كذلك ، وأنها وصلت العوالم ببعضها ، ووفرت للحضارات مجال الالتقاء والمفاضة والالتحام . .

كيف لا نكون ، نحن ، في المعترك ، وما أن تمزقت غشاوات الاجيال من أمام عيوننا ومن حول عقولنا ، حتى بدأت قوى العالم المتصارعة تشدنا من هنا وهناك وهناك... ونحن نتطلع ، وتاريخنا حمل على اكتافنا ، وقلوبنا مثقلة باحلامنا - نتطلع حيارى الى هنا وهناك وهناك ، ثم نتطلع الى الماضي لنستمد منه قوى الحياة ، والقدرة على ارادة الحياة الفضلى ، نتوسط به ، بمفاخره وبمثله وببقاياه ، لبناء الصرح الذي فيه تهي أحلامنا !

نحن في المعترك !

ولكن هل يعارك الحاضر والمستقبل بالماضي ؟ وهل يقا تل الحي باليت ؟ وهل تشاد حضارة جديدة من آثار الحضارات الغابرة ؟ وهل يعيد الحضارات من دفنوا طموحهم ، كل طموحهم ، في اكتفائهم بأن ابطالاً من امتهم كانوا ابطالاً ، وما تمنطقوا بغير التلذذ بذكرى الابطال ؟ .

هل تبني الحياة الفضلى من فتات الحيو ات المندثرة ، مهما كانت جميلة في حينها ، ومهما عظم أثرها ؟ وهل يحجر الناس اناس رهنوا حريتهم ثمن لوحات رخامية على قبور ، وإن قبور الاحرار ؟

سيداتي سادتي ، من حقكم عليّ وموضوعنا الليلة هذا نطاق اتساعه - من حقكم عليّ أن نسعى هنا معاً لتحديد بعض التعابير والمفاهيم التي تتوارد في حديثنا ، لعل ذلك يساعدنا في تفهم ما نشير اليه من اوضاع ووقائع وحقائق .

وحسبنا أن نعرف ، قبل كل شيء ، ما هو هذا المعترك ، من يعارك فيه ، وماذا يعارك ، وكيف يعارك ، ومن أجل ماذا يعارك المعار كون ، ونحن منهم... ثم أن نعرف نحن ، من نحن ؟

اما المعترك هذا ، فهو التاريخ ، والتاريخ ليس سجل ما حدث ويحدث ، انما هو عراك بين مجموعات انسانية تحشد كل ما في وسعها من قدر حتى لا يحدث غير ما تريد هي أن يحدث ، وحتى لا تكون الاحداث سوى تجسيد الكمال الاقصى الذي تطمح اليه وحتى تعم العالم المثالية التي تحمل هي رسالتها ، فيطبع عقل الانسان في كل عصر ، بما تخلفه هي لترات الانسان الحضري .

والتاريخ هو ، خلال ذلك ، صراع بين الأمم حاملة رسالات الحضارة ، من اجل اقرار حقها بالحياة ، واحقاق مصالحها التي بدونها لا يكون لها وجود ذاتي . من اجل بناء هياكلها القومية التي منها تنطلق في رسالتها الى العالم .

والتاريخ هو ، من اجل ذلك ، مدى حيوي للرجال الافذاذ ، الابطال الذين تحبل بهم بطون الأمم المتأججة بارادة التفوق ، العاقبة الذين يطلون من الماضي على المستقبل ، فتبصر الأمة باعينهم النور الذي يبصرون ، وبوشائج الايمان يشدون بني قومهم في طريق الرسالة التي عليها يسرون ، من اجل ان يكون لهم ما يجب ان يكون !

واما نحن ، فأمة ابتليت بجهلها لذاتها ، ولو عرفت قبل اليوم من كانت ، ومن هي ، لكان لها قبل اليوم ، المجد الذي بدأت تبني .

ومن يدري ، فقد يكون منطق التاريخ ، في ظلمه ، قد اراد لنا ان تنام تحت ركام الماضي ، وفي في الاستعمار ، هذه الاجيال الطويلة ، فلا نتأمل الا والعالم في زحمة الرسائل الكونية ، وقد ضاق بمن عليه ، وضاق الوقت به والانسان قد اكتشف آلة الافناء التي يستحيل معها الاطمئنان الى غدٍ قد تطلع فيه الشمس فلا تجد عيناً تنظر نورها ؟

أزحمة اخصامٍ كلها ، هذه القوى التي تتجاذبنا وهي تقاسم العالم ، وبوحي اي ايمانٍ نمارك اذا نحن عرفنا من نحن ، ودخلنا هذا المعترك ؟

سيداتي سادتي ، يتميز وجه العالم اليوم بظاهرتين اساسيتين . اما الظاهرة الاولى فهي انقسامه - اذا جاز لنا اعتبار الاتفاقات السياسية والقربى العنقائدية مقياساً - الى معسكرين اثنين : المعسكر الشيوعي السوفيياتي القائم على ركنين لعلهما يؤلفان اكبر مجموعتين بشريتين : روسيا والصين ، يدور في فلكهما عدد من الدول المتشعبة التي تشدها صلة مباشرة الى الادارة الشيوعية العالمية المركزية . ثم معسكر الديمقراطيات القومية : ويضم اميركا المتطرفة في

وأسمائها، وبريطانيا العظمى التي كانت قد بدأت تميل الى الاشتراكية ، تدور في فلكها او تتعاون واياها ، الدول المرتبطة بهما او باحدهما ، قومياً او استعمارياً او اقتصادياً .

واما الظاهرة الثانية ، فهي ان العالم هو العالم ، والكرة الاولى منذ ان صار للعالم تاريخ ، عالم واحد من حيث تحسّر الجزء بالكل ومعرفته به ، وان مفهوم الكون والكونية اصبح ، بفضل التطور المادي ، حقيقة ملموسة ، وأنحت النزعة الكونية ذات حظ بان تحقق نفسها ، بعد ان كانت الكونية مفهوماً نسبياً ، وكان الطموح الى نظام كوني حاملاً تحد مجالاته حدوداً للعالم ليست هي حدود . ويكرس هذه « الكونية » في ايامنا ، تنظيم دولي يشمل الكون باجمعه كما تكرسها محاولات تطمح فعلاً الى تأمين سيطرة كونية حقيقية ، مداها المجموعة الانسانية بكاملها .

وانقسام العالم الى حركات تطمح الى السيطرة الكونية ليس بالظاهرة الجديدة ، فقد كان العالم دائماً مسرح انقسامات كهذه الانقسامات ، ولا يتغير مع التاريخ سوى نطاق الانقسام وموضوع صراع القوى المقتسمة العالم ، والجوهر او العقيدة التي يقوم من اجلها هذا الصراع . بقي ان نتساءل مع المتسائلين القلقين على مصيرهم المرادين السلم الدائم ، عما إذا كان الصراع من اجل الاستئثار بتقرير مصير الانسان ، سيكون حتماً صراعاً حروبياً ، ام ان السيطرة الكونية يمكن ان تتم ، كما يمكن حسم النزاع العقائدي الذي يتبطن به السمي اليها ، دون اللجوء الى الحرب ؟

والواقع ان ليس في التاريخ مثال واحد لحرب نشبت لمجرد الحرب وحباً بها ، حتى ولا بين القبائل الممجية . فثمة غاية سامية يرفق بها كل محتل احتلاله ويبرر بها كل حرب ، ألا وهي إحقاق حق او نشر حقيقة . فالحرب تبدو لنا في شعّب العوامل الدافعة اليها ، اقتصادية وسياسية واجتماعية ، بل واستراتيجية ، انها تبدو لنا ظاهرة حضرية ، بمعنى الحضارة ، او الثقافة ، الشامل لجميع نواحي النشاط الانساني . إن هي الا نتيجة تضخم القوة الحضرية في مجتمع معين ، وبلوغ

هذه القوة في جوهرها العقائدي الثقافي ومتطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حدّ اضطرار المجتمع هذا الى التوسع ، وهي تحصل عند اصطدام القوى المتوسعة بقوة المجتمع الذي تتوسع على حسابه ، اذا كانت لا تزال تتوفر في هذا المجتمع مقومات الحياة والحضارة ، مقومات الاستمرار التاريخي . وفي منطق تطور الحضارات أن كل واحدة منها تهدف ، ايماناً منها بحقيقتها ونفوقها ، لان تعم الكون ، أو ما هو معروف عنه ، فالامة التي تحتل ارض امّة اخرى ، وتستعمر شعبها ، انما تعتقد انها ، اذا احتلت واستعمرت ، فليس لمصاحبتها هي وحدها ، بل لمصلحة الارض التي تحتل والشعب الذي تستعمر . من هنا ان المناعة الوحيدة القمينة بدفع الاستعمار هي الرقي ، هي الحيوية الحضرية ، هي توفر وسائل استثمار الموارد والدفاع عنها ، وتوفير الايمان بضرورة الدفاع ، وهي ، فوق ذلك توفر الوعي المجتمعي الخلاق الذي يدفع بالامة قدماً ، والذي منه تتغذى عقول بناء الامة وبه تتقوى سواعدهم .

ومن هنا كذلك ، أن كل حرب تهدف في النهاية الى اقرار السلم ... لا حالة السلم السلبية التي هي مجرد انعدام النزاع ، او انتظار النزاع أو التحفز له - وقد لا تكون ، ثمة فريسة اسوغ للاستعمار من الامم التي تقنع بهذه الحالة السلبية حياة لها ومطمحاً - انما السلم الحقيقي ، الذي هو بناع الحضارة التي من اجلها كان النزاع ، ومن اجلها كان الطموح الى السلم .

فهل هذا السلم ممكن ، وما هو ثمنه ، اذا كان لا بد من الحرب ، باردة او ساخنة ، سبيلاً له ؟ أم أن العالم الواحد قد يتمكن من تحقيق عجوبة التاريخ : سلم يتمرد على الوحداية ، مفسحاً لأكثر من حضارة واحدة في مجال التعايش ، تتموكل واحدة في نطاقها ، ولا ترجو من الاخرى ان تنسجم معها في اكثر من التسليم بإمكان وجود الاختلاف والتنوع .

سيداتي سادتي ، لو كان هذا الموضوع بالذات موضوع حديثنا اليلة لتوقفنا كثيراً عند هذه الامكانية ، ولتساءلنا الى أي حد يمكننا ان نأمل ، واقعيّاً ، استمرار تعايش النظامين ، بل الحضارتين ، اللتين تتقاسمان العالم - والنظامان من

طبيعتها أنها تياران حيوان متطوران متوسعان ، يسمى واحدهما الى ثورة عالمية  
تحقق سعادة الانسان عند انتهائها الى ما يسميه كارل ماركس تلاشي الدولة بزوال  
الوضع الطبقي الذي يبرر وجودها - زوال هذا الوضع من العالم بأسره ، طبعاً -  
بينما يسمى النظام الآخر الى ما يعتبره ضمان الحريات عن طريق انتظام الدول القومية  
السيدة المحبة للسلام في منظمة تحترم حق كل امة في تقرير مصيرها ، وتحول بالتالي  
دون اعتداء أية امة على الاخرى لاغتصاب هذا الحق ...

وكنا نشير الى مفارقات تعايش النظامين أو التيارين : وجود الاتحاد  
السوفياتي وسائر الدول المتشعبة في صميم منظمة أممية مؤسسه على مبادئ ؛ يعتبرها  
التراث الشيوعي برجوازية بالية محكوم عليها بالزوال وواجب زوالها ، ثم ، على  
صعيد آخر ، وجود احزاب شيوعية في داخل الدول الديمقراطية القومية  
البرجوازية ، تفيد من تركيب هذه الدول لنشر ايمانها الصريح بضرورة قلب هذه  
الدول ، لكي تسعد شعوبها ويسلم العالم !

ولكننا اخيراً دخلنا في تحليل ما يعود اليه هذا النظام وذاك من جذور ،  
وما ينطلق منه هذا التيار وذاك من اصول ، ثم ما يختلفان عليه وما يمكن أن  
يلتقيا عنده ... غير أني لا إخال أحداً بيننا الا ويعرف عن هذه المسائل ما يكفيننا  
لمعالجة ما نعالج اليلة . وحسبنا ، من ذلك ، أن نوضح كيف أن النظامين أو  
التيارين ينبثقان من ثورة العقل ، التي بها كان العصر الحديث ، وبالتالي من الثورة  
على العقل التي أنجبتها ثورة العقل من ذاتها ... مأساة العقل هي ، هاتان الثورتان ...  
وإذا كانت القرون الوسطى عصر الله ومجده على الارض ، فإن القرون التي انقضت  
بين انهماك عمارة الحضارة المتوسطة وقيام عالم القرن العشرين يملؤها سمي العقل  
لبناء حضارة انسانية منطقية ، لها من نفسها مقومات البقاء والتقدم ، ولا تعتمد  
حافزاً للاستمرار أية قوى أو عوامل لا انسانية ، لا طبيعية ، من شأنها ان تقلل  
ثقة الانسان بذاته أو أن تفسد عليه قدرته المطلقة على ذاته والطبيعة . وقد اجتاز  
العقل ، في سعيه هذا ، مراحل مرت به من فرحته لاكتشاف قدرته ، الى جهده  
للتحرر من التراث وإن عقلياً ، الى ثورته على كل يقين موروث وجنونه على كل ما

لم يبنه العقل المجرد المتحرر - حتى انتهت به ، وقد شك ونقد وقيّم ما حقه وما في وسعه تحقيقه ، الى التفطيش عن أسس جديدة لليقين العقلي الجديد . والمأساة في أن العقل ، وقد تمرد على كل ما هو غيبي لا انساني ، لا طبيعي ، وجد نفسه والايامانات الجديدة التي لا تتجوهر بغير العقل : تتجوهر بالمادة أو المنفعة ، قيمة مطلقة ، يدركها العقل ، ولكنها مستقلة الوجود ؛ أو تتجوهر بالطباع الانسانية ، بالقلب والنفس ، عناصر انسانية تتحكم بالعقل ولا تخضع لسننه ومفاهيمه . وتكتمل المأساة في أن العقل نفسه ، وقد أنجبت ثورته على الايمان هذه الايمانات اللاعقلية التي تتجاذبه اليوم - أن العقل نفسه يبرر شرعية القوة في تقرير مصير الكيانات الايمانية ، وبالتالي تقرير مصير الايمان نفسه ومصير العقل ! ومن أجل تقرير هذا المصير ، العالم اليوم في انقسامه وعراكه ...

قد يقال أن هذا التحايل ليس سوى فلسفة لوقائع لا يحتاج فهمها الى كل هذا التفلسف ، وأن العالم اليوم منقسم الى شرق وغرب يتسابقان بغية جعل العالم كله شرقاً أو كله غرباً... والحقيقة ان العالم كان دائماً ينقسم الى «شرق» و «غرب» يتسابقان ويتنافسان ... وكان « الغرب » دائماً تمثله القوى البحرية ، والشرق تمثله القوى البرية ؛ مثال تنافس الشرق والغرب في العالم القديم ، في حروب الفرس ، الدولة السبرية ، مع الاغريق ، الدولة البحرية . ألم يحلم اباطرة فارس بنشر ملكهم على الكون وتوحيد شعوب العالم كله في ظل تاجهم ؟ والذي يلاحظ تاريخ النزاعات الكونية يرى ان القوى البحرية كانت دائماً تمثل الانفتاح والترقي والتحرر والعقل ، والخطيئة باسم التحرر والعقل احياناً ، وذلك بفضل وضعها والعوامل الاقتصادية الملازمة لوجودها ، بينما كانت القوى البرية تمثل النزعة المحافظة وثقل التقاليد والرجعية احياناً ، واحياناً السلطة المطلقة المركزة على ايمان الشرق بالغيبيات الى حد السحر ! ويلاحظ من دراسة التاريخ كذلك ان البحر السوري او ما يسمى البحر المتوسط او بحر الروم ، الذي عرف ببجيرة الحضارة في العالم القديم ، كان حوض النزاع بين الشرق والغرب لنشوء القوى الغربية على ضفافه وبنائها مدائنها ومسديياتها من حوله . وكأني بنقطة التمثل قد انتقلت اليوم الى

المحيط الاطلسي ، هذا « البحر المتوسط » الحديث الضخم بنسبة تضخم القوى  
البحرية وتوسع افق العالم المعروف ...

وبمقدار ما تؤثر البيئة والموقع الجغرافي على طبائع الامم ، وبالتالي على ما  
تدين به وما تديسّر تحتلف حضارة الغرب عن حضارة الشرق ، وتختلف عقائد  
الشرق عن عقائد الغرب ، على ان هذا الاختلاف لا يُبطل وحدة الانسان  
والحضارة الانسانية الجامعة للشرق والغرب . فليس هنالك شرقٌ وغرب لا  
يلتقيان ، بل شرق يتفاعل مع الغرب ، وغرب يستمد من الشرق ، في التقاء  
مستمر ...

سيداتي سادتي ، ويشاء بعض كبار المفكرين من اهل بلادنا ان يجعل  
من هذا الالتقاء في ارضنا اقصى ما نطمع اليه وجلّ ما نفاخر به ... يعترزون  
بأننا الجسر الذي عبر عليه الشرق الى الغرب والغرب الى الشرق ، ويرتاحون  
لأن ما يعتبرونه تراثنا القومي هو بقايا جحافل الشرق والغرب في كرها وفرها  
على شواطئنا وبين جبالنا وفي سهولنا ؟

وقد ذهب مفكر لبناني كبير له علمنا فضل في المعرفة الى حد اعتبار  
مبرر وجود لبنان أنه « ليس البوثة التي سيصهر فيها الشرق والغرب فيخرج من  
هذا الصهر مركّب جديد فوق الشرق والغرب » بل لُقيا الشرق والغرب  
باعمق واقدس ما فيهما على قدم المساواة في الحرية والكرامة .

قد يكون هذا المفكر على حق ، من حيث مركز هذه البلاد الجغرافي  
التاريخي . ولكن موقفه ، اذا أخذ على إطلاقه ، يساوي انتحاراً حضارياً لانه  
تنازل عن كل خلقٍ وكل مساهمةٍ فذة ، وبالتالي عن كل شخصيةٍ لامعةٍ تميز بها  
وبها تطبع تاريخها . وليس ما يمنع التقاء الشرق والغرب عندنا ، متى نكون نحن  
لا مجرد « صعيد » يلتقيان عليه ، بل كيماً حضارياً ننظر من ضمنه الى الشرق  
والى الغرب ، ونقتبس ، في نطاقه ، من الشرق ومن الغرب ما يألف مع نفسيتنا  
الاصيلة وما يقبله عقلنا وما يجابو احتياجاتنا ، ومتى يكون همتنا ، لا مجرد توفير



مجال الاجتماع للشرق والغرب ، من اجل الشرق او من اجل الغرب ، بل  
الافادة في بناء نفسنا وانماء كيانتنا ، واذا ما اخترنا رأي هذا المفكر الكبير  
لنتوقف عنده في هذا الحديث ، فليس لأن رأيه شاذ ينفرد هو فيه ، انما لعظمة  
الاحترام الذي اكنّته ، ويكفنه كثيرون سواي ، لعقله وجهوده وفضله ، ولانه ،  
في موقفه ، يمثل ، على الصعيد الفلسفي ، اكمل تمثيل ، وضماً عاماً قد لا يبي كل  
الناس اسسه الفلسفية . وهذا الوضع العام يتجلى ، على مرتبة دون الفلسفة ،  
في علاقتنا السياسية الخارجية مع العالم . وقد شئنا ، او ارتضينا ، ان نكون  
بمجرد موضوع علاقات دول العالم الكبرى ببعضها ، شرقاً وغرباً ، ومسرح  
تنافسها ، بدلاً من ان نكون نحن عنصراً فاعلاً فعالاً ، له علاقته الخاصة مع دول  
العالم ، مع الشرق او الغرب ، على اساس مصالحه وبوحي اهدافه .

علاقتنا بالغرب وبالشرق هي علاقات الغرب بالشرق فيما يتعلق بنا وبتقرير  
مصيرنا ؛ فنحن بالنسبة لهذا وذاك ارض وموارد وموانيء ، لسنا شعباً ، ولا  
دولة ، وليس لنا ، وبالتالي ان نقرر وان نختار وان نساير ! وقد شئنا ، او  
ارتضينا ، ان نكون كذلك : موضوع ارادات ، لا ارادة فاعلة !

ولست اغالي اذا قلت ان السبب في أننا ما سجلنا بعد ، منذ ان استفقنا  
على العالم من جديد ، سوى الهزائم او « الانتصارات السلبية » - السبب هو  
هذا التنازل عن ذاتنا وارادتنا ، هو جهلنا لذاتنا ولا مبالانا بمعرفة من نكون ،  
نحن ، ولماذا نكون ، ومن اجل ماذا نكون ... هو استسلامنا لحتمية هذه  
الارض الموهومة ، التي اذا جعلتها الجغرافية جسراً ، فانها لم تفرض على سكانها ولا  
يسمها ان تفرض عليهم ان يطأطؤوا ظهورهم ويهلبوا ويكبروا السكل من يريد  
اجتياز الجسر !

سيداتي سادتي ، معاذ الله ان نبخس ، نحن ابناء الجيل الجديد الطالع .  
الجيل الذي سبقنا الى الجهاد ، حقاً . فنحن نعرف ما لهم ، بقدر ما نعرف ما  
عليهم ، واكثر ... ولهم علينا ، قبل كل شيء ، حق احترام ثورتهم ، ولم  
يعلمهم اسلافهم الثورة . واذا كانت ظهور ابناء هذه الامة ما تزال ، اكثرها ،

مطأطأة ، فليس لان الجيل الحاكم لم يرد تقويمها ، بل لانه لم يعرف كيف يقومها ، ولعله لم يعرف ان بوسعه تقويمها . وقد نار هذا الجيل ، وعرف كيف يفيد من الظروف الدولية الى حد لا يستهان به ، خفق لنا الاستقلال ، ولو قانونياً ، وبني لنا دولاً سيده على نفسها ، حرة ولو نظرياً في تقرير مصيرها .

ولكن الجيل الحاكم فشل في حكم هذه الدول المستقلة ، وفي قيادتها نحو خيرها وتوفير ما يضمن استقلالها وما يؤمن لها ، في حابة التاريخ المكنة المؤهلة لها . من هنا اننا نعيش اليوم واوضاع الحكم عندنا قلقة متوترة مضطربة ، بين الشعب والحاكين هوة سحيقة ، وفي الشعب نفسية ثورية تزداد كل يوم احتقاناً . ومن هنا هذا النزاع بين الجيل الحاكم والجيل الطالع الجديد ، فكأننا بالجيل الحاكم ، وقد ادى رسالته ، يريد ، ساعة احتضاره ، ألا يموت إلا منتحراً ، محتقناً ، وان ينحر معه هذا السكان الحي الذي منه ولد : الجيل الطالع العامر صدره بالطموح ، التواق الى ممارسة كل حق له ، المصمم على انتزاع زمام التطور والفعالية انتزاعاً ، وإن كان الثمن انتزاع الحياة من صدر الحاكين ! والتحليل المنطقي الواقعي يقودنا الى اسباب رئيسية ثلاثة جعلت اوضاعنا اليوم اوضاعاً قلقة ، وكياننا مترجرج البنيان ، وسيادتنا واهية الاسس ، بحيث بات النزاع بين الجيلين واجباً تاريخياً .

اما السبب الاول ، فهو ان اكثر الذين ناروا باسم القومية ومن اجل تحقيق سيادة الامة من نفسها ، لم يعرفوا بالضبط ماهية الامة ، ولا هم ادركوا حدود امتهم وشخصيتها . فقد كانت الامة في جهادهم مثلاً اكثر منها واقعاً . وخيالاً اكثر منها حقيقة ، وقد فات هذا الجيل ان السيادة القومية ليست ان لا يحكم الامة مستعمر ، بل ان 'تحكم بوحى تراثها وأن يستمد حاكموها سياستهم من شخصيتها ، وان يسخرروا الحكم من أجل بلورة هذه الشخصية وجوهرتها بالمثل الحية . بحيث تقدر الامة ان تتحصن بالطاقة لدفع استعمار سلاحه تفوق المستعمر في مضمار الحضارة وما يتفرع منها ، وقدرة على اسثمار مرافق الامة المتأخرة ، ونخر جسم الامة غير الملتحمة ، غير الواعية معالم شخصيتها .

وأما السبب الثاني ، فهو أن الذين ثاروا وحقَّقوا الاستقلال و « السيادة القومية » وأقاموا « الحكم الوطني » إنما ثاروا باسم الشعب ومن أجل الشعب ، وقادوا الشعب في ثورتهم ، ولكنهم لم ينشقوا من الشعب ، ولم يستمدوا منه مثالياتهم ، ولا كان جهادهم يتغذى بأماله ويتقدم بنبضات الأمة ... كانوا ينوون انتزاع الحكم من المستعمر ، فلما وجدوا أنفسهم في الحكم باسم الوطن والحق القومي ، وجدوا ان الشعب الذي فرح لانتصارهم وهلسل ، لا يرتاح الى حكمهم ، ولا يري نفسه حاكماً نفسه من خلالهم . فاضطروا ، تغطية ، وتبريراً ، لاسترضاء الجماهير وتعزيز الشارع على الشعب يطعن اليهم ويثق بهم ويساندهم ولا يضيع عليهم ، وعلى نفسه الحكم الوطني والسيادة القومية .

وأما السبب الثالث ، فهو ان الجيل الحاكم ثار للتحرر من المستعمرين ، ولكنه لم يعرف من أجل ماذا يريد التحرر . أي انه كان سلبياً في تحررته ، يعتبر الاستقلال غاية بحد ذاته وقد فاته ان الاستقلال ، وبالتالي الحكم المستقل ، ليس سوى وسيلة لتحقيق ما هو أسمى من الاستقلال وأهم من الحكم : لتحقيق التقدم والرفق ، ولانماء الثقافة القومية خيراً وحقاً وجمالاً .

فات الجيل الحاكم أن وصوله الى الحكم ليس كل ما كان يطمح اليه الشعب عندما ثار وراه ، وان اعتراز الشعب بان الذين يحكونه من جنسه ، ومن لحمه ودمه ، يبطل ولا يبقى اعترازاً عندما لا يلمس الشعب ان بين هذا الحكم وذاك ، بين الحكم الوطني وحكم المستعمر ، فرقاً في غير الاسم والشكل . فلاستقلال الحقيقي أن تشعر الأمة بأنها تحكم بارادتها - وارادة الأمة ليست ارادة الافراد ولا هي ملك الحاكمين ، تتجلى في رغباتهم ومطامحهم وسيادتهم ، إن هي الا شعور كل فرد من افراد الشعب بأنه ، وهو يطبع الشرائع ، لا يطبع غير نفسه ، وأن ما يبغيه من الحياة لا يتحقق من غير طريق الحكم الذي به اساس ؛ ومن ثم شعور الشعب ، كجموعة ، شعور الأمة ، بان هذا الحكم هو ما كان يسوقها اليه تاريخها ، وأنه اداة قيادتها الى تحقيق رسالتها وجوهرة كيانها بمجد جديد .

سيداتي سادتي ، كأننا بالجيل الحاكم لهذه الاسباب الثلاثة ، يتخبط في فراغ الحكم الذي أشاد ، ومن حول هذا الفراغ ارادة الشعب ، الارادة القومية الحية ، ارادة الجيل الجديد ، تريد أن تنفذ الى الحكم لتقول للتربعين فيه أنهم يفسدون على انفسهم الرسالة التي من أجلها ثاروا وبها عملوا عبر سني الجهاد الطوال . ولكن ، من هو هذا الجيل الجديد ، وبماذا يختلف عن الجيل الحاكم ؟ ما هي أسس الايمان التي عليها يبني نقده للجيل الحاكم ومنها ينطلق في رسالته ؟ ثم ما هي هذه الرسالة ؟

رجال الجيل الجديد هم هؤلاء الذين أفادوا من اختبار الجيل الحاكم فقدروا ما حققه وأدركوا أسباب عجزه عن تحقيق ما لم يحقق . وسواء عندنا ان يكون هؤلاء من الذين يتساوون بالسن مع قادة الجيل الحاكم أو يكونوا دونهم سناً ، فالسن لا تمنع بعض الشباب من ان يكونوا حلفاء الجيل الحاكم في ذهنيهم ونفسيهم ، وفي فهمهم أو قلة فهمهم ، المصلحة القومية العليا . ونعني ، فوق ذلك ، بافادة الجيل الجديد من اختبار الحاكم المختصر ، أن تكون الافادة لا نظرية بل عملية فعالة ، اي أن هؤلاء الذين نسميهم الجيل الجديد هم الذين يستحيل وعيهم نشاطاً وادراكهم إصلاحاً .

خير تصنيف لايمانهم إذن هو أن نحلل موقفهم بالنسبة للاسباب التي رددنا اليها تقصير الجيل الحاكم .

فلئن يكن الجيل الحاكم قد قصر في ثورة قوميه لم تتأسس على مفهوم للامة صريح ، ولم تستوح جهادها من معالم شخصية أو شخصيات قومية معينة ، فإن الجيل الجديد يعالج أول ما يعالج قضية الامة معاملة عابثة ، فيبدأ بتعيين حدودها ونطاقها ، وتوضيح معالم شخصيتها في التاريخ ، هذه الشخصية المتجلمة في تراث حي لكل امة ، وفي مؤسسات وتقاليد وآداب شعبية تعبر عن روح الامة وتجلي فيها ارادتها . والجيل الجديد يستوحى هذه الارادة في جهاده ومن التراث القومي يستمد مثاليته ، وفي سبيل بلورة شخصية الامة واتماء كيائها وتحقيق مصلحتها العليا يريد الحكم ، آلة الارادة القومية ووسيلتها في الحياة .

ثم أن الجيل الجديد ، وقد وعى شخصيته القومية ، لا يجاهد باسم الشعب ، بل هو الشعب الذي يجاهد ، جيلاً جديداً ومدرسة في الجهاد جديدة . فالطبقة الحاكمة هي مجموعة افراد أهلتهم مزاياهم وظروفهم الخاصة للقيادة السياسية ففاضوا وجاهدوا باسم الامة والشعب ، وقادوا الشعب في نضالهم وجهادهم ، ولكنهم لم يكونوا مرتبطين بوشائج المسؤولية ، ولا شدتهم اليه وشدته اليهم شراكة في الحياة وفي المثل . لقد كانوا ، أشبه ما يكونون ، بشركة سياسية مغلقة منعزلة ، قد تصيب في الرأي والعمل وقد تضل ، لا يردعها وادع خارج عنها ولا يعي عليها تصرفها غير حدسها وتقديرها . اما الجيل الجديد ، فانه يؤمن بالجهاز الشعبي اداة جهاد وبوثقة الاماني الشعبية ، تتجسد فيه الارادة القومية عقيدة ومنهجاً ، وتتنظم فيه القوى الشعبية الواعية ، جنوداً وقواداً . وبديهي أن يستغني قواد الجيل الجديد عن الشارع وعن الغوغائية التي يصنع بها الشارع كل سياسة تقوم على مسيرته . فالجيل الجديد ، في ايمانه ، لا يحتاج الى استرضاء الجماهير لانه منبثق منها ، يعمل على اقرار السيادة القومية سيادة شعبية : شعبية في منشأ القيادة ومعدنها ، ومن ثم في منشأ الحكم ومعدنه ، وشعبية في مثاليتها وما ترمي الى تحقيقه . فالشعب يطمئن لا الى الحاكم الذي يسترضيه او يسترضي الجماهيريين منه ، بل الى الحاكم الذي يريد له الرقي والرغد . والجيل الجديد يرى ان في تحقيق العدالة الاجتماعية بتوزيع الثروة على اساس الانتاج السبيل الوحيد للحكم الشعبي الصحيح .

يسوقنا ذلك الى النقطة الثالثة والاخيرة التي يفترق عندها الجيل الجديد عن الجيل الحاكم ، ألا وهي فلسفة الحكم . فالجيل الحاكم ، كما قلنا ، قصد من جهاده تحريرنا من سيادة المستعمر ، فلما وصل الحكم وحقق الاستقلال ، ظن انه بلغ الهدف ، وان الحكم الوطني غاية بحد ذاته ، فلم يطل به الأمد حتى فسدت بيده آلة الحكم لجهله ما يصنع بها ، ولعدم توفر فلسفة للدولة لديه يحكم بموجبها ، ومن أجل الايمان الذي تنبثق منه يسخر الحكم وسيلة . اما الجيل الجديد فانه ايجابي في ارادته ، ايجابي في تفكيره ، ايجابي في عمله . لقد خطا التاريخ بالجيل الجديد ، وليس هو الجيل الجديد الذي خطا بنفسه ، الى ما بعد السلبية المجردة : الى ما بعد ارادة التحرر من المستعمر حاكماً ، والى ما بعد فهم الحكم حكماً .

وطنياً وحسب ، وإلى ما بعد العمل من أجل مجرد الوصول إلى الحكم وممارسته .  
الجيل الجديد يريد من الحكم غاية تتعداه ، ويفهم الحكم وسيلة لتنظيم المجتمع  
والتقدم بالإنسان ، ويعمل ، في الحكم ، لا من أجل الحفاظ على الحكم ولو  
وهيماً ، بل من أجل جعل الحكم الوطني واجب الوجود ، في نظر الشعب أولاً ،  
وبالنسبة إلى النظام الدولي ذاته ثانياً ، بحيث لا تقسوى المصالح الاستعمارية  
على تقويضه .

هذه هي الظواهر الثلاث التي بها يتميز الجيل الجديد ، وعندها يفترق  
عن الجيل الحاكم . وإذا قيل أن هذه الظواهر ، بمجموعها ، لا تكون قضية ،  
ولا يصح اعتبارها رسالة ، كان جوابنا أنها ، على صعيد النزاع بين الجيلين ، هي  
الحد الفاصل بين السلبية والإيجابية ، وأنها ، بالتالي ، المرحلة الأولى التي لا بد  
منها من أجل تأمين انتقال السياسة والحياة العامة عندنا من الطور السلبي الذي  
كان طريقاً لغاية أولية تحققت ، إلى الطور الإيجابي الذي تتطلبه هذه الغاية ،  
بجلاً لنموها واستحالتها ما هو بعدها وما هي طريق إليه . فالغاية الأولية هذه هي  
الاستقلال ، على أن الاستقلال في عرفنا ليس كياناً له وجود إيجابي ، إن هو إلا  
حالة سلبية بحد ذاتها ، والجوهر الذي يجعل لها قيمتها الإيجابية هو الحرية ،  
متى فهمنا الحرية على حقيقتها : يناهياً لشخصية الجماعة ، ومدى حيويها لتحقيق  
امكانيات الأفراد .

بقي أن نسأل ، ما هي هذه الحرية ومن الذي يحققها ، وكيف نحقق !

إن تحقيق هذه الحرية ، وبالتالي بناء صرح حضارة هذه الأمة ، ليس  
عملية اصطناعية تجري بالتجربة والاختبار ، ولا هي مسألة سياسة وأشخاص .  
هذه الحرية ، سيحققها الذين ينتصرون في صراع الجماعات العقائدية التي بدأت ،  
خلال صراعها على الحكم ، تطمح لأن تمثل هذه الأمة رسالة ما تؤمن هي به ،  
وما تريده أساساً للحكم ومبرراً لوجوده ومثالاً يهتدى به .

وعندنا إن المنتصر حتماً في هذا الصراع هي تلك الجماعة التي تنسجم  
عقيدتها مع منطقتنا تاريخنا وتنبثق من واقعنا ، فتوفر الأساس الفضلي لمعالجة المشاكل

التي خلفها لنا الجيل المحتضر ، وتوفّر فيها مقومات البقاء ، وطاقة خالق تراث  
حي تستقي منه الأمة ، جيلاً بعد جيل ، ومنه تستمدّ غذاءها وعليه تبني ، فلا  
تسهر ، كما تسهر الجيل الذي سبقنا ونشعر نحن بواجب الثورة على ما قبل ، وسيلة  
لا وسيلة سواها للتقدم ، وطريقاً لا طريق سواه للحياة .

### سيداتي سادتي

في هذا المعترك نحن ... وأراني في موقف حكيم الاغريق سقراط عندما  
دعا الى معرفة تبدأ ، لكي تستقيم ، بمعرفة الذات : من أنا ، من نحن ؟

في زحمة العقائد التي تتجاذبنا ساعة للسيطرة على العالم وتقرير مصير  
الانسان ، لن يكون لنا نصيب في تقرير مصيرنا اذا لم نعرف من نحن وماذا نريد ،  
واذا لم نستمدّ من وعينا لشخصيتنا القومية ، ومن تراث امتنا ، ارادة الحياة  
ومقومات العراك . عندئذ ، وعندئذ فقط ، يكون لنا الماضي وأجداده ذخراً لبناء  
المستقبل ، لا وزراً يثقل حمله على طريق الحياة الطويلة .

ولنا من تراثنا الحي ، ومن نفسية امتنا المتجلية في هذا التراث ، مقياس  
معرفة موقعنا في الصراع العالمي . ولنا من الدولة القومية الفضلى التي زيدان  
تقيمها لهذه الامة ، هيكلًا منورًا بالمثل ، مجال تحضرنا ونقطة انطلاقنا في رسالتنا .  
ولنا من هذه الدولة وحدها الحصن المنيع الذي لا تقدر حتمية الارض على تقويضه ،  
ولا يقوى الشرق ولا الغرب على اجتيازه جسراً من الشرق الى الغرب ومن الغرب  
الى الشرق ، بل هو الذي يقرر على ضوء مصالحه ، وبوحي تركيبه وقوته ، ان  
يقف مع الشرق أو مع الغرب .

واذا لم يكن لنا ان نقيم السلم في العالم بفشر حضارتنا على الكون ،  
فسيكون ولا ريب ، في سلم يفسح مجال التنوع للحضارات القوية ، موضعاً لحضارتنا  
اذا توفرت فيها القيم التي تضمن لها الصمود في صراع الحضارات ... ثم ماذا  
يمنع ان نحمل ، نحن ، رسالة حضارتنا الى العالم ، وقد سبق لهذه الامة  
ان حضّرت العالم المعروف ؟

نحن في المعتك من أجل أنفسنا ، ومن أجل الانسان الذي نبي له مجداً  
في بلادنا ... والمعتك هذا ، يبدأ في نفس كل فرد منا ، في عراكه مع نفسه  
ليتفوق على نفسه من أجل ان تكون الامة ، أن نكون ، نحن ، أنفسنا ، ثم أن نكون  
أفضل ما نحن ، وأفضل ما يمكن ان نكون ...



## العام يسير بخطوات الطارد

وهيئة الصحن

عميد كلية الهندسة سابقاً

= القيت بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٥٢ =

بعض في اللغة من أصل التمسك ، وهو ما جعل الاستعداد القوي لله في  
في بلادنا ، والتمسك بها أيضا في بعض النواحي ، وهو ما جعل  
لشؤوننا في بعض النواحي ، وهو ما جعل الاستعداد القوي لله في  
أصل ما نحن فيه ، وأفضل ما يمكن أن يكون .

اللهم اغفر لنا

اللهم اغفر لنا

اللهم اغفر لنا  
اللهم اغفر لنا

اللهم اغفر لنا

لم يعد حديث العلم ، كما كان في السابق ، مقصوراً على خاصة قليلة من العلماء ، اذا خاضوا في محاوراتهم لا يستطيع السامع الذي اوتي من العلم نصيباً قليلاً ، ان يفهم من محاوراتهم كثيراً ولا قليلاً . بل صار حديث العلم يدور ، ولو الى حد بسيط في كل نادٍ ومجتمع وفي كل بيت ، ويظهر على صفحات الجرائد اليومية وعلى لوحات السينما وفي المجتمعات العامة . وغزت المصطلحات العلمية اللغات الدارجة ، حتى لغتنا المنقررة الى هذه المصطلحات .

وسبب ذلك ان العلم كالخلاق الحي من نبات أو حيوان ، قد مر ببعض الاطوار التي تمر بها هذه الخلوقات ، ويظهر انه ماض في تطوره ليخر بالاطوار الباقية عليه .

ولد العلم مع العقل ونما بنوه ، ولكن دور طفولته كان طويلاً جداً ، إذ بدأ قبل التاريخ ولم ينته الا منذ قرن ونصف ، أي في نهاية القرن الثامن عشر .

وانتقل العلم في القرن التاسع عشر من طور الطفولة الى طور الحداثة والصبا ، ودام هذا الدور قرناً كاملاً ، هو على طوله ، قصير جداً بالنسبة الى دور الطفولة الذي دام اكثر من اربعين قرناً .

وفي اوائل القرن العشرين دخل العلم في دور الفتوة فلم يمكث فيه الا اربعين عاماً ، ثم دخل في دور الشباب يوم اطلاق القدرة الذرية ، فاذا تابع سيره بهذه الخطة المتسارعة ، فان شبابه لن يدوم طويلاً ، وسيدخل قريباً في دور الكهولة ، ثم الشيخوخة ويقضي على الانسانية بانقضائه .

كلما تقدم العلم في السن زاد عمقاً واتساعاً ، وازداد سلطانه على حياة البشر وانتقلت مملكته من صفحات الكتب ومقاعد الدرس وقاعات المختبرات الى الدنيا والاشياء ، فدخل في لب الحياة . فكأنما هو قدمر ، كما قدمنا ، بالاطوار التي يمر بها الانسان . فالطفل تبدأ معلوماته بالحس والادراك والتجربة اليومية . ثم يبدأ تعلمه في المدرسة ويتنقل في مملكة العلم مدى عشرين عاماً حتى يخرج الى الحياة ليطبق فيها ما تعلمه في المدارس طول حياته وشبابه .

لكي نعلم مبلغ تدخل العلم في حياتنا ، يكفيننا ان نقارن بين ما كانت تنشره الصحف قبل عشرة اعوام وبين ما تنشره اليوم من اخبار عن العلم وتطبيقاته العديدة ، سواء أكان ذلك في فن الحرب أم في فنون السلم : اخبار عن الذرة والطيران والصواريخ والغواصات والمدرعات ، وعن الكهرباء وتطبيقاتها العديدة ، والراديو والتلفزة ووسائل المراسلة والتخاطب والنقل ، والأجهزة البيتية وعجائب الكيمياء التي تطلع علينا كل يوم بمركب جديد واسلوب مبتكر ، والعلاجات الجديدة التي قلبت الطب والتداوي والأشعة وأجهزتها واستعمالاتها .

لقد كانت هذه الاشياء كلها في داخل المختبرات في دور التجريب قبل خمسة عشر عاماً مضت ، وها هي قد برزت الى العيان في هذه السنين الاخيرة ، وستلوها مستحدثات كثيرة غيرها . وهذه الحركة آخذة في التضخم يوماً فيوماً .

فرض العلم نفسه على السواد الاعظم من الناس ، بعد ان كان مقصوراً على خاصة ضئيلة ، وما ذلك الا بفضل خروجه من المدرسة والمختبر الى ميدان الصناعة والتطبيق ، ومن حيز التجرد الى حيز الحس واللمس والمشاهدة .

وأهم ما في الامر هو ان نهضة العلم لا تسير بسرعة ثابتة ، بل هي كما  
قدمنا تسير سيراً متسارعاً اذ تقطع الآن في اليوم الواحد ، ما لم تستطع قطع  
مثله في قرن من اول التاريخ ، وسيظل هذا التسارع قائماً ما دامت المدينة قائمة ،  
وما دام هذا السباق بين الأمم يلبس العقول والارادات .

ما هي اسباب هذا السير الحثيث الذي تزداد سرعته كل يوم عن اليوم  
الذي سبقه ، وما هي المراحل التي حققها العلم في دور سنيه العشر الاخيرة ،  
والى اين تذهب الانسانية مدفوعة به ومحمولة بتياره الجارف ، او بالأحرى ما هو  
الاتجاه الذي نحن سائررون فيه ؟ هذا هو الموضوع الذي أنوي معالجته الآن بالقدر  
الذي تسمح به ظروف المحاضرة .

اعتقد ان السبب الاول في ترقى العلم ، هو روح هذه المدينة التي نعيش  
في احضانها ، فالعلم قد انتقل مع الزمن ، من الطور النظري والفلسفي الى  
الطور العملي ، وامكن الاستفادة منه في كافة نواحي الحياة . فكان مبعث  
الصناعة الحديثة التي تستند على العلم في كل دقيقة من دقائقها . ومدينة اليوم قائمة  
على الصناعة ، فهي بالتالي قائمة على العلم .

ليس ثمة دليل على ذلك أقوى من دليل ولادة طائفة من العلماء العاملين  
عدهم أخذ بالازدياد بنسبة كبيرة جداً ، وهم المهندسون . فهذه طائفة من العلماء  
لم يكن لها اثر في العصور الماضية ، في حين ان عدد افرادها قد بلغ اليوم رقماً  
كبيراً جداً ، وهو أخذ في الازدياد بصورة تسترعي الانتباه ، فاذا كان عددهم في  
سوريا لا يزال يعد قليلاً ، فيدبني ان لا تتخذ سوريا مثلاً ، على اني اعتقد ان  
نسبة المهندسين في سوريا ستزداد ازدياداً كبيراً في السنين المقبلة .

تقدر عدد المهندسين في العالم اليوم بحوالي مليون ونصف من الاشخاص  
يشتغلون في مختلف فروع الصناعة الكهربائية والميكانيكية والكيمياوية والبناء  
والاشغال العامة . وقد اقتضى تكاثر انواع الصناعات ان يكثر الاختصاص  
ويضيق نطاقه ، ولا حاجة هنا لتعداد هذه الاختصاصات ، فقد ذكرتها قدماً في

حديث نشرته في الاذاعة ، ويكفي على سبيل المثال ان آخذ فرعاً واحداً نموذجياً من فروع الصناعة ، وهو الكهرباء ، فأذكر فيه من انواع الاختصاص التي يشغل كل واحد منها حياة المهندس وفعاليتها كاملة .

توليد الكهرباء وصناعة المنوبات والمولدات - نقل الكهرباء بالتوتر العالي - توزيع الكهرباء بالتوتر المنخفض - استعمال الكهرباء في المحركات - آلات القياس المختلفة ولوحاتها - تحويل القدرة الكهربائية الى اشكالها المختلفة - التركيب والتحميد - الانارة الكهربائية بالتوهج - الانارة بالتفريغ الكهربائي - الجر بالكهرباء (وله فروع مختلفة) - الصناعات الكيماوية الكهربائية (وهي كثيرة ومتنوعة جداً) - اللحام الكهربائي وصناعة الاقطاب - صناعة المدخرات والايال الكهربائية - الهاتف بانواعه - شبكات الهاتف - البرق - البرق الاسلكي - الاذاعة - التلفزة - الرادار ووسائل الكشف والقيادة الكهربائية الاثرية - الاجهزة الكهربائية (الالكترونية) وصناعة مصابيح الراديو وما شابهها - اجهزة التداوي بالاشعة السينية والاشعة فوق البنفسجية وبالامواج الكهربائية - الصناعة الذرية وفروعها المتعددة التي لا نعلم عنها إلا الشيء اليسير .

الى غير ذلك من شعب الاختصاص في الكهرباء التي يحتاج تعدادها واحصاؤها الى صفحات متعددة .

هذا وان طائفة المهندسين التي سميتها بطائفة العلماء العاملين قد شاركت العلماء في اعمالها ، حتى في مختبرات التحري . ويرجع ذلك الى سببين : اولهما ان العلوم اصبحت من التعمق والتقييد بحيث تحتاج الى آلات دقيقة صعبة الصنع والتشغيل ، فصار العالم بحاجة الى المهندس ليساعده في صنع آلاته وفي تشغيلها ، والسبب الثاني هو ان التحري العملي والصناعي الذي تقوم به اكثر الشركات الصناعية الكبرى في العالم ، يقوم على المهندسين .

اكتشف الانسان من العلم في الاول قوانينه البسيطة ، وفي ظاهرها غير المعقد بل السطحي منها ، ثم صار يتوغل في الصعب منها بالتدرج ، وكلما توغل زاد استطلاع هذه القوانين صعوبة .

لنصور قرية بنيت في الاصل على ضفة نهر ، فلا بد ان الذين بنوها  
اختاروا لذلك اسهل مكان وأبسطه وأقربه وصولاً الى الماء ، ثم كلما زاد عدد  
الأبنية اضطر البائون الى التشييد في امكنة اصعب ، الى ان يأتي حين تصعد فيه  
الأبنية والاحياء على الجبال وتبعد عن مركز القرية التي تنقلب الى مدينة ويصير  
الوصول اليها صعباً جداً .

كذلك البحث العلمي ، قد بدأ بالمشاهدات السهلة وتدرج في الصعوبات ،  
فلنأخذ كمثال لنا انتقال الحرارة وانتشارها ، فالانتشار يحدث بطرق ثلاث :  
وهي الناقلية ، والاشعاع والحمل . والفعل الاول هو اسهلها مشاهدة ولذلك  
بدأ العلماء بدراسته قبل عهد نيوتون ، والفعل الثاني اصعب من الاول ويتطلب  
معلومات رياضية لم تكن موجودة في القديم . فلم تمهياً دراسته إلا في اواسط  
القرن التاسع عشر عندما ارتقت الرياضيات وظهر علم التفاضل والتكامل وارتقت  
معلومات البشر عن حوادث الاشعاع الضوئي . واما الحادث الثالث ، وهو اشد  
الثلاثة تعقيداً ، فلم تمهياً دراسته إلا في القرن العشرين ولما تمته بعد .

وثبت العلوم العملية وثبة كبرى منذ اليوم الذي بدأت فيه الشركات  
الصناعية تهتم بالتجري والتجريب ، وقد بدأ هذا العهد في الربع الاخير من القرن  
التاسع عشر وبلغ في ايامنا هذه شأناً لا يتصوره العقل . ان من يطالع حياة  
كبار المخترعين من امثال اديسون وماركوني يدعش للاساليب العملية التي  
اتبعوها . ويستغرب ان تقوم الشركة الواحدة بالتجريات والابحاث العلمية ، في  
حين ان مثل هذه الاعمال كان من شأن الجامعات ومختبرات التجري . والحقيقة  
ان بعض الشركات الكبيرة ، في الولايات المتحدة خاصة ، لها من عظم امرها  
وكبر صناعتها ما يسمح لها بان تنفرد بتجرباتها وتنفق عليها مبالغ طائلة رامية  
من وراء ذلك ، فيما ترمي اليه ، الى الانتفاع بنتائج هذه التجريات ، مما يجعل  
مصنوعاتها تفوق مصنوعات مثيلاتها من الشركات .

نذكر بين هذه الشركات ، وعلى سبيل المثال فقط ، شركتي زايس وليتز  
الالمانيتين اللتين اختلفتا بصنع زجاج العدسات وكانتا سبب الرقي المدهش الذي

عرفته هذه الصناعة ؛ وتقابلهما في اميركا شركة كوداك . وكذلك شركات جنرال الكترىك ، ووستنجهوس ودبون دونمور ، لها مختبراتها الخاصة تعمل فيها مئات المهندسين والمعلماء وتقوم بالابحاث الاساسية وتنشر هذه الابحاث بصورة عامة . وان هذه الشركات تفخر دوماً بمختبراتها وتشيد بالقسط الذي تساهم به في ترقية العلم والصناعة .

لا يقتصر هذا الامر على الشركات الكبيرة ، بل ان كثيراً من البيوت الصناعية المتوسطة او الصغيرة تنفق غالباً ما يعادل ١٠ ٪ من ارباحها في التحريات العلمية .

على هذا الاساس ، بلغت نفقات التحري في الامم الصناعية مبالغ طائلة ، ففي الولايات المتحدة تبلغ حوالي ٣٠٠ مليون دولار في السنة ، ما بين رواتب للموظفين ونفقات عامة للمختبرات والبناء . وعلى سبيل المثال نذكر ان المختبر الجديد لشركة الهاتف (بل) يضم بين جدرانها ما يقارب ٥ آلاف مهندس وعلم ومساعد في .

ان هذا الازدهار العلمي في الولايات المتحدة اليوم يدعش الاوروبيين الذين كانوا الى امد قريب اساتذة الاميركيين . وقد قص احد العلماء الفرنسيين ، على اثر جولة علمية قام بها في امريكا عقب الحرب الاخيرة القصة التالية التي يؤكد صحتها :

« يهتم مدير احدى الشركات الصناعية ، اهتماماً كبيراً بالرقى العلمي ، ويطالع بامعان كل ما ينشر عنه من مقالات مبسطة . وكما اطلع على وصف لجهاز جديد ، يرسل كتاباً لمدير المختبر يسأله فيه هل في حوزة الشركة مثل ذلك الجهاز ام لا . ولماذا ؟

ووقع يوماً على وصف الجهاز الرحوي الشهير Cyclotron ، وهو جهاز غالٍ جداً وكبير الحجم ولا يوجد إلا في مختبرات الفيزياء الكبيرة ، وغايته



دراسة نواة الجواهر الفردة للعناصر ، فارسل كعادته ، كتاباً الى رئيس المختبر فجاب هذا بقوله : ليس لدينا مثل هذا الجهاز للاسباب الآتية :

١ - لأنه يكلف مليوناً من الدولارات .

٢ - لأنه يحتاج الى عدد من الموظفين المطلعين لتشغيله وصيائه .

٣ - لا ارى ثمة مسألة من المسائل التي تمهم مشروعنا ، تستطيع هذه الآلة ان تفيدنا فيها .

فكان جواب المدير على ذلك :

١ - ان شركتنا من الغنى بحيث يمكنها ان تنفق مليوناً من الدولارات لجهاز بهذه الاهمية .

٢ - يوجد في الولايات المتحدة من الباحثين العدد الكافي الذي يسمح لنا بأخذ الموظفين اللازمين .

٣ - أما فائدة هذا الجهاز لنا ، فانك تتقاضى اجورك لكي تجد لنا مثل هذه الفوائد .

ومغزى هذه الحكاية هو ان الصناعيين في امريكا انما ينفقون على مختبرات التحري بسخاء لأنهم يعلمون ان الزمن كفيلا يجعل هذه المختبرات تؤتي اكلها . ولذلك فهم يحرصون فيها بانتظار الثمر .

نرى اذاً ان رقي الصناعة قد سبب للعلم خطوات واسعة جداً لم يكن ليخطوها في قرون عديدة لو بقي قابلاً في قاعات التدريس ومختبرات الجامعات .

هذا هو السبب الأول والأهم في الرقي السريع الذي ناله العلم .

والاسباب الاخرى هي : روح النهضة التي هبت على العالم اجمع وخلقت المنافسة بين الامم في حاتي السلم والحرب ، وازدياد عدد البشر ازدياداً مضطرباً

جعل سكان الارض في هذه الايام يعادل ضعف ما كان عليه منذ قرن . وارتفاع مستوى التعليم في كافة الامم ، ثم ظهور دول عظيمة جديدة احتلت مكانة رفيعة جداً في العلم والصناعة ، لم تكن تحتلها منذ نصف قرن . واخيراً لأن رقي العلم هو نتيجة طبيعية للتطور البشري .

فروح المنافسة ذات اثر عظيم جداً في ترقى العلم ، والمنافسة في الأصل هي من أهم الاسباب والبواعث على التعلم والاختراع وعلى الاتقان ، سواء أكان مفعولها في المدرسة أم في الحياة ، وقد أخذت المنافسة احياناً صوراً تشبه التناحرن والعراك لكسب الاسواق التجارية وإعلاء اسم ماركة من الماركات على غيرها .

وقد أدت المنافسة بين الشركات الى التجسس على بعضها بعضاً ، وسرقة مكشفتاتها للاستفادة منها ، هذا في صناعات السلم ، فكيف في خلال الحرب . ومن ذلك نشأت فكرة حماية الاختراع لحفظ حقوق المخترعين ، بعد ان نشبت خلافات لا تعد ولا تحصى بين مخترع ومقلد وسارق ، أو بين مخترعين وصلا الى عين النتيجة في مدة واحدة وفي قطرين مختلفين .

نذكر بهذه المناسبة ما يرويه الفرنسيون من انهم كانوا يجربون في خلال عام ١٩٣٣ شكلاً خاصاً لمقدمات السفن ، يختلف عن الشكل الكلاسيكي ويجعل السفينة المهززة به تلامي مقاومة من الماء أقل بكثير مما تلامي الشكل العادية الدارجة . واضطروا الى اجراء التجريب على نماذج مصغرة في مختبر كبير في المانيا مختص بهذا النوع من التجارب ، وكان الالمان حينئذ يصنعون باخرة كبيرة جداً هي برين لسير بين المانيا والولايات المتحدة ، فاطلعوا بالطبع على هذه التجارب وسارعوا للاستفادة منها ، فأعادوا صنع مقدمة السفينة برين وغيره حسب الشكل الذي برهن بالتجربة على أحسن النتائج ، فاستطاعوا بذلك ان يفوزوا بالشريط الازرق وهو علامة السبق في قطع المحيط الاطلسي .

وأما في خلال الحرب ، فان المنافسة تتخذ اشكلاً عنيفة وخفية ، ولا تزال ماثلة في الازدهان قصص التجسس على صناعة القنابل الذرية والرادار والصواريخ

والطائرات النافورية ومثل ذلك من المخترعات . وما هذا التجسس الا دليل على الرغبة القوية الموجودة لدى كل دولة في تحسين مصنوعاتها الحربية لتكسب لنفسها بذلك حصناً جديداً وغلبة على الخصم . وان هذا التنافس في ايام الحرب وبعده الحرب ، قد جعل الصناعة تمخطو خطوات واسعة جداً إذ ان ضرورات الحرب لا تعبأ بالنفقات ولا بالخسارة فما كانت الحرب في يوم من الايام عملية رابحة لأحد الخصمين ، ولكن الخبرة التي تكتسبها الصناعة منها لا يتهبأ لها مثلها ايام السلم . فلنذكر على سبيل المثال التسابق في سرعة الطائرات ، مما جعل هذه السرعة تفوق اليوم ضعف قيمتها في بدء الحرب . فالطائرات التجارية العادية كانت سرعتها في عام ١٩٣٩ حوالي ٢٠٠ كيلومتر في الساعة فبلغت الآن على وجه الوسط ٤٥٠ كيلومتراً ، وطائرات المطاردة كانت أقصى سرعة لها قبيل الحرب ٧٠٠ كيلومتر في الساعة فبلغت الآن ١٢٠٠ كيلومتر بل وتجاوزه ، وتحيط الدول ارقام السرعة لطائراتها الحربية الحديثة بكثير من الكتمان . ولكن مما لا شك فيه ان كثيراً من التاذج التي تجرب الآن قد تجاوزت سرعتها ١٤٠٠ كيلومتر ، واخترقت بذلك جدار الصوت ، وهو العقبة الكبرى التي كان يخشى ان تقف حائلاً في وجه السرعة .

تبلغ سرعة الصوت في الهواء البارد حوالي ٣٣٠ متراً في الثانية ، أي ما يعادل ١٢٠٠ كيلومتر في الساعة ، وقد كانت هذه السرعة تعد كحد أقصى لا تستطيع الطائرات الوصول اليه ، على ان قذائف المدافع البعيدة المرمى تجاوزه منذ زمن بعيد .

وقد كان العامل الاول في زيادة سرعة الطائرات هو العدول عن المحرك الانفجاري واستعمال المحرك النافوري الذي يجعل الطائرة تطير بقوة الاندفاع كالصاروخ . فأمكن بفضل هذا المحرك زيادة السرعة الى هذه القيم التي ذكرناها ، بدون زيادة مفرطة في الوقود .

كان الانكليز السابقين الى استعمال المحرك النافوري في الطائرات التجارية بعد الحرب فصنعوا طائرات ركاب ، يشتغل بعضها الآن على خط لندن القاهرة ، بسرعة تجارية قدرها ٨٠٠ كيلومتر في الساعة ، على ان السرعة العظمى لهذه

الطائرات تبلغ ١٠٠٠ كيلومتر في الساعة ، ولا يبعد ان تصبح هذه السرعة سرعتها التجارية في المستقبل القريب .

بهذه السرعة ، تستطيع الطائرة اذا سارت على خط العرض ٥٠ ان تدور حول العالم ، أي أن تقطع دائرة العرض تلك وطولها ٢٤ ألفاً من الكيلومترات في ٢٤ ساعة ، وان هذا وان كان الآن متعذراً لأن هذه الطائرة لا تستطيع مواصلة السير طول هذه المدة بدون توقف لاحتياج رحلتها هذه الى كمية كبرى من الوقود تمجز الطائرة عن حملها . على انه بإمكانها بعد بضع سنين ان تحل هذه المشكلة وعندئذ نرى الانسان يقوم في يومه باعمال تدعونا الآن الى الاستغراب .

عندما تسير هذه الطائرات بانتظام بين لندن ونيويورك ستقطع هذه المسافة في خمس ساعات ، والمعلوم انه يوجد بين توقيتيه هاتين المدينتين فرق قدره خمس ساعات سببه اختلاف الطول الجغرافي بينهما بقدر ٧٠ درجة . ولما كانت مدينة لندن تسبق في التوقيت مدينة نيويورك لوقوعها في شرقها ، فان التاجر الانكليزي الذي يسافر الى نيويورك يستقل الطائرة في الساعة الثانية بعد الظهر مثلاً بعد قيامه بعمله في الصباح وتناوله طعام الغداء ، فيصل الى نيويورك بعد خمس ساعات ، ولكنه لسيره نحو الغرب ٧٠ درجة يكسب خمس ساعات ايضاً فيكون وصوله في الساعة الثانية بعد الظهر بتوقيت نيويورك ، ويبقى الوقت جامداً طول سفره ، وتبقى الشمس في مكانها من السماء بالنسبة اليه ، فيجد مجال العمل بعد الظهر مفسوحاً أمامه تماماً كما لم يتحرك من مدينته . أما عند العودة ، فانه سيخسر الساعات الخمس التي كسبها في الذهاب . فاذا استقل الطائرة في الساعة الثامنة صباحاً فان وصوله الى لندن سيستغرق اولاً اكثر من خمس ساعات بسبب الرياح القوية المعاكسة ، ولو اتنا أهملنا فعل هذه الرياح ، فان سبق لندن في التوقيت لنيويورك بخمس ساعات سيجعل التاجر يصل اليها بعد عشر ساعات أي في الثامنة عشرة مساءً بعد انقضاء النهار .

وان من الدعابة في هذه القضية هو ان سرعة الطيران الآخذة في الازدياد ، اذا سمحت في المستقبل بقطع المسافة بين لندن ونيويورك في اربع ساعات ، فان

المسافر من لندن في الساعة الثانية بعد الظهر سيصل الى نيويورك في الساعة الواحدة من نفس النهار بعد ان يكون قد سبق الشمس في طيرانه وشاهدها تسير من الغرب الى الشرق .

ان ازدياد سكان الارض وارتفاع مستوى التعليم في كافة الامم قد دفع بالعلم الى الامام دفعات قوية جداً . فلنرجع بالنظر الى ما كانت عليه سوريا منذ ثلاثين عاماً نجد ان عدد المهندسين فيها كان ضئيلاً جداً لا يتعدى عشرين مهندساً ، اما الآن فقد بلغ عددهم على قلته مائتين تقريباً ، اي انه ازداد الى عشرة امثال ما كان عليه في ثلاثين عاماً . وهذه النسبة ليست صحيحة بالطبع في بلاد الغرب ، ولكن نشوء الصناعات الجديدة قد تطلب وجود مهندسين مختصين جدد ، بحيث نستطيع ان نقول بان هذا العدد في اوربا واميركا قد زاد الى اربعة امثاله فقط .

الآن بعد ان ذكرنا عوامل رقي العلم ، كل واحد منها بمفرده ، فلننظر كيف اثرت هذه العوامل مجتمعة : ان القوانين الطبيعية الرياضية التي تحتوي على عدة عوامل تؤثر كلها في اتجاه واحد تدلنا على انه عندما تؤثر هذه العوامل مجتمعة فان الناتج يتغير تغيراً قوياً جداً . فلنأخذ مثلاً بسيطاً على ذلك هو مثال وعاء موشوري الشكل فيه مادة سائلة ، فوزن هذه المادة يتعلق بأربعة عوامل وهي طول الوعاء وعرضه وارتفاعه والثقل النوعي للسائل . فلو ان الطول وحده نما الى الضعف لتضاعف الحجم والوزن ، وكذلك لو تضاعف العرض او تضاعف الارتفاع او لو ابدل السائل بسائل آخر كثافته ضعف كثافة الاول . فلنفرض الآن اننا ضاعفنا في حين واحد الطول والعرض والارتفاع والكثافة ، فان ثقل السائل الذي يملأ الوعاء الجديد يكون اكبر من ثقل الاول بـ ١٦ مرة .

كذلك ، اذا كان رقي العلم يسير باطراد بنسبة ازدياد سكان الارض ، فان تضاعف عدد السكان يجعل الحركة العملية تتضاعف في نفس المدة بسبب هذا العامل وحده ، وان العوامل التي ذكرناها كثيرة ، فتأثيرها المشترك يكون

من نتيجه ان سرعة رقي العلوم تتضاعف في مدة وجيزة جداً وان هذه السرعة  
تأخذ دوماً بالازدياد .

لنبعث الآن عن المراحل التي حققها العلم منذ عام ١٩٤٠ : لا شك في  
ان الحرب الماضية كان لها اثر كبير جداً في رقي العلم والصناعة ، وان العدا  
المعيت الذي قام بين الجبهتين المتقاتلتين ، والذي استحال الى طور جديد في ايام  
السلم ، قد شجذ همم الطرفين للتسابق في تحسين أجهزة القتال والدفاع والكشف  
والتداوي . فكانت نتيجة ذلك ما عرفناه من ظهور الانواع المختلفة لأسلحة  
الموت في الجو والارض والبحر . ولما اعلنت الولايات المتحدة في برنامج تسليحها  
عام ١٩٤٢ انها ستصنع مائة الف طائرة في السنة سخر الالمات من ذلك في  
دعايتهم وعدوه كلاماً فارغاً . ثم لما غزت سماءهم اسراب مؤلفة من الف راجمة  
في غارة واحدة ايقن الذين ذاقوا وابلها من صدق ذلك الوعد .

لما كانت هذه الفترة موسومة بسمية الحرب ، فان الحرب كان لها اثر  
عميق جداً في تقدم الصناعة والعلم في كثير من نواحيها ، وبالرغم من ان كل  
فرد منا يمقت الحرب ويكرهها بكل قواه ، فلا يسمعه مع ذلك إلا ان يعترف بان  
الامم الكبيرة تبذل في ايام الحرب الملايين والمليارات رخيصة مع الارواح والدماء  
لسي تفوز بالنصر ، ويستفيد العلم من ذلك فائدة كبيرة .

من الصعب الخوض في تفاصيل التقدم العلمي في هذه الحقبة . على انه  
يمكن ذكر خطوطه الرئيسية وكلها من نتائج حمى الحرب التي كانت الدافع  
القوي لوثوب كثير من الصناعات والحصول عدد كبير جداً من الاكتشافات  
العالمية ، التي استثمر بعضها لغايات السلم في السنين التي اعقبت الحرب .

وأهم ناحية علمية نالها نصيب كبير من التقدم هي ناحية الابحاث الذرية ،  
فقد اشتعلت نار الحرب ، ولا تزال قضية الانفاق التسلسلي لجواهر الاورانيوم  
من مشاهدات المختبر الحديثة العهد جداً ، وقد شوهدت في المانيا وفرنسا فقط ،

غير انها اعطت البرهان الحسي على امكانية انفجار هذا العنصر ، من تلقاء نفسه ،  
انفجاراً يرافقه انتشار كمية هائلة من القدرة .

في ذلك الحين ، هاجر الى اميركا عدد كبير من العلماء الفرنسيين  
والطليان والدانمركيين والانكليز ، فأحدثوا في الولايات المتحدة ضغطاً كبيراً في  
حيز الاعمال الذرية ، وأيقنت الولايات المتحدة بان فرصة عظيمة جداً قد سنحت  
لها لتكون اول من يفوز بثمرات هذا الاكتشاف ، واتصل العلماء الذريون بالعالم  
انشتين وهو الذي تنبأ بهذه الاشياء قبل ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ فطلبوا  
وساطته لدى رئيس الولايات المتحدة فكتب اليه كتابه المشهور يوصيه فيه بالاهتمام  
بصورة جدية بهذه القدرة الهائلة المحفوظة في قلب عنصر الاورانيوم كما حفظت  
عقاريت سليمان في قماقمها ، وكان ذلك نقطة ابتداء لمساع جبارة كلفت مليارين من  
الدولارات وما لا يوصف من الجهود وانتهت بعد ستة اعوام بتفجير اول قنبلة  
للاورانيوم في صحراء نيو مكسيكو .

لا تزال قصة هيروشيما وناغازاكي ماثلة في الاذهان ، ونذكر جميعاً العهد  
الجديد الذي افتتح بتفجير القنبلة الذرية فسمي هذا العصر بعصر الذرة دخلت فيه  
الانسانية عام ١٩٤٥ .

وفي السنين الست التي أعقبت عام ١٩٤٥ خُطت الابحاث الذرية خطوات  
سريعة جداً وشرعت بقية الامم ذات الصناعة الراقية ، تعمل لتلحق بالولايات  
المتحدة ، فكانت روسيا هي السابقة في هذا المضمار ، إذ خُبرت اول قنبلة لها في  
صيف ١٩٤٩ ، ومنذ ذلك الحين يصح ان يقال ان امريكا دخلت في عهد الذعر  
من الذرة .

ومما يجدر بالذكر ان ابحاث الذرة ، التي تشغل كثيراً من العلماء والمهندسين  
في اكثر الامم الكبيرة ( ٥٠٪ من مجموع المهندسين والعلماء في الولايات المتحدة )  
لا تقتصر على تحضير قنابل الاورانيوم والبلوتونيوم وقنبلة الهدروجين التي يسميها  
الامريكيون بقنبلة جهنم ، بل تسمى في دراسة كثير من التطبيقات الصناعية

والحربية لها ، كالمدمعية الذرية والصواريخ ، وفي الاستفادة منها في توليد الكهرباء وتحريك السفن والطائرات ، وقد اعلن اكثر من مرة ، وبصورة شبه رسمية ، ان تحقيق هذه المصنوعات سيجري في غضون السنوات الخمس المقبلة .

الى جانب رقي الفيزياء الذرية ، نذكر ما شاهها من صناعات الحرب كالطيران والصواريخ ، وقد بلغت الصواريخ التي جربت اخيراً في امريكا ، ارتفاعاً يفوق ١٥٠ كيلومتراً في الجو ، حيث يصبح ضغط الهواء جزيئاً لا يذكر ، ويتعلق مستقبل الصواريخ على تسهيل استعمال القدرة الذرية لتحريكها .

ومن جملة الصناعات التي ارتقت جداً بعد الحرب صناعة التلفزة ، فقد لقيت في الولايات المتحدة انتشاراً منقطع النظير ، ويقدر عدد آلات الالتقاط المصنوعة فيها حتى الآن بحوالي عشرة ملايين ، ويقدر المطلعون بأن تعم التلفزة هنالك ويبلغ عدد الأجهزة في الولايات المتحدة وحدها ٢٥ مليون جهاز في نهاية عام ١٩٥٣ .

ويمكن في الجملة ان نقول بأن الصناعات الكهربائية قد لاقت في هذه الحقبة تطبيقات عديدة لا تحصى ، وانها ولدت فروعاً كثيرة ، نكتفي منها بالإشارة الى الآلات الحاسبة الكهربائية التي تزداد دقة وتعقيداً في كل يوم ، والتي تعتمد عليها الدوائر العالمية في حل أعوص المسائل وأدقها وأطولها حلاً ، بما قد يمضي الحاسبون السنين الطويلة في حسابه لولاها ، وهي تعطي النتيجة المضبوطة في برهة وجيزة جداً .

وقد أدت صناعة هذه الآلات التي تسمى بالدماع الكهربائي ، الى حصول تقارب في الدراسة بينها وبين الدماغ الانساني ، فكان من نتيجة ذلك ان ولد علم جديد يسمى Cybernétique وهو يهتم بالقضايا التي تربط ما بين خلايا الدماغ وبين الخلايا الكهربائية الضوئية والتي تشبه الدماغ في كثير من صفاتها .

نكتفي بهذه الأمثلة التي تدل دلالة واضحة على الخطوات الواسعة التي يخطوها العلم في هذه الايام ، تاركين مكتشفات الكيمياء والطب وغيرها لخروجه عن نطاق بحثنا هذا .



الى أين يسير العلم؟ والى أين تسير الانسانية وهي مندفعه بوثبته وسأرة  
في موكبه؟ هذا هو السؤال الذي يختلف العلماء في الجواب عليه باختلاف  
مشاربهم وأمزجتهم، فالتشائمون منهم يقطبون جبينهم لأن التفكير فيه يقلق بالهم  
ويقض مضاجعهم، والمتفائلون يرون ان الانسانية تسير نحو الرفاه والكمال وان  
العصر الذهبي لم يقبل بعد. والحقيقة ان التكهن بالمستقبل صعب جداً، فالعلم الذي  
خدم الانسانية باكتشافاته الطبية الرائعة وقضى على كثير من الأوباء وقدم للبشر  
اساليب الراحة والتنعم والرفاهية مما لا يستطيع الفرد المتمدن اليوم ان يستغني  
عنه، هذا العلم قد كدس للبشرية أسلحة فتاكة مبيدة وامكانيات لتوليد الأوبئة  
ونسر الغازات السامة والمشعة القاتلة ووسائل التدمير والملاك كافة.

هل رجحت الانسانية من العلم وهل أفادت منه؟ أم هل يجدر بها ان  
تأسف على عصور الظلام حينما كان الجهل خير درع للبشر من الاخطار التي  
جندها عليه العلم اليوم؟

هل تحققت اسطورة تلاميذ الساحر الذي سرق سر السحر من معلمه  
فسخر لنفسه الجوامد لتخدمه وتكنس وترش وتنقل الماء بدلاً منه، ثم جهل  
سر ايقافها عند حدها عندما تنتهي مبهتها، فكان نتيجة ذلك ان اهلكته غرقاً؟

قرأت في الصيف الماضي مقالة في مجلة علمية عنوانها: انشتين خائف،  
والعالم انشتين لا يحتاج الى تعريف، وهو بزعم بعضهم نبي العلم في هذا العصر،  
او فلنقل نذير خرابه، تصور هذه المقالة حالة الذعر في الولايات المتحدة وفعالها  
المنعكس في نفس انشتين. قال:

« ليست اقوال انشتين بالسكلام العادي، لأن عبقريته قد رفعتة الى سوية  
شاهقة لا مثيل لها في التاريخ، فعلا بعلمه فوق العلماء كافة. فاذا عراه الخوف  
فان سائر العلماء يخافون كما يخاف ركاب الطائرة المشرفة على الخطر عندما يرون  
اشارة ذعر تبدو من السائق.

« لقد اعتكف البير انشتين منذ اشهر عدة في بيته في برنستون تاركاً البيانو والقيثارة ، وراعياً حتى عن الزهات التي كانت محببة اليه . فعاش فيه كالناسك ليتأمل وينظر في المرحلة التي قطعت .

« والغريب في الأمر ، بل والمؤثر حقاً ، هو انه عاد ففتح كتب الاساطير الجرمنية القديمة ، تلك الكتب التي ههدت اقاصيها ليالي سنيه الاولى . ولا يستطيع الانسان ان يتصور فاجعة اشد تأثيراً من فاجعة هذا الرجل الذي يحمل سياء العبقرية ، والذي تكلم بالغار وبلغ ذروة المجد والشرف ، فتراه في آخر حياته يطرق باب اشباح صباه ليسألها عن مصير عالم كان هو المشيد لجزء كبير منه .

« لقد راعته القوى التي اطلقها من عقالها ، فافلتت من ارادته وطاعته ، ولذلك فانه يريد ان يتذكر الكلمات السحرية التي نسيها تلميذ الساحر .

« كان انشتين فخوراً بصرحه العلمي ، يشيد دوماً بمعظم اكتشافاته ، وقد نشر في نهاية عام ١٩٤٩ ملخصاً لترجمة حياته بقلمه كله تمجيد لرجل العلم الذي تحرر من كل اعتبار عاطفي وسار طوع العقل المحض . فذكر في هذه الترجمة كيف انه لما بلغ الثانية عشرة لم يعد يؤمن باجداده ، ونحى بكتاب العهد القديم في سبيل كتاب الهندسة .

كيف لا يدهش الانسان اليوم عندما يراه يعود الى منبع شكوكه ؟ ان اساطير الأولين قد تأرت فيه لنفسها على محاكات العقل المحض .

وعلى كل حال ، فان انشتين لا يكتم مخاوفه ، بل هو قد صرح بها في العام الماضي عندما سمع بان صنع قنبلة الهدروجين قد ابتدأ .

ان انشتين خائف ، وامريكا كلها خائفة معه ، لقد هيأت الحكومة لكالفورنيا خطة ترمي الى ترحيل عشرة ملايين من السكان وتقضي بجمع اللاجئين في معسكرات نيفادا واريزونا بعيداً عن المحيط الهادئ الذي يمكن

ان تأتي منه السحابة الاشعاعية . وقد اتخذت تسعة وثلاثون ولاية تدابيرها لتأمين الدفاع المدني لمراكز الدراسة الذرية ولحظت طرق الترحيل وبنيت ملاجئ ذرية .

وقد اذاعت مديرية الدفاع المدني في نيويورك برنامجاً لاختلاء المدينة قاطبة على ثلاث مراحل : الامهات والاطفال والمرضى ، ثم بقية السكان المدنيين ، واخيراً الاختلاء التام بعد الغارة الذرية .

وتلقى كل فرد من سكان نيويورك ، منذ تشرين الاول ١٩٥٠ تعليمات دقيقة بشأن هذا الاختلاء الثلاثي . وقد احصي ما في البلاد من مغاور وكهوف من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، وتقرر ان كهف الماموث الشهير الواقع في مقاطعة الكنتيكي سيؤوي المستشفيات والمستودعات الذرية والمعامل ، وذلك على مسافة تحت الارض طولها ١٦٠ كيلو متراً .

هذه هي ، بعد هيروشيما بسبع سنين ، الحالة النفسية والمعنوية للشعب الامريكي الذي انتصر في ثلاثة حروب متوالية ، والذي يظن الانسان ان تفوقه العظيم في النطاق الذري كان كفيلاً بتطمينه .

غير ان انشيتين ينظر الى ما هو أبعد من هذه المخاطر المادية . يرى ان استعباد العبقريات قد صار محتوماً وانه قد قام الى جانبي الستار الحديدي . وقد كتب في رسالة له قائلاً :

ان العلماء قد اخترعوا اليوم أجهزة لتخريب البشرية بكاملها ، ولكن هذه الحالة المفجعة ليست من جريمة العلماء انفسهم . لانهم لا يبحثون إلا عن الحقيقة الصافية .

وان العالم ليرى بوضوح ان الحكومات التي جمعت في ايديها كافة السلطات ستؤدي الى ابادته البشرية تماماً . وهو يعلم بانه لا يزال بالامكان انقاذ الانسانية ، لا بالقوة الغاشمة ، ولكن بسلطة أعلى من السلطة الوطنية لكل دولة ، أي

بمحوكمة دولية كهيئة الامم المتحدة. وعلى شرط ان تكون في يدها السلطة الكلية. ولكن يخشى ان يأتي عملها السلمي بعد فوات الفرصة .

ما هي هذه المخاطر التي يشير اليها انشتين والتي تهددنا جميعاً ؟ ان عبارة الابداء الثامنة لم تأت جزافاً من قبل عالم اعتاد على الدقة العلمية . وان القبلة الذرية مهما كانت مبيدة فانها لن تفي البشرية ، بل تبقى بعدها عواصم وشعوب تقوم بحمل مشعل العلم . لماذا يتكلم انشتين اذاً عن البشر كأنه جماعة نمل في وكر يقترب منه شخص يحمل وعاء من النفط ؟

ارى لهذا الامر سببين ، وربما كان له اسباب اخرى - ولكل من هذه الاسباب اسم ذري ، وهما : سحابة الكوبالت ، وعدوى انفلاق العناصر الخفيفة التي تؤلف قبلة الهدروجين .

. بعد تجربي بكني المشهورتين اللتين جرتا في صيف ١٩٤٦ ، تشكلت في السماء سحابة جبارة مشعة ممتدة ، استطاعت الطائرات ان تتبعها وهي مدفوعة بالريح الى ان بلغت الشواطئ الامريكية ، وقد كشفت بعض بقاياها فوق سماء فرنسا .

من الممكن اليوم ، بفضل قنابل خاصة ، توليد سحب اقوى واشد من هذه ، باستطاعتها ان تبعد كل ما تجده في طريقها من اثر للحياة ، ويقال بان تجارب ناجحة من هذا النوع قد اجريت في الصحارى المتجمدة الكندية . ولذلك فان الخطر ، في نظر الامريكيين قد انقلب الى كابوس . فهم يتصورون اسطولاً من الغواصات المعادية يبرز فجأة حذاء شواطئهم الغربية الباسفيكية في يوم شديد الرياح المتجهة نحو الشواطئ وترسل هذه الغواصات قنابلها المدخنة المرعبة . فلا تخفي ٤٨ ساعة إلا وتكون هذه السحابة قد نظفت كل الاراضي الامريكية دون ان تترك فيها ورقة من العشب .

يقول احد المسؤولين في الحكومة الامريكية : لا ريب انه سيكون بوسعنا ان نووي اركان جيشنا ودوائرنا الرسمية ومراكز الهاتف تحت الارض .

ولكنه لا بد من الصعود الى ظهرها في يوم من الايام ، فبأية حالة سنجد مزارعنا ومواشينا ومدننا ، وكل ما هو لازم للحياة ؟

وقد جاء في الاخبار الاخيرة انه يكفي ان يمزج بالمواد المتفجرة ، التي تؤلف القنبلة كمية ضئيلة من احد املاح الكوبالت لكي يصير مفعول السحابة فتاكاً الى الحد الاقصى ، واذا وضع فيها بضعة كيلويات من الكوبالت لأمكن تنظيف الارض من كل اثر حي .

والفرضية الثانية افطع من الاولى : من المعلوم ان الانفجار الذري للاورانيوم او البوتونيوم او التوريوم لا ينتقل بالمعدوى الى الصخور التي تؤلف القشرة الارضية ، وان الاورانيوم ٢٣٨ مثلاً ، وهو الاورانيوم الطبيعي ، لا يمكن ان يحصل فيه حادث الانفلاق المتسلسل كما يحدث في نظيره ذي الرتبة ٢٣٥ .

غير ان شأن العناصر الخفيفة على عكس ذلك ، وهي الهدروجين بانواعه والهليوم والليتيوم ، وغيرها ، والقشرة الارضية تحتوي في تركيبها على قسم كبير من هذه العناصر ، تسبب استحالتها انتشار قدرة حرارية واشعاعية هائلة . ولذلك فان الكرة الارضية ليست ثابتة من الوجهة الذرية بالمعنى الذي يقصده الكيمائيون ، وليس من الجنون ان يتصور الانسان ويخشى ان تحيها بعض التجارب المتهورة الى اتون متأجج كالشمس . ففي ذلك اليوم ينهي كل شيء ويزول من هذه الارض كل ما فيها من بشرية ومدنية ومجد وافراح وآلام ، وتصبح نجماً صغيراً تسطع انواره فجأة في الفضاء ، فيدهش لها فلكيو المرنخ ويستغربون ان تصبح الارض من هذه النجوم التي تتألق فجأة وتسمى بالنوفا .

في مستقبل العلم نقطة استفهام غامضة جداً ، هي قضية حياة او موت ويتعلق عليها مصير هذه الانسانية ، فعسى ان تصدق احلام المتفائلين ، ويكون مستقبل العلم خير الانسانية وسعادتها ورفاهيتها .

لقد اوتيت من عند الله قوة وفضل وفضل من الله  
الذي هو خير من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو  
الفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

والفضل من الله الذي هو افضل من كل شيء والفضل من الله الذي هو

# نمو الاقتصاد العربي وتوجيهه للصمود في وجه إسرائيل

محمد سعيد الزعيم

نائب رئيس غرفة تجارة حلب

= القيت بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩٥٢ =

تذکرہ اہل حق

وہ کلام ہے جو حق پر  
بیانیہ ہے

پیشانیہ  
تذکرہ اہل حق



## القسم الاول

### نشوء الاقتصاد العربي

نوطئة :

نما الاقتصاد العربي في غضون ثلث قرون ، لا سيما بعد تحرره من الامتيازات الأجنبية ، التي كانت سائدة ايام الحكم العثماني ، وفي بعض عهود الانتداب او الحماية او الاستعمار . نمواً سريعاً في مختلف ديار العرب ، بالرغم عن ان النضال السياسي لم يكن من شأنه ان ييسر الاستقرار اللازم للنشاط الاقتصادي ، هذا النمو تشهد به معالم الازدهار والعمران والتقدم ، البادية في كل صوب ومكان ، في حقول الزراعة وميادين الصناعة ومرافق التجارة . كما ارتفع في وسطه مستوى المعيشة عما كان عليه من قبل ، وان لم يبلغ من الكمال الدرجة ، التي يجب ان تتوفر في محيط واسع الجنبات ، غني الموارد ، كثير الامكانيات ، وفي زمن تطورت فيه الحياة العامة والمبادئ الاجتماعية والروح والمادة تطوراً قلب نظام العالم والفكر ، وغير كثيراً من عادات الانسان .

لقد خلق الاقتصاد العربي يوم بعثت الحكومات العربية ، بعد هجمة امتدت خمسة قرون ، حيث لم يكن للعرب قبل الحرب العالمية الاولى شأن ولا كيان ، ولكن ما كادت تلك الحرب تضع اوزارها ، وتبرم معاهدة لوزان ، حتى قامت

الدوليات العربية ، ما استقل منها وما وضع تحت الانتداب ، وما زالت عنه الحماية ، نشى اقتصادياتها متأثرة بالروح التي سيطرت عليها ، وبالزمن الذي نشأت فيه . فمصر بعد أن ظلت قرابة سبعين عاماً تطبق في الرسوم الجمركية فئة واحدة قيمة هي ثمانية بالمائة ، حيث كانت مقيدة بمعااهدات تجارية مع الدول الأجنبية ، عملت مصر عام ١٩٣٠ لتعديل النظام الجمركي ، مستهدفة من رسومه استقلالها الاقتصادي لجانب الاستقلال السياسي ، وزيادة موارد الدولة وحماية الصناعات بتخفيض الرسوم عن المواد الأولية والوقود ، وصيانة الثروة القومية بزيادتها على مستلزمات الترف ، وخدمة المجتمع المصري بالاعتدال في تقدير الرسوم على الاصناف التي يستهلكها السواد الاعظم ، وتقدير الرسوم الاضافية بالنسبة لبعض الاصناف التي تتمتع في مجال تصديرها باعانة التصدير .

وأما العراق ، فكان هم حكوماته بعث الزراعة وترقية وسائلها وتوسيع شبكات ريه وإسقاؤه ، وبناء أسس اقتصادية بسيطة في أول الأمر حرة ، ثم تحووت مستهدفة ايضاً سياسة التصنيع ، الى جانب حماية المنتجات المحلية ، وإنشاء مرافق جديدة ، وتجديد الصناعات القديمة وآلاتها .

وقد اعتمد في تكوين اقتصادياته على عوامل فعالة عديدة كتعدد انواع الزراعات المختلفة التي تلائم البلاد ، وعلى استثمار النفط في كركوك ، ومد انابيب شركة النفط العراقية الى البحر الابيض المتوسط ، وعلى تنفيذ برامج تتوسع تدريجياً وتعتمد على موارد البترول وحصصة الحكومة من عائداته . وعلى الثروة الطبيعية في شماله وشماله الشرقي المتمثلة في شلالات مائية يمكن الاستفادة منها لتوليد قوة كهربائية بثمن يخفض لادارة المعامل . ومن هذه الشلالات شلال السديه في عفرة ، والسولاف في العمادية ، وشلالات السلمانية وراواندوز .

وأما في سوريا ولبنان ، فقد قامت نهضة اقتصادية مباركة تعيد للبلاد ماضيها التجاري الزاهر ايام كانت همزة وصل بين الشرق والغرب والغرب والشرق ، وترتكز على امكانية السوري واللبناني ومقدرتهما على الانتاج وتفضلهما في عالم التجارة ،

وعلى طبيعة سوريا ولبنان الثنيية واستثمار خيراتها . فكانت أول بلد عربي أخذ  
بسياسة التصنيع لجانب التجارة والزراعة . وسارتا - بالرغم عن سياسة الانتداب  
التي ما كانت تواتي خير البلدين وازدهارها الاقتصادي - في طريق الانشاء بقدم  
ثابتة ، تتعثر آناً وتمشي أحياناً ، وترتد الى الخلف زماناً ، ثم تعود الى الأمام .

وجاءت الحرب الأخيرة فكانت مناسبة لاكتشاف مرافق جديدة للاقتصاد  
تعدت بما تدفق عليها من نفقات الجيوش المحتلة وأموا المعترين وموارد البلاد  
المتعددة . وعقب تلك الحرب قامت الصناعات الجديدة العديدة في البلدين، وتوسعت  
حقول الزراعة وازدادت حركتها التجارية زيادة بارزة ساعدت على توسع في  
الانشاء وال عمران وسبل المواصلات . كما ساعدت حرية سوريا ولبنان وتحررها  
من سلطان الاجنبي عام ١٩٤٥ على بناء الاسس الثابتة للاستقلال الاقتصادي  
المرغوب بعد اسار دام ربع قرن .

كما ان البلاد العربية الاخرى أخذت في طريق العمران والتقدم والانشاء  
والتطور ، كل منها حسب امكانياته وبيئته وتكوينه الطبيعي . وها اني افصل هذا  
النمو الاقتصادي في كل بلد عربي لأعطي صورة واضحة عن التقدم الذي صارت اليه  
البلاد العربية ، رغم الصعوبات والعقبات التي اعترضتها ، حتى اذا ما انتهت من  
عرض هذه الصورة أتيت على ذكر واجب البلدان العربية في التماسك والتوجيه  
للمصمود في وجه اسرائيل لغايتين اثنتين : سياسية واقتصادية ، وخاصة فيما يتعلق  
بالوطن العربي السليب .

\* \* \*

عندما أتت الحرب الثانية كان هدف الاقتصاد العالمي الاستفادة من جميع  
مصادر البلاد في انتاج السلع وتهيئة السبل الضرورية للسير في الحرب الى النصر ،  
إذ كان هم الدول المحاربة كلها انتاج أقصى ما يمكن انتاجه من المواد الحربية .  
وقد أسفر هذا الهدف العام عن تغييرات شاملة لنشاط الأمم الاقتصادي كافة ومن  
الجملة الأمم العربية . كما ان الحاجة التي رافقت سني الحرب كانت عاملاً لخلق مرافق

انتاج جديدة للعالم العربي . والتغيرات التي طرأت على نظام الانتاج الغربي حولت جهود العمل الى انتاج المواد الحربية فقلت السلع التي يحتاج اليها الجمهور في الأزمان العادية ، وهذا ما ساعد على خلق صناعات حديثة في الشرق العربي . ولما كان من غير المستطاع ان تعود التجارة الخارجية العالمية الى ما كانت عليه قبل الحرب دون ان ترتطم بتلك الحواجز والقيود التي خلقتها الحرب في النظم التجارية للامم ، فقد ساعدت ايضاً هذه الحواجز العالمية على انتعاش موقت للصناعات العربية . كما ان حاجة العالم للانتاج الزراعي من مواد غذائية وأولية للصناعة قد عملت في نشاط الزراعة في البلاد العربية وإحياء موات الارض ، واستثمار مجاري المياه والأقنية ، فكشف الزمن صفحة جديدة في سجل الانتاج الزراعي في هذا الشرق الادنى . ورقى الصناعة والزراعة عاملان اساسيان في نشاط التجارة وحركة العمران والتقدم الاجتماعي ورفع مستوى المعيشة .

### في سوريا ولبنان

تدرجت تجارة لبنان وسوريا الخارجية بالليرات السورية كما يلي :

الصادرات	الواردات	العالم
١٩ ٤٢٥ ٦٩٩	٦٣ ٣٥٧ ٠٥٠	١٩٢٦
١٧ ٣٨٣ ٣٠٠	٤٥ ١٧٦ ١٥٠	١٩٣٣
٢٩ ٢٧٨ ٠٠٠	٧٠ ٨١١ ٠٠٠	١٩٣٨
٤٣ ١٩٥ ٠٠٠	١٣٠ ٦٢٤ ٠٠٠	١٩٤٥
٨٥ ٥٦٤ ٠٠٠	٢٦٠ ٨٦٢ ٠٠٠	١٩٤٦
١١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٥١٧ ٤٦٢ ٠٠٠	١٩٤٩

كما تدرج النقد المتداول في البلدين كما يلي بالليرات السورية وذلك عدا النقد الذهبي المتداول :

العام	لييرة سورية
١٩٢٦	٩ ٧٧٥ ٠٠٠
١٩٣٩	٥٠ ٧٣٦ ٠٠٠
١٩٤٠	٨٣ ٩٥٧ ٠٠٠
١٩٤١	١٠٨ ٥٢٠ ٠٠٠
١٩٤٢	١٩٧ ٧٧٢ ٠٠٠
١٩٤٣	٢٧٩ ٨٧٤ ٠٠٠
١٩٤٤	٣٥٠ ٣٤٦ ٠٠٠
١٩٤٩	٤١٣ ٢٦٢ ٠٠٠

وقدرت الثروة في سوريا ولبنان في عام ١٩١٤ حسبما جاء في تقدير جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية بنحو من خمسة عشر مليون ايرة ذهبية . النصف نقود والآخر بضائع . وفي عام ١٩٤٦ تصاعدت الى (٤٢) مليوناً منها (١٤) نقود ومعادن ثمينة ومثلها اوراق نقد متداول وودائع مصرفية وسندات محلية ، ومنها (١٢) مليوناً سندات اجنبية وأموال في الخارج ومنها (٢) مليون بضائع .

وتدرج استيرادها من الآلات الصناعية المختلفة ، كما يلي بالاطنان وكما ورد في النظام الاقتصادي للاستاذ سعيد حمادة :

العام	الكمية
١٩٢٥	١ ٤٢٠
١٩٣٠	٣ ١٥٩
١٩٣٢	١٩ ٨٦٣
١٩٣٣	٤٤ ١٠٧

وفي ما تلا الحرب الاخيرة اضطرر تضخم أرقام استيراد الآلات الصناعية والزراعية والمحركات . وسجلت سوريا في اعوام ١٩٤٩-١٩٥١ استيراداً للآلة المختلفة منقطع النظير .

ولنأت على ايضاح نمو سوريا ونمو لبنان الاقتصادي منفردين :

## سوريا

يصح ان نرجع الى الماضي لتبين الفارق في الطابع الاقتصادي بين اليوم والامس البعيد . ويذكرني هذا بما كتبه قنصل فرنسا في حلب عام ١٨٥٠ عن ميدان العمل والكسب في الشهاء منذ قرن مضى . حيث يقول ان حياة الأهلين اليومية على نمط واحد اليوم شبيهة بالبارحة . والغد يشبه اليوم . الا عند حلول العيدين وذهاب الحجاج الى مكة ورجوعهم منها . ان اصحاب المين يبدأون بالعمل صباحاً . والذين يعيشون من وارداتهم يقضون اكثر اوقاتهم على مضاجعهم ، والذين ليس لديهم عمل ، أو وارد يقضون ساعاتهم في المقاهي في انتظار فرصة لكسب بضعة قروش لقوت يومهم .

هذا ما كتب عن حلب قبل مائة عام . فلو بعث هذا القنصل حياً وشاهد بام عينه ميادين العمل والانتاج المختلفة اليوم فما تراه يكتب ؟ ان تقرير الكسندر جيب عن سوريا يفيد انه تمكن زيادة الاراضي الزراعية (٩٠) في المائة . وقد باشرت سوريا تدرجاً تحقيق نبوءة الكسندر جيب فتحتي الارض . وها ان زراعة القطن وحركة تصديره تسجل التقدم التالي :

العام	المساحة بالمكتار	الانتاج بالاطنان
١٩٢٣	٨٥٠٠	٢٥٠٠
١٩٤٦	١٩٨٣٧	٤٧٨٤
١٩٤٩	٢٥٢٠٦	١٣٣٢٣
١٩٥٠	٧٧٩٦١	٣٥٠٠٠
١٩٥١	١٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠

ولقد أمكن لسوريا ان تمسح من اراضيها حتى عام ١٩٥٠ ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف من الهكتارات أي (٤٠) في المائة من الاراضي الملحوظ

مسحها . وتقدر مساحة سوريا بثمانية عشر مليون هكتار ، منها (٩) ملايين قابلة للزراعة ، المزروع منها النصف ، ويسقى منها (٩٠) في المائة من مياه الامطار وما تبقى أي (٣٠٠) الف هكتار يسقى بمياه الأنهر والمنايع . وتمثل مشاريع الري في سوريا ما تحقق منها وما هو منوي التحقيق في المشاريع التالية التي وصفها الاستاذ كاظم الجزار بما خلاصته :

١ - ري حمص وحمّاة : وقد روى (٢٢) الف هكتار . ويستمد هذا المشروع مياهه من بحيرة قطينة التي تستطيع خزن (٢٠٠) مليون متر مكعب بواسطة سدّها .

٢ - مشروع ري الخابور : ويروي (٩) آلاف هكتار على الضفة اليسرى من النهر ما بين تل مغاص والحسكة وستنجز اعماله في السنة القادمة .

٣ - مشروع المضخ : الذي يستثمر مياه الفيضان ويمكن ان يتناول هذا المشروع من الاراضي «١٦» الف هكتار .

٤ - مشروع السن : وهو معد لارواء خمسة آلاف هكتار والمأمول ان ينجز في العام القادم . وتفقاته تبلغ (٤) ملايين ليرة سورية وسيقدم المشروع الطاقة الكهربائية لتنوير باناس .

٥ - مشروع الروج : ويتناول إنشاء نفق لتصريف مياه مستنقع الروج الى وادي العاصي ويمكن ان يجبي من الاراضي ويروي مساحة (٣٥٠٠) هكتار عدا استثمار قوى كهربائية بقوة الف كيلوات .

٦ - مشروع المزريب : ويروي ثلاثة آلاف هكتار .

مشروع الغاب : الذي يرمي الى تخفيف مستنقع الغاب وإرواء مساحة (٣٥) الف هكتار والمأمول ان يباشر به قريباً . وقد

نشرت الصحف أخيراً نبأ توقيع اتفاقية مع شركة هولندية لأعداد الدراسات اللازمة لتجفيف المستنقعات في حدود ٨٤٠.٠٠٠.٠٠٠ ليرة سورية كلاف هذه الدراسات.

وهناك مشاريع أخرى صغيرة خاصة على ضفاف العاصي والخابور والفرات قلبت معالم الأرض وحوّلتها إلى جنة خضراء غناء. هذا عدا عن توسع في الأراضي الزراعية البعلية. فقد مشت زراعة القمح بالتقدم كما يلي حسبما بينته نشرات دوائر الإحصاء السورية:

المحصول بالطن	المساحة بالهكتار	العام
	٤٠٥ ٢٥٠	٩٤٠/٩٣٩
	٧٥٠ ١٤٠	٩٤٦/٩٤٥
٤٠٣ ٨٦٢	٨٤٣ ٤٧٢	٩٤٧/٩٤٦
٦٥٦ ٧٢٨	٧٨٨ ١٠٨	٩٤٨/٩٤٧
٨٨٩ ٣٢٢	٧٤٤ ٨٠٢	٩٤٩/٩٤٨
٤٦٤ ٠٠٠	٩٩٢ ٠٠٠	٩٥١/٩٥٠

كما مشت الزراعة السورية بوجه عام بتقدم يذكر. فقد كانت المساحات الزراعية عام ٩٣١ نحواً من (١ ٣٥٠ ٠٠٠) هكتاراً. وفي عام ٩٣٩ نحواً من (١ ٩٠٠ ٠٠٠) هكتار. وبلغت عام ٩٥٠ نحواً من (٢ ٥٠٠ ٠٠٠) هكتار. وتأتى نقص المواسم عام ٩٥١/٩٥٠ بسبب الجفاف النادر المثال الذي حل بسوريا مما ألحق بمراقفها الزراعية نقصاً بالغ الأثر. كما إن دودة القطن ذهبت بنصف الموسم المأمول من الاقطان كما هو معلوم.

وفي النواحي المالية والاجتماعية نرى ان عدد السكان قد ازداد في سوريا

كما يلي:



العـدد	العـام
١ ٨٣٥ ٠٠٠	١٩٣١
٢ ٣٦٧ ٧٣٤	١٩٣٧
٣ ٣٠٣ ٨٥٢	١٩٥١

كما ان موازنة الحكومة السورية قد تدرجت تدرجاً يدل على مبلغ تقدم البلاد :

مبلغ الموازنة بالليرات السورية	عام
١١ ٣٥٢ ٤٢٠	١٩٣٩
هذه الموازنات غير شاملة لموازنة المفوضية العليا للمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان	
١٣ ٦٠٣ ٠٠٠	١٩٤١
٢٢ ٥٠٠ ٠٠٠	١٩٤٢
٣٦ ٦٨٠ ٥٠٠	١٩٤٣
٤٩ ٨٩٥ ٠٠٠	١٩٤٤
١٠٣ ٦٧٨ ٠٠٠	١٩٤٥
١٢٩ ٧٠٤ ٠٠٠	١٩٤٦
١٢٥ ٨٢١ ٠٠٠	١٩٤٧
١٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٩٤٩
٤٨٠ ٧٢٠ ٠٠٠	سنة ٣ / ٩٥٠ / ٩٥٢

وفي ميدان الانشاء والعمران تصف دوائر الاحصاء السورية ان المساحة الاجمالية للبناء في العاصمة السورية بالأمتار المربعة للطوابق قد اتسعت من (٦٠ ٣٠٠) متر عام ١٩٣٩ الى (١٦٥ ٧٥٩) عام ١٩٤٩ . وفي ميدان التربية والتعليم نجد ان عدداً الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية قد ارتفع من (٢٤) من الذكور عام ١٩٢٨ الى (٢٣٦) من الاناث و (٧٨٢) من الذكور عام ١٩٥٠ . وعلى شهادة الدراسة المتوسطة من (٥٥٦) ذكوراً واثناً عام ١٩٤٣ الى (٢٤٠٨) عام ١٩٥٠ . والحاصلين على الشهادة الابتدائية ارتفع من (٦٢٤) ذكوراً واثناً عام ١٩٢٨ الى (١٤ ٩٤٥) عام ١٩٥٠ .

كما نجد ان عدد طلاب الجامعات والمدارس السورية اخيراً بلغ (٢٩٨ ٢٠٦) طالباً وان ميزانية الحكومة للمعارف تبلغ (٣٢ ٢٦٠ ٠٠٠) ليرة سورية او ما يوازي ١٨ بالمئة من الموازنة العامة .

اما من ناحية استثمار القوى المائية لتوليد القوى الكهربائية ، فقد انيرت حمص وحماه بواسطة سد حر بنفسه على العاصي . كما انيرت معظم المدن والقصبات والنواحي في سوريا بمحركات مختلفة . وهناك مشروع لتوليد الطاقة عن طريق سد يقام على نهر الفرات تتراوح طاقته بين (٥٠) الفاً و (٩٠) الف كيلوات تمكن من استعمال الآلات الناضجة لارواء مساحة تقدر بتسماية الف هكتار على ضفتي الفرات . ونرجو ان يكون هذا المشروع قريب التحقيق ان شاء الله .

وإذا رجعنا الى الماضي للقوى الكهربائية لمؤسسة الكهرباء في حلب نجد ان طاقتها الانتاجية العمومية السنوية عام ١٩٣٣ لم تتمد (٤٤٣ و ٣٠٧٢) كيلوات، وفي عام ١٩٣٦ نحواً من (١٩٦ ٩٧٦) كيلوات بينما تراها عام ١٩٥١ نحواً من (٣٦ ٣٦٢ ٩٣٢) .

وتبلغ مجموع القوى الكهربائية العمومية اي غير الخاصة في سوريا عام ١٩٥٠ نحواً من (٨١ ٢٧٩ ٠٠٠) كيلوات .

وفي ناحية الصحة العامة لا نكران في التقدم الذي لقيته الصحة في سوريا ، وهي ما تزال في سبيل النشاط سواء في المدن او الأرياف . إلا انها بحاجة لتقدم أسرع يساير الحاجة والزمن والواجب ، فالصحة العامة في كل بلد عنوان تقدمه ورفاهيته وفلاحه .

وفي وسط العيش نرى ان سوريا قد أعدت على اهلها وسكانها خيرات مختلفة متنوعة تبتناها بلاد كثيرة . وقطرة واحدة الى الاستهلاك في مواد الغذاء والكساء تعطينا الدليل على مستقبل احسن من الماضي لتحقيق أمنية غالية هي التوفيق في محاربة الفقر والجهل وفي احلال العدالة الاجتماعية .

لقد سجلت الاحصائيات عدد الذبجيات من الحيوانات في سوريا عام ١٩٤١ بـ (٦٩٠٠٦٩) رأساً عدا الذبجيات الخفية . بينما بلغت عام ١٩٥١ نحواً من (٦٠٦٢٠٠) رأس . وبهذه المناسبة اذكر ان مجموع تعداد المواشي لعام ١٩٥٢ ، بلغ قرابة ست ملايين رأس ، وقد زادت النسبة حوالي المليون ونصف المليون رأس عن العام الماضي .

أما نشاط سوريا الصناعي فيتمثل بالصناعات التالية المبين انتاجها التقريبي في العام الواحد :

<u>الصناعة</u>	<u>عدد المعامل</u> <u>او الآلات</u>	<u>الانتاج السنوي</u>
الاسمنت	٢	١٥٠ الف طن او تزيد
غزل القطن	٦٥ الف مغزل	١٠ آلاف طن
الفيبران	١٢ = =	
صناعة النسيج الحريري الآلية	٣٥٠٠ نول	٤٥٠٠ - ٥٠٠٠ طن
المحبكات (التريكو تاج)		٤٧٧ الف قطعة
الجرابات		٢٦٤ الف دستة وكانت عام ١٩٣٢ (٤٦) الفاً
المحفوظات الغذائية	٣ معامل	٩٨٤ طناً
الزجاج	١ =	٢٠ الف طناً
السكر من الشمندر والتكرير	١ =	٢٠ = =
شوكولاته وسكاكر ومربيات		٦٦٣١ طناً
معكرونة		١١٠٠ =
زيوت نباتية	١٠ معامل	١٥٠٠٠ طن
صابون		٥٢٢٣ =

١٦٤ مليون دفتر سيطرة

٢٣٨ ٦٠٠ قطعة

= ١٦٤ ٢٢٠

٧٥١ طن

= ٢٠٢٥

ورق السكاير

مناشف وغطية مناخذ وبشا كير

عماءة

السوائل الكحولية

السكاير

عدا صناعات اخرى واقية نذكر في طليعتها مصانع الاقمشة وتحضيرها وطبعها ومعامل البلاط ومحالج الأقطان . وفي حلب وحدها ١٠٩٦ دولاب حلج من نوع بلات و٤٧ دولاباً مشارياً ، كما ان في المحافظة ايضاً ٣٣٤ دولاب حلج بلات متفرقة في الاقضية ، ومقاسر ارز . وللتدليل على نمو سوريا الصناعي اقول ان عدد انوال النسيج الميكانيكي التي كانت موجودة بحلب عام ١٩٣٤ هو (١٣٤) ، بينما انها تحوي اليوم للحريز فقط (٢٥٠٠) نول تقريباً . وكان انتاج حلب من الحريز الاصطناعي ١٩٣٥ نحواً من (١٤٠٠٠٠) الف متر بينما ان انتاجها اليوم يبلغ نحواً من ثمانية عشر مليون متراً تنتجها الانوال الآلية فقط عدا الانوال اليدوية .

ولا نكران ان بعض الصناعات الناشئة لم يقدر لها النجاح المرسوم ، وما ذلك إلا بسبب نقص في الدراسات ، وأخطاء في التقدير ، وصعوبات في التنفيذ ، وعقبات في الاستثمار ، والزمان ككفيل باصلاح الاخطاء بتعاون مشترك بين الحكومة والاهلين ورجال تلك الصناعات العاملين .

أما في الميدان التجاري ، فقد سجل ميزان سوريا التجاري الخارجي لأول مرة في تاريخ البلاد الحديث ، زيادة في الصادرات عن الواردات عام ١٩٥٠ بمبلغ (١٠ ٢٦٦ ٤٥٨) ليرة سورية . ولولا نقص المواسم الزراعية عام ١٩٥١ كما اسلفت لسجلت سوريا ايضاً وفراً ضخماً في ميزانها التجاري بدل النقص الذي اصيب به والبالغ حسب الاحصائيات الجمركية (٢٧ ٨٧٧ ٨٩٠) ليرة سورية . ولكن مع هذا فانه مما لا شك فيه ان ميزان المدفوعات السورية قد نما وازدهر بتوسع

التجارة الخارجية واذكر على سبيل المثال ان التجارة السورية البريطانية قد نمت خلال الاربع سنوات الاخيرة كما يلي :

المبلغ بالليرات الاسترلينية	العام
٢٥٣٠٠٠ جنيه	١٩٤٧
= ٢٩٧٠٠٠	١٩٤٨
= ٩٤٠٠٠٠	١٩٤٩
= ٢٠١٥٠٠٠	١٩٥٠

وفي خلال الربع الاول من عام ١٩٥٢ بلغت الصادرات السورية الى بريطانيا (٢٨٨ ٩٥٢ ٥) جنيهاً يقابلها في مثل المدة لعام ١٩٥١ مبلغ (٢٦٠٥ ٧٧٩) مبلغ جنيهاً وبلغت الصادرات البريطانية الى سوريا في الربع الاول من عام ١٩٥٢ مبلغ (١٣٢٢ ١٤٦) جنيهاً ، وهذا ما يدل على ان هذا الميزان هو لمصلحة التجارة السورية ، كما ان تجارة سوريا مع الولايات المتحدة في التسعة اشهر الاولى لعام ١٩٥١ قد زادت ثلاثة اضعاف تقريباً عما كانت عليه خلال المدة نفسها من عام ١٩٥٠ صادراً ووارداً ، حيث بلغت مستوردات سوريا من اميركا في الاولى نحواً من (١٨ ٠٣٧ ٥٠٧) دولارات، وفي الثانية (٥ ٨٧٢ ٨٢٨) دولاراً ، بينما بلغت الصادرات السورية الى اميركا في الفترة الاولى (٢١ ٠٧٩ ٩٨٢) دولاراً وفي الثانية (٧ ٧٣٨ ٥٥٥) دولاراً. وهذا لأول مرة في تاريخ التجارة الاميركية السورية تزيد فيه الصادرات السورية زيادة تميز فيها باعتراف الدوائر الاميركية ميزة لا تدعيها الا بلدان قليلة تعد على الاصابع . ويقول المراقبون الاقتصاديون ان سوريا آخذة بانتاج سلع وبضائع اكثر للتصدير، ومقابل هذا احتاجت الى بضائع مستوردة اكثر . كما ان الصحف الفرنسية اخيراً نشرت ان صناعات فرنسية كبيرة سيقدم الى سوريا لمباحثة ولاة الأمر في سبيل انشاء مصنع في الشرق للادوات المنزلية والمحركات الكهربائية . ويقول هذا الفرنسي في اجتماع صحفي ان من بين الأسباب التي دعت لاختيار سوريا لتوسع صناعته . ان اقتصادها يؤدي الى جعلها تكفي نفسها بنفسها وبذلك يتسنى لها تحسين احوال سكانها .

وقد نشرت بعض الدوائر الاقتصادية ارقاماً للدخل الفردي لمختلف المهن والفئات كالمزارعين وتجار الماشية والتجار واليد العاملة واصحاب السيارات ووسائل النقل وبيع الاراضي الزراعية والعقارات ورواتب موظفي الدولة وموارد الانشاءات والمقاهي والملاهي والسياحة والترانزيت وغيرها ، فقدرتها بمبلغ (١٢٥٠) مليون ليرة سورية ، وان منها عشرة في المئة ارباح للايدي العاملة . وفي اعتقادي ان هذا الرقم الاساسي مبالغ فيه . وقد استهدف الحكم الحالي في سوريا تنظيمياً جديداً في الحياة القومية والاقتصادية والاجتماعية والضرائب مستوحى من التقدمية التي تضمنها الدستور السوري ، مماشاة لروح العصر ، نرجو ان يكون مواتياً لمصالح البلاد الحقيقية ، وان يسيره دوماً الحرص على تنمية موارد الانتاج والثروة وتنشيط العمل الفردي والجماعي .

### لبنان

يكاد يكون لبنان بين البلاد العربية ، البلد الأول الذي ضرب رقماً قياسياً في التقدم الاجتماعي والعمرائي ، فقد ملك ناصية التجارة كما استثمر ارضه الضيقة خير استثمار ، ولجأ الى حركة التصنيع نبي بوساطتها موارد دخله القومي . وهو بحكم موقعه الطبيعي وما خصه الله من مزايا وما انتشر من بنيه في مشارق الارض ومغاربها يحاول دوماً ان يستبق الزمن . والمطلع على ميزانه التجاري الخارجي يتوجس خيفة من عجزه الظاهر ، ولكنه يطمئن على نظامه الاقتصادي من الواردات الاخرى التي تسد هذا العجز . وقد اثبت ذلك وزير المالية في جلسة مجلسه النيابي في ٢٠ كانون الاول ١٩٥١ ، عندما قال : ان اول ما يسترعي الانتباه في لبنان تزايد نشاطه سنة بعد سنة في جميع مظاهر الحياة العامة والخاصة ، وان هذا البلد الضيق المساحة ، الكثيف السكان ، الشحيح الموارد الطبيعية ، الذي لا توازي صادراته خمس مستورداته يحيا نسبياً حياة هادئة هانئة ، وهو يتقدم في معارج الثروة والفلاح . ولقد اتفق الخبراء من وطنيين واجانب على القول بان لهذا البلد غير منظورة يستقيم معها ميزان حساباته على النحو التالي :

الجانب المدين بالملايين

من الليرات السورية

الجانب الدائن

٩٤	صادرات	٤٠٥	مستوردات من الخارج
٦٥	اعادة التصدير وارباح على	١٧	سياحة ونفقات لبنانية في الخارج
	المستوردات		
٤٩	سياحة واصطياف ومرافق عامة	١٨	هجرة لبنانية وارباح محولة للخارج
			<hr/>
			٤٤٠

٨	السلك الخارجي في لبنان
٥٠	ارساليات المغتربين
٥	أسهم واملاك في الخارج
١	عائدات البترول
٣٩	معمونة دولية الى اللاجئين
٢٥	رساميل اجنبية موظفة
٤٩	مصدرات الذهب والباقي من
	المستورد
٢٠	ارباح تجارة دولية
٣٥	صادرات مختلفة وغير رسمية
	<hr/>
	٤٤٠

وإذا تطلعنا الى نقد لبنان المتداول البالغ في آخر ايلول ١٩٥١ مبلغ (٢١٠) ملايين ليرة لبنانية ، وكان في عام ١٩٣٩ فقط (٢٨ ٩٩٣٠٠٠) ليرة ، نجد ان نسبة تغطيته في ايلول المذكور هي (٤٢,٩٦) في المئة من الذهب و(٧,٠٤) من العملات الاجنبية أي خمسين في المئة ، حسبما ذكرتها منشورات مديرية الاقتصاد اللبنانية .

ويهمنا ان نطلع ايضاً على تدرج الموازنة اللبنانية في الثماني سنوات الاخيرة  
فنجدها كما يلي عدا عن اعتمادات خاصة بلغت في بحر السنين المذكورة  
(١٠٦٧٢٩ ٩٩٢) ليرة .

السنة	مقدار الموازنة بالليرات اللبنانية
١٩٤٤	٣٤ ٠٢٤ ٠٠٠
١٩٤٥	٤٣ ٧٦٤ ٥٠٠
١٩٤٦	٦٠ ٠٤٦ ٠٠٠
١٩٤٧	٥٨ ٩٠٠ ٠٠٠
١٩٤٨	٦٧ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٤٩	٧٥ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥٠	٨٥ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥١	٨٩ ٤٥٠ ٠٠٠

وقد ابتدأت حركة التصنيع عام ١٩٣٠/٩٣١ واستمرت بتقدم حتى عام ١٩٣٩  
وفي عام ١٩٤٤/١٩٤٥ توصلت الصناعات اللبنانية الى انتاج جميع اصناف بضائع  
الاستهلاك الأساسية . وفي اعوام ١٩٤٥/٩٤٩ شهدت المصانع اللبنانية حركة تجديد  
وتجهيز يندر مثلها في تاريخ بلد صغير الرقعة كلبنان . ومن احصاء نشرته مصلحة  
الاحصاء العام اللبنانية يتبين لنا عدد المؤسسات الصناعية عام ١٩٥٠ ومقدار رأس  
المال المستثمر بها ، وهو كما يلي وقد قدر بمبلغ ١٠٠ مليون ليرة لبنانية يعمل بها  
٢٥ الف عامل .

عدد المؤسسات	رأس المال المستثمر
٢٤٩	من ٥ آلاف الى أقل من ١٠ آلاف ليرة لبنانية
٣٨١	» ١٠ » » » » ٢٥ ألفاً
١٦٥	» ٢٥ ألفاً » » » ٥٠ ألفاً



» » الف ١٠٠ » » » » ٥٠ »	١٣٠
» » » ٥٠٠ » » » » ٢٥٠ »	٤٥
» » مليون » » الف ٥٠٠ »	٢٩
» مليون ليرة فما فوق	٢٥

### ليرة لبنانية

٢٤ ٧٥٤ ٠٠٠	ورأس مالها	(٤٠١)	مؤسساتها	وهذه الصناعات هي المأكولات وعدد مؤسساتها
١٠ ٦٥٠ ٠٠٠	»	(١٢٢)	المشروبات	
٣٢ ٥٨٧ ٠٠٠	»	(٦٠)	المنسوجات	
٤ ٥٣٦ ٠٠٠	»	(٦٠)	الجلد عدا الأحذية	
٥٣ ٤١٢ ٠٠٠	»	(٩٧)	مستخرجات المناجم غير معدنية	
٥ ٨٩٩ ٠٠٠	»	(٥٥)	الصناعات الكيماوية	
٧ ٤٣٥ ٠٠٠	»	(٦٠)	المعدنية والكهربائية	

وفي نواحي الحياة العملية والعامية واستثمار المرافق الطبيعية ، نرى ان المشاريع المائية الكهربائية في لبنان مدروسة دراسة عميقة. ويقول الاستاذ جوزيف نجار ان نفقاتها لا تتجاوز (١٤٠) مليون ليرة ، وانه من جراء حصر مياه الامطار على نهر الليطاني في سدين عظيمين يستطيع توليد قوة كهربائية لا تقل عن (١٦٠) الف حصان تروي عشرة آلاف هكتار من اراضي لبنان الجنوبي . ونرى ان رخص البناء الممنوحة في العاصمة اللبنانية عام ١٩٤٥ تتناول مساحة اجمالية قدرها (١٠٧٢٤٦) متراً مربعاً وانها بلغت عام ٩٥٠ مساحة (٢٦٨ ٩٥٣) متراً مربعاً . وسجلت مساح لبنان من الذبجيات عام ١٩٤٠ ما عدده (٣٤٧٣٥٣) . وفي عام ١٩٥٠ لم يكن العدد الا مساوياً تقريباً ، فقد بلغ (٣٤٧٨٣٢) مما يدل على سير العيش في البلد الشقيق على نمط واحد .

وفي الناحية الزراعية ، مشى لبنان في استثمار جروده وجباله بخطى ثير الاعجاب . فهو منتج للفواكه والخضار المختلفة وبعض اصناف الحبوب ، مما لا مجال للتوسع في بيانه .

مصر

ان تدرج عدد سكان القطر المصري يني عن سيره في مدارج التقدم القومي والاقتصادي . وهذه الأرقام تسفر عن تلك المدارج بوضوح :

عدد السكان	العام
٦٨٠٤٠٢١	١٨٨٢
٩٧٣٤٠٠٠	١٩٠٠
١٢٧٥٠٩١٨	١٩١٧
١٤١٦٨٧٥٦	١٩٢٧
١٦٤١٥٠٠٠	١٩٣٨
٢٠٠٠٠٠٠٠ تقريباً	١٩٥٠

كما ان ميزانية الحكومة المصرية قد نمت وعظمت في غضون أربعة عشر عاماً نمواً يذكر ، والجدول التالي يوضح لنا هذا النمو المضطرد :

المصروفات	الإيرادات	السنة
٤٧٨٨٩٠٠٠	٤٤٢٠٧٠٠٠	٩٣٩ - ٩٣٨
٥٦٥٥٣٠٠٠	٦٧١٤١٠٠٠	٩٤٣ - ٩٤٢
٨٢٠٩٧٠٠٠	٨٧٧٣١٠٠٠	٩٤٥ - ٩٤٤
١٠٢٤٩١٠٠٠	١١٢٧٩٣٠٠٠	٩٤٧ - ٩٤٦
١٦٣٨٠٩٠٠٠	١٧٣٥٩٣٠٠٠	٩٥٠ - ٩٤٩
٢١٢٠٠٠٠٠٠	٢٣١١٠٠٠٠٠	٩٥٢ - ٩٥١

والنقود المتداولة في مصر ما عدا حساب الودائع والعملية المعاونة ازدادت كما يلي كما وردت في نشرات البنك الأهلي الاقتصادية القيمة التي استمد منها كثير من الأرقام :

السنة	بنكفوت مصري
١٩٣٣	١٨ ٤٧٢ ٠٠٠
١٩٤٧	١٤١ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥٠	١٨٩ ٠٠٠ ٠٠٠
١٩٥١	٢٠١ ٠٠٠ ٠٠٠
	وتغطيته من الذهب هي ٦٠ ٥٥٢ ٦٠٦ جنيهات

وتجارة مصر الخارجية سجلت في الأعوام الأخيرة الأرقام التالية في الواردات والصادرات :

الصادرات	الواردات	السنة
بالجنيه المصري		
٣١ ٦٧٢ ٠٦٥	٢٧ ٨٦٥ ١٩٥	١٩١٣
٥٩ ١٩٩ ٠٠٠	٥٨ ٢٢٥ ٠٠٠	١٩٢٥
٢٨ ٠٧٣ ٦٣٠	٣١ ٥٢٨ ١٦٧	١٩٣٢
٤١ ٦٣٠ ٠٠٠	٦٠ ٤٧٥ ٨٠٠	١٩٤٥
١٧٢ ٩٥٩ ٠١١	٢١٢ ٦٨٢ ٢٠٦	١٩٥٠
١٩٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٤٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١٩٥١

أي ان هناك من العجز في العام الأخير نحواً من (٤٨) مليون جنيهه . ولكنه من الثابت ان تجارة مصر الخارجية نمت حتى اصبحت نحو أربعة أمثال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأخيرة .

ولا يتسع المجال لتبيان نشاط مصر الزراعي ، فذلك معروف ، ومصر هي اولى وأقدم البلاد العربية في الناحية الزراعية . وتقدر الاراضي الزراعية المزروعة فيها عام ٩٤٩ نحو (٦٩٤٨ ١٣٤) فداناً والفدان ٤ ٢٠١ متراً مربعاً . وكانت عام ٩٣٩ (٥ ٨٢٢ ٠٠٠) فدان وعام ٩٢٦ كانت (٣ ٨٨٢ ٣٧٠) فداناً . وقدر

الدخل الزراعي عام ١٩٤٥/١٩٤٦ بنحو (١٤٩ ٢٣١ ٠٦٣) جنهما . وقدر انتاج القطن من الاقطان عام ١٩٤٩ بـ (٨ ١٩٦ ٠٠٠) قنطار . وعام ١٩٥٠ بمائة ملايين و (٢٢٠) الف قنطار مصري (مائة ليبرة) او ٤٤٩ كيلو . وعام ١٩٥١ نقص الموسم ٨٠٠ الف قنطار عن ذلك برغم عدم زرع المساحات المزروعة . وحيث ان لزراعة الأرز في مصر كل الشأن فاني اذكر متوسط الانتاج والصادر في غضون ثلاثين عاماً . معتمداً على نشرة البنك الاهلي المصري ونشرات غرف التجارة المصرية في الاسكندرية والقاهرة :

السنة	انتاج من شعير الارز بالاردب	قيمة الصادر من الأرز بالجنيه
متوسط اعوام ١٩٢٠/١٩٢٤	٢٣٢ ٠٠٠	٣٥١ ٢٧٠
» » ١٩٢٥/١٩٢٩	٣٧٦ ٠٠٠	٥٢١ ٣٢٦
» » ١٩٣٥/١٩٣٩	٧٢٤ ٠٠٠	١٠٠٢٦ ٨٢٤
» » ١٩٤٥	٩١٧ ٠٠٠	٤٠٥٦ ٤٦٩
» » ١٩٤٧	١٣٥١ ٠٠٠	٦١١٣ ١١٣
» » ١٩٤٨	١٣٨٤ ٠٠٠	١٦٠٦٣ ٦٣٠
» » ١٩٥٠		٠٧٣٦٠ ٠٠٠

واذا أردنا التطلع الى النواحي الاخرى الاجتماعية والاقتصادية والضرائبية في مصر ، نجد انه لم يكن لها حق في جباية الضرائب من كافة سكانها حتى عام ١٩٣٨ حيث وضعت التشريعات الضرائبية الاولى . وعندما مشت مصر في طريق التصنيع ، أوجدت لنفسها مرفقاً ثانياً هاماً كثير المنافع ، زاد دخله على دخل الزراعة وقد قدرت الرساميل الصناعية عام ١٩٤٨ بمبلغ (١٧١ ٩٠٨ ٦٩) جنهما مصرياً ، وبلغت قيمة المنتجات عموماً (٢٠٨ ٧٧٢ ٤٤٣) جنهما . فصناعة الغزل برزت بقوة عام ١٩٣٧ وسارت في سبيل الارتقاء فبلغت عام ١٩٤٦ قرابة (٣٣٠) الف مغزل ، وفي عام ١٩٥٠ نصف مايون ، مجموع انتاجها من الغزل (٤٩) الف

طن تصدر منها للخارج (٢٦٣ ٥) ويستهلك الباقي في الصناعات المحلية التي تحوي من الانوال اليدوية خمسين الف نول . ومن الانوال الميكانيكية (١٥٨٠٠) . وكان عدد الاولى عام ١٩٤٩ أربعة وثلاثين الف فقط . وبواسطة حركة هذه الانوال أمكن لمصر أن تقل من الوارد الاجنبي من الغزل والاقشة القطنية تدريجياً حتى أصبح الاستيراد هيناً كما يأتي :

الواردات بالاطنان	العام
٣١٢٠٠	٩١٤ - ٩١٠
٣٥٤٠٠	٩٢٤ - ٩٢٠
٢٧٢٠٠	٩٣٤ - ٩٣٠
٢١٣٠٠	٩٣٩ - ٩٣٥
٤٥٠٠	٩٤٦ - ٩٥٠

أي ان وارد النسيج الى مصر انخفض من (٥٠) مليون ياردة عام ١٩٣٨ الى مليونين ونصف فقط عام ١٩٥٠ . ولقد قدر رأسمال صناعة المنسوجات القطنية أخيراً بخمسة وعشرين مليون جنيهه . وقد بلغ استهلاك مصانع الغزل من القطن المصري ما يلي :

مقدار الاستهلاك بالقنطار المصري	السنة
٢٠٤٠٠٠	١٩٠٤ - ١٩٠٠
٥٤٤٠٠٠	١٩١٩ - ١٩١٥
١٧٦٨٠٠٠	١٩٣٤ - ١٩٣٠
٥١٣٤٠٠٠	١٩٣٩ - ١٩٣٥
٨٦٨٠٠٠٠	١٩٤٤ - ١٩٤٠
١١٧١٠٠٠٠	١٩٤٩ - ١٩٤٥

وإذا استعرضنا تدرج استيراد آلات النسيج بمصر منذ عام ١٩٤٠ لوجدناه  
١١٦٨ طناً ، ١٧٨٣ عام ٩٤٢ و ١٣ ٨٨٧ عام ١٩٤٧ و ١٧٩٦٠ طناً عام ٩٤٨ .  
وبلغ الانتاج المحلي من المنسوجات الحريرية عام ٩٤٩ نحواً من (١٨ ٤٢٧ ٩٠٣) متراً .

ومن الصناعات المذكورة في مصر صناعة السكر المستخرج من قصب  
السكر . وساعدت هذه الصناعة المحلية ايضاً على زيادة الاستهلاك الذي كان عام  
٩٤٦/٩٤٥ نحواً من (١٥٨) الف طن والانتاج المحلي (١٦٧) الف طن ، فارتفع  
عام ٩٥٠/٩٤٩ الى (٢٦٢ ٧٨٥) طناً استهلاكاً و (١٨٥) الف طن انتاجاً .

ثم صناعة استخراج الزيوت النباتية التي ارتفعت من عصير مليوني اردب  
من البذرة (الاردب ٢٧٠ ك) قبل الحرب الاخيرة الى خمسة ملايين عام ٩٤٩ .  
وفي مقدور المعاصر المصرية انتاج عصير سبعة ملايين اردب من بذرة القطن .

ثم صناعة حلج الاقطان وهي من أقدم الصناعات المصرية وتحوي (١١٦)  
محلجاً تضم نيفاً وستة آلاف اردب دولاب حلج ، تحلج زيادة عن ثمانية ملايين  
قنطار مصري أو نحواً من (٣٧٢) ماثمه (١٤٩ ٧٥٦ ٠٠٠) جنيه مصري . ومن  
الغزول ماثمه (٢ ٣٤٢ ٠٠٠) جنيه . وهذان الصادران يشكلان (٨٦،٧) بالمئة  
من مجموع صادرات مصر البالغة (١٧٣) مليون جنيه .

وصناعة الاسمنت وبلغ انتاجها عام ٩٤٩ ما زنته (٨٨٠) الف طن ، وصناعة  
الاسمدة ، وقد انشئ مصنع للاسمدة الآزوتية في السويس وقدرته الانتاجية (٢٠٠)  
الف طن في السنة . كما بلغ انتاج سماد سوبر فوسفات الجير سنة (١٩٥٠) نحواً من  
(٦٩٣) الف طن ، وينتظر انشاء مصنع آخر للاسمدة الكيماوية بعد كهربية خزان  
اسوان لانتاج (٤٣٥) الف طن . وصناعة انتاج البترول وقد ارتفعت من (١٧١)  
الف طن عام ٩٣٧ الى اربعة ملايين طن عام ٩٤٩ . وصناعة المستحضرات  
الصيدلانية وقد بلغ انتاجها عام ٩٤٩ عشرة أمثال ما كان عليه عام ٩٢٩ . وصناعة  
المحفوظات التي بلغت قدرتها الانتاجية ثلاثة آلاف طن من عصير البندورة وخمسة  
آلاف طن من الخضر والفواكه ، وستة آلاف من البصل المجفف والثوم والفين

من اللحوم ، وللدلالة على تقدم صناعة الملبات في مصر اقول ان وارد البندورة المحفوظة الذي كان عام ١٩٣٨ نحواً من (٤٣٦ ٥٠٧) كيلوات قد تنازل عام ١٩٤٨ الى (٥٤ ٤٠٦) كيلوات فقط بسبب قيام الصناعات المحلية .

واذا استعرضنا القوى الكهربائية العامة في القاهرة والاسكندرية لوجدناها في الاولى ( ادارة الغاز والكهرباء ) عام ١٩٣٩ بمقدار (٤٨ ٩٢٤ ٩٩٧) كيلوات . وقد ارتفعت عام ١٩٥٠ الى (١٤٤ ٤٧٧ ٤٣٠) كيلوات . ونجدها في الثانية (شركة ليون) (٢٦ ٩٩٤ ٠٠٠) عام ١٩٣٩ وقد ارتفعت عام ١٩٥٠ الى (١٤٩ ٩٤٠ ٨٦١) كيلوات . كما نجد ان المصانع التي ليس لديها قوى خاصة محرك في القاهرة والاسكندرية قد ارتفع استهلاكها من (٦٦ ٦٣٥ ٧١٥) كيلوات عام ١٩٣٩ الى (٢١٦ ٠٧٠ ٥١٣) عام ١٩٥٠ .

وهذه الارقام مأخوذة عن مجلة الغرفة التجارية المصرية بالاسكندرية ويعتبر مشروع كهربة خزان اسوان اعظم مشروع صناعي حكومي في مصر ، وسيوفر للمصريين عند الانتهاء منه الاستفادة من (١٥٠٠) مليون كيلوات من الكهرباء سنوياً وستساعد هذه القوة الكهربائية على انتاج (٤٠٠) الف طن من السماد الكيماوي ، و(٩٢ ٠٠٠) طن من الفولاذ ويستخدم ما تبقى من هذه القوة في مشاريع الري والمواصلات ووجوه التوسع الاقتصادي الاخرى .

## العراق

يحاول العراق إحياء ماضيه الاقتصادي الزاهر ، يوم كان ما بين النهرين أهراء العالم القديم المعروف . وتضاعف سكانه اليوم عما كان عليه عام ١٩١٩ يدلنا دلالة صريحة على مبلغ نمو اقتصادياته .

واما تدرج ازدياد السكان فتدل عليه الارقام التالية :

نسمة	إحصاء عام
٢ ٨٤٩ ٢٧٢	١٩١٩
٣ ٢١٤ ١٧٣	١٩٣٥
٤ ٥٠٠ ٠٠٠	١٩٣٨
٥ ٥٠٠ ٠٠٠	١٩٤٩

كما ان تجارته الخارجية كما جاء في أبحاث مجلة غرفة تجارة بغداد القيمة تدرجت في مزار التقدم ، حيث بلغت عام ٩٢٠ اربعة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩١٢ . وفي عام ١٩٢٥-١٩٢٦ بلغت قيمة البضاعة المصدرة من الانتاج المحلي (٣ ٧٧٢ ٠٣٤) ديناراً . وفي عام ٩٤٢-٩٤٣ بلغت (٤ ٤٧٩ ٨٧١) وفي عام ٩٤٨ (١٠ ٠٠٠ ٠٠٠) دينار . بينما بلغت قيمة البضائع المستوردة في الاعوام المذكورة (٧ ٤٩٤ ٦٩٧) و(١٢ ١٢١ ٧٠٥) و(٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠) دينار . ومن أهم صادراته التمور التي زادت اخيراً على (١٠٠) الف طن ، والحبوب على اختلافها والجلود وكذلك الاقطان والصوف وقد بلغ انتاجه عام ٩٥١ نحواً من (١٣ ٦٠٨) اطنان يقابلها في سوريا (٦٨٠٤) . وفي مصر (٢٩٩٣) . وهذا ما يدل على الثروة الحيوانية التي يملكها العراق ومنها الاغنام في الدرجة الاولى ، حيث تعد عشرة ملايين رأس ، والماعز وتعد ٢٥٥ مليون رأس . وقد تدرج تصدير العراق من النوعين من (١٠٦ ٤١٢) رأساً عام ١٩٤٥ الى (١٤٦ ٣٢٤) رأساً عام ١٩٥١ عدا التصدير الخفي .

والعراق كما نعلم غني بإمكانياته الزراعية ، وتقدر مساحة الاراضي التي يمكن إروائها عند إكمال توسيعات الري بأكثر من (١٤) مليوناً (٨) مشاركة ( والمشاركة نحو من خمسة أفدنة ) من أصل (٤٨) مليون صالحة للزراعة يزرع منها الآن قرابة عشرة ملايين مشاركة . وقد زادت مساحة الاراضي الزراعية في العراق بمعدل (٢٠٠) الف مشاركة سنوياً خلال ربع القرن الماضي . ومن السدود للارواء في العراق سد الكوت الذي يؤمن إسقاء اراض تزيد مساحتها على (٧٠٠) الف مشاركة كانت سابقاً مهددة بالقحط . كما ان انجاز بقية الاقنية المكتملة لهذا المشروع



ستحيي (١٢٠٠٠٠٠) مشاركة وبالاجمال فان مشاريع الري سيحقق إرواء ثمانية ملايين هكتار وهي اليوم لا تتجاوز (٣٤٠٠٠٠٠) هكتار .

ولقد خطا العراق خطوة ثابتة في بناءه الصناعي قبيل الحرب الثانية ، على اثر تأسيس المصرف الزراعي الصناعي وإقدام بعض الممولين العراقيين على تأسيس الشركات الخاصة والعامة . ومن هذه الشركات شركة الاسمنت العراقية وشركات محالج الاقطن وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة الصابون . وكان الفضل الاول للمغفور له فيصل الاول في تشجيعه للانشاء الصناعي من قبل في عام ١٩٢٩ / ٩٣٠ حيث تأسست في عهده شركة تجارة وحلج الاقطن العراقية المحدودة ، كما تأسس معمل للنسيج الصوفي ، ومعامل عديدة للسكر والدباغات في الكاظمة والاعظمية ومعامل الآجر . واتبعت وسائل حديثة لترقية صناعة التمر والجلود ، كما قام العراق منذ عام ٩٣٥ بتأسيس صناعة النسيج الحريري ، حيث تنتشر مع الايام وتوفر عليه مالا كثيراً .

وتحوي شركة الغزل والنسيج في العراق التي تأسست عقب الحرب الثانية (١٥) الف مغزل و(٢٨٤) نولاً حيث تسد حاجته من الغزل . ولهذا فقد منع استيرادها منذ عام ٩٤٩ ، وكان يستورد قبل ذلك سنوياً نحو ١١ من أربعة آلاف بالة معدل قيمتها نصف مليون دينار .

ويستعد هذا المعمل لتبلغ مغازله (٢٢٠٠٠) مغزلاً و(٥٠٠) نول وهذا تمكن الشركة المشار اليها من انتاج (١٥) مليون ياردة من الأقمشة أو نحواً من (٦٠-٧٠) بالمئة من الاستيراد السنوي .

وقد كان في العراق عام ١٩٤٨ نحواً من (٥٧) مشروعاً صناعياً رأس مالها (٤٥٠٠٠٠٠) دينار فارتفعت مشاريعه عام ٩٥٠ الى أكثر من ثمانين مشروعاً ، وبلغ عدد عملها (٤٨٢٩٦) عاملاً منهم (١٣١٣٣) يشتغلون في صناعة النفط و(٨٠٦٤) في المؤسسات الحكومية .

ويقوم العراق الآن بتشبيد مصفى للبترول على بعد (١٥) كيلومتراً من بغداد يتسع الى مليون طن . وقد رست مناقضة تشبيده على شركة امريكية وقد حصل بموجب اتفاهه الأخير مع شركات النفط على ما يحتاج اليه من نفض خام بسعر قدره خمسة شلنات ونصف أي بسعر الكلفة في حين ان سعره (١٢٠) شلناً في البحر الابيض .

وفي حقل التحري عن المعادن ، تقوم تحريات عن مادة الكبريت في بعض الأماكن . وتبلغ ميزانية الحكومة العراقية لعام ١٩٥٢ الحالي (٤٤١ ٤٩ ٣٣٠) ديناراً للنفقات و (٣٦ ١٢٦ ٠٠٠) دينار للواردات .

وتبلغ ميزانية الحكومة العراقية لعام ١٩٥٢ نحواً من (٤٤١ ٤٩ ٣٣٠) ديناراً للنفقات و (٣٦ ١٢٦ ٠٠٠) للواردات . أي بوفر يبلغ (٣ ٠٧٦ ٥٥٩) ديناراً .

ولقد نشر البنك الدولي للانشاء والتعمير في نيويورك نص التوصيات التي وضعتها بعثة البنك التي زارت العراق في شباط ١٩٥١ ومنها يدرك ان للعراق امكانيات عظيمة تؤهله للتقدم الاقتصادي ، فوفرة أمهاره كافية لري تربته الغنية . وان النمو السريع في انتاج النفط لا يزيد دخل البلاد فحسب ، بل يساعد في الحصول على القوى والمواد الخام اللازمة لتقدم الصناعة والزراعة ووسائل النقل ، وان عدد سكانه قليل بالنسبة الى موارده وان السبب في انخفاض مستوى المعيشة هو قلة الانتاج ، على ان ذلك لا يمنع من القول ان العراق على عتبة ازدهار عظيم سيشرق نوره قريباً .

ففي سنة ١٩٥٦ سيرتفع دخل النفط الى (٥٩) مليون دينار سنوياً ، والى مجموع صاف يبلغ ٢١٤ مليون دينار عراقي في السنوات الخمس المقبلة . وانه بالنسبة الى كون ستين بالمئة من السكان يعتمدون بالزراعة ، وكون الصناعة والتجارة تعتمدان على الفلاحة والزراعة ، فان الاهتمام يوجه الى تحسين الزراعة .

وان البعثة تجبذ توزيع اراضي الدولة على الفلاحين الذين لا ارض لهم ،

وترتأي ان يدرس نظام التملك للارض أحد الخبراء ، كما توصي اللجنة بالتوسع الصناعي ، وفي المقدمة تأسيس مصنع كيمياوي قرب كركوك لانتاج نصف مليون طن من سماد كبريت النشادر و(١٠٠) الف طن من الكبريت العنصري ، و «١٠» آلاف طن من الكربون الأسود الناعم و (٣٠٠) الف طن من الاسمنت . كما توصي بتوفير الثقافة للشعب ووقايته من الامراض ، وان نفقات برنامج الاعمار هذه تقدر بـ (١٦٨) مليون دينار لسنتين (١٩٥٣-١٩٥٧) .

وبغداد التي كانت قبل ربع قرن مدينة تغزوها رمال الصحراء تحوي الآن اكثر من مئة حديقة عامة . وبلغ عدد الاشجار المغروسة في شوارعها (٥٣٩٥٢) شجرة . وبلغ عدد سكانها مليون نسمة ، وتحوي (١٥) معملاً للبلاط و (٢١) للثلج و (٢٨) للدقيق و (٨٨) للحلويات و (١٠٨) للنجارة و «٣٤» للنسيج و (٦٩) مطبعة و (٥) للحليب و (٣) للزجاج ، ويبلغ استهلاك السكان للماء في الصيف «١٢» مليون غالون في اليوم الواحد .

### الاردن وفلسطين

ليس الكلام عن فلسطين بمجد الآن ، ولكنني اتكلم عن الاردن فأقول ان حضرته عمان ضربت رقماً قياسياً عالمياً في الانشاء والارتقاء ، فقد انتقلت من قرية كبيرة الى بلد يزخر بكل معالم التقدم . والاردن تمشي في التجارة حسبما تساعد امكانياتها وموقعها الجغرافي بين فلسطين وسوريا . وتميز تجارتها بوفرة الاستيراد إذ بلغت قيمته عام ٩٤٨ نحواً من (١٠٦٠٤٠٠٠) دينار . وعام ٩٤٩ نحواً من (١٢٧٥٧٠٠٠) دينار . وعام ١٩٥٠ نحواً من (١٠٧٦٦٠٠٠) دينار . بينما لم تبلغ الصادرات الاردنية سوى (٧٢٨) الف دينار عام ٩٤٨ و (١٠٥٣٠٠٠) عام ٩٤٩ و (١٥٧٣٠٠٠) عام ٩٥٠ . ومعظم هذه الصادرات هي من الحاصلات الرئيسية والمواد الطبيعية الخلم ، وتصدر غالباً الى سوريا ولبنان .

وفي الميدان الصناعي أخذت الاردن بأسباب الصناعة الحديثة ، فهي تنشى اليوم معملاً للاستمنت ينتج (٢٠٠) طن يومياً . كما تحاول ان تنشى شركة مساهمة لغزل القطن ونسجه . وقد منحت الحكومة الاردنية الهاشمية كلاً من المشروعين امتياز حصر درء الأخطار المزاحمة في بلد صغير ناشئ . وارتقت فيه صناعة الطحن . وفي عمان وحدها ثلاث مطاحن كبرى .

وأما في الميدان الزراعي ، فالاردن منتجة للحبوب والمعروف عن ارضها ان زيادة وسائل الري فيها ممكنة فضلاً عن بقاء كميات عظيمة من مياه الفيضان يمكن استغلالها أحسن استغلال للزراعة والتوسع في الاراضي الزراعية . كما أن جبالها ووادها قابلة كثيراً للتجريح ، وقد كانت عامرة أيام الرومان و أيام الحكم العربي .

### الجزيرة العربية

يصعب على المدقق تصوير حقيقة التطور الذي صارت اليه حال الجزيرة العربية في مدى السنوات العشر الاخيرة « من البحر الأحمر الى الخليج الفارسي ومن صحراء الشام الى المحيط الهندي » . فهذا شرقي الجزيرة العربية تتحول صحاريه من مهجورة الى مطروقة ومعمورة تجتازها السيارات والسبل والسكك الحديدية ، وهذه مدن حديثة بنيت على ارضها في مدى أربع سنوات ، الظهران ورأس تنورة والعقيق ورأس المشعاب وكل منها آتية في الاتقان والكمال .

والعدوى : كما يقول صاحب جريدة الحياة في وصف رحلته الأخيرة ، تنتقل منها الى الدساكر العربية من بدوية وحضرية فتأخذ بدورها في التحول من اكوام هزيلة من بيوت اللبن والمضارب الى مدن حديثة . وهكذا اصبحت اليوم الدمام والخبر والقطيف والهفوف وغيرها نواة مدن حديثة .. والله يرحمكم ايها الفيلسوف العربي امين الريحاني اذ سجل كتابك ملوك العرب حالة الصحراء في

الامس البعيد عام ١٩٢٢ عندما قطعها على ظهور الابل، وأقيمت تحت خيامها تضيق  
الحمى ولا تجد لك طبيباً مداوياً. ما أظهر البون الشاسع بين ماضي هذه البلاد  
وحاضرها.

في العام الماضي كانت حصة المملكة السعودية من واردات البترول (٢٠٠)  
مليون دولار. وهذه الاموال مع ما تولده من ثروة صناعية وتجارية واجتماعية  
تساعد على تطور الحياة في الجزيرة، مهما ضاع منها من حق عام. وها ان عاهل  
الجزيرة العربية يعمل لانشاء خط حديدي يصل عاصمة الرياض - بعد ان وصلت في  
بحر الخليج الفارسي - بالمدينة المنورة لخدمة على البحر الاحمر، وطوله (١٢٠٠)  
كيلومتر.

واذا ذكر انتاج البترول العربي فيجب ان نذكر باختصار الانتاج الاخير  
عام ٩٥١ فقد انتجت المملكة السعودية (٣٨) مليون طن، والكويت (٢٩) مليوناً  
والعراق ثمانية ملايين وتتخذ شركة النفط العراقية عدتها لمضاعفة انتاجها الى (١٥)  
مليوناً. وقطر و انتاجها مليونان، والبحرين و انتاجها مليون ونصف من الاطنان.  
وقد بلغ مجموع الانتاج العام ٩٧ مليوناً ونصفاً، ولو استفاد العرب لواجههم الكامل  
لفعلوا العجائب بهذا الانتاج الضخم ليكونوا اعزاء الجانب أمام الجميع.

ان الزائر لخدمة ميناء الحجاز يسجل للمدينة تقدماً بيناً، فالعمران يتقدم  
ويضطرد والكهرباء تعم المدينة ومياه وادي فاطمة تعم وتوزع على الاهلين بعد ان  
كانوا يشربون ماء البحر المقطر والصحة آخذة ايضاً كالمعارف بأسباب التقدم. كما  
ان مكة المكرمة سيصبح لها قريباً محطة كهربائية حيث تولت احدى الشركات  
مهمة انشائها بمقاولة بلغت اكلافها (٢٥٠) الف ليرة استرايكية، وقد وقعت الحكومة  
السعودية اخيراً أربع اتفاقيات للمساعدات الفنية تلخص باقامة مصنع سماد لتحويل  
الغاز الطبيعي في حقول الزيت الى سماد وانشاء معهد زراعي ومحطة تجارب في وادي  
حيزان ومشروع لتحسين موارد المياه والاراضي بوادي حيزان وتحسين موارد  
الاسماك في البحر الاحمر لتحسين ضالة صيد السمك. وستقوم الحكومة السعودية

بموجب هذه الاتفاقيات بتحويل هذه المشاريع. ونشرت الصحف أخيراً نبأ اكتشاف  
مناجم غنية بالحديد والكبريت في المناطق الشمالية الغربية .

وانا لا انكر ان الجزيرة بحاجة ماسة لعدالة اجتماعية ومحاربة للفقر والجهل  
ليكون هذا التقدم جامعاً شاملاً ولكنني أميل الى التفاؤل فأرجو ان يكفل  
الزمن ونمو موارد البلاد الطبيعية الاصلاح المنشود الواجب .

ويحدثنا زوار الكويت عن الاصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها اميرها  
حيث ينفق نصف دخله من البترول على البلاد ، كانشاء المستشفيات والمعاهد العلمية  
والاجتماعية والمرافق العامة ، فيفرح كل مخلص لتقدم الجزيرة وللشعور بالواجب  
العام الذي يجب ان يتحلى به كل حاكم عربي لرفع مستوى الامة العربية ولاحلالها  
المحل اللائق بها بين الامم ، وقد تخلصت من الجهالة والفاقة ومشت في قافلة الامم  
الحية والتطور ، واستفادت من وجود العنصر الاساسي الحيوي في الجزيرة وهو  
البترول الذي كان يمكن ان يكون سلاحاً صارماً يحول دون كارثة فلسطين لم  
شهره وعجزت عن الافادة من وجوده ، فعسى ان يقدر لها المستقبل ان تقيده  
ايجابياً فتنفق وارداته في تقوية العرب واستعادة ما فقده من ارض وكرامة .

٤

## القسم الثاني

### موقف العرب اقتصادياً من إسرائيل

تعمل إسرائيل في البقعة التي غزتها من بلاد العرب ، على زيادة عدد سكانها بالرغم من ان مساحة فلسطين لا يمكنها ان تستوعب غير مليوني نسمة ، الا اذا أمكن تحقيق هذه الزيادة على حساب مساحات اخرى تضم من الدول المجاورة . وإسرائيل تنوي ان يصعد رقم سكانها الى ( ٣ ) ملايين نسمة في آخر عام ١٩٥٣ وفيها اليوم مليون ونصف . والى خمسة ملايين عام ١٩٥٧ والى ستة ملايين عام ١٩٦٠ . وهي تسخر العقل والعلم والمعرفة والمال لتنفيذ برنامجها السياسي والاقتصادي وفي سبيل ذلك فهي تطمع في القبض على ناصية اقتصاديات البلاد العربية الغزيرة والمواد لتقويم دعائم إسرائيل لأنها لن تتمكن بموارد الارض التي احتلتها وحدها ، وهي محدودة ، من تنفيذ برنامجها الصناعي للاستيلاء على اسواق الشرق الأوسط الا بالاستعانة بأسواقه والاستيلاء عليها بتأثير نقص المال لديه والخبرة الفنية ولهذا كان من أهم أغراض إسرائيل القضاء على النهضة الصناعية في البلاد العربية وإضعاف اقتصادياتها وغرضها الأول ان تكون فلسطين اليهودية البلاد الصناعية الوحيدة المنتجة في هذا الشرق ، وان تبقى البلاد العربية بلاداً زراعية فقط لتؤمن إسرائيل بما يلزمها من مواد غذائية .

وهذا الهدف قديم عند الصهيونية ، فقد نشرت الكومرس دولوفان في عام ١٩٣٥ مقتطفات من خطاب الدكتور وايزمن رئيس جمهورية إسرائيل اليوم عن الصناعة في فلسطين جاء فيها قوله عن التوسع الصناعي فيها ، ان معرفة الاسواق المجاورة وتنظيم العمل والمقدرة على المنافسة من أول شروط رقي الصناعة ، وانه يجب ان يحسب حساب لمنافسة سوريا حيث شروط توسع الصناعة فيها أوفق منها في فلسطين وأهمها رخص اجور اليد العاملة .

ان اسرائيل والدوائر الصهيونية ، في سبيل إدراك غايتها المشار اليها ، تبذل نشاطاً منقطع النظير للحصول على الاموال . ليس فقط في سبيل إنقاذ اسرائيل من أزمة التضخم الخائفة التي صارت اليها بل لمساعدة الانشاء الصناعي . وهي لهذا تمعد القروض وتستجدي العالم وخاصة امريكا للحصول على المال ، وتعمل المستحيل لتحقيق برامجها الانشائية الزراعية والصناعية . فقد نشرت الصحف في ٤ نيسان ٩٥٢ ان اميركا سمحت بصرف مبلغ آخر لمساعدة اسرائيل بمقدار (١٢) مليون دولار . كما اذاع راديو اميركا أخيراً نبأ إقرار قرض جديد لاسرائيل قدره ٢٠ مليون . كما اعلن قبلاً ان اتفاقاً ابرم بين الوكالة اليهودية ومندوبين عن اصحاب رؤوس الاموال في اسوج للحصول على قرض بمشرة ملايين دولار خلال خمس سنوات على ان يخصص لشراء معدات زراعية .

وهذه غولدا ماركسون وزيرة العمل الاسرائيلية التي تقوم بحملة لتشجيع جباية الاموال لمساعدة اسرائيل في امريكا تخطب في ٢٨ آذار الماضي وتقول : « ان اسرائيل لن تستطيع تحقيق استقلالها الاقتصادي الا بعد مدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ، وان المصانع الاسرائيلية تصدر الى اوروبا سيارات وسلعاً ومواد اخرى ، وان هضاباً وارااضي وصفت في الماضي بأنها غير صالحة للزراعة ولا تستحق أية نفقة أو جهد لحياتها ، قد انتعشت الآن في اسرائيل وتحولت الى مناطق زراعية تعطي محصولاً لا يستهان به » . انتهى

والحقيقة ان اسرائيل تحاول استخدام قوى الانسان الكاملة لاستثمار مرافق البلد الذي اغتصبته . فقد وصل الى تل ابيب مؤخراً الاستاذ هاي فنش الخبير في الانتاج الاقتصادي في معهد روزفلت للانتاج في الولايات المتحدة ، ليدرس في المعهد الاسرائيلي سنة كاملة الوسائل اللازمة لزيادة الانتاج اليهودي . ومن المعروف لدى الجميع ان عشرين بالمئة من سكان اسرائيل يعملون في الزراعة وفي ميدان المرافق الطبيعية يلوح في الافق إشعاع يقول بإمكان وجود البترول في اسرائيل ، وها ان المستر فرانك كاستيل رئيس شركة كونيمنتال بصرح بعد عودته من تل



ايب ، ان التفتيح عن البترول سيبدأ على الغالب في هذه السنة ، وأضاف ان التربة في اسرائيل قد تنطوي على كميات من البترول اكثر من الثروة البترولية في العراق .

ثم ان المهندس اسحق شبيك الموظف في المنظمة اليهودية صرح في نيويورك في مؤتمر صحفي ان منطقة النقب التي كان يظن انها خالية من كل المعادن قد اكتشفت فيها معادن مما قد يجعلها أساساً لثورة صناعية قد تبدأ قريباً ومن بين هذه المعادن الفوسفات والكاولين والنحاس وغيره .

فليحذر العرب اذاً المستقبل ولا تغشهم اذاعات السوء عن مستقبل اسرائيل وعليهم ألا يفتروا وألا يطعنوا ، فالحديد لا يفلح الا الحديد ، والعلم لا يحارب بالجهل . والمال يفعل العجائب في عصرنا المطبوع بطابع المادة لا الروح ، لا سيما بعد ان لفظ بن غوريون خطابه الأخير في احدي المستعمرات اليهودية حيث قال : يجب ألا يدخل في اعتقاد احدكم اننا انهينا حسابنا مع الدول العربية والانتصار الأخير هو في المعركة الأخيرة التي لم تحصل بعد .

نعم ان مدير مائة اسرائيل صرح ان ما يجب ان تنفقه اسرائيل للاستيراد هو (١٨٠) مليون جنيه كحد أدنى لحياة الشعب ، وعلق المعلقون على هذا بأن ميزانية الدولة تقوم على قواعد مصطنعة قوامها (١٠٠) مليون جنيه تقدم اعانة من يهود امريكا . ونعلم ايضاً ان المعجز التجاري لعام ١٩٥١ بلغ (١٠٦) ملايين جنيه حيث الواردات قد بلغت (١٢٢) مليون والصادرات (١٦) مليون جنيه فقط . كما ان جريدة شيكاغو ديلي تريبيون نشرت بياناً عن سوء الحال عند اليهود بنتيجة المقاطعة العربية والحصار الاقتصادي الذي يضغط على عنق هذه الدولة . ومما قالته ان « دوث جوزيف » وزير الصناعة والتجارة اليهودية قال ان شهر كانون الأول كان أشد قسوة وأسوأ حالاً من ناحية التوطين وأنه لذلك لم توزع على الناس بطاقات لحم على الاطلاق ، بل عوضت ببطاقات علب السردين ورب البندورة والخضار المحفوظة . وتقال ان يكون كانون الثاني خيراً من سابقه بأن يتراخي الحصار فيصدر اليهود الى البلاد العربية ما يستوردون به مواد غذائية .

ولكن كل هذا ايها العرب يجب ألا يكون داعياً لاستكاثكم واطمئنانكم  
فاسرائيل تسمى بكل جهدها لتخطي صعابها . ولقد كانت هي الدولة الوحيدة في  
الشرق الأوسط التي أفادت كثيراً من مؤتمر موسكو التجاري الأخير وقد  
انتجت محادثات المؤتمر عن اتفاقها مع السلطات الروسية وبمض الدول التابعة لها  
على ان تزيد اسرائيل صادراتها من منتجاتها الصناعية لمحاولة التخلص ولو من جزء  
من المتاعب التي تعانيها .

### الحصار الاقتصادي :

يقول وزير خارجية اسرائيل اثناء زيارته لانكلترا اخيراً : « انه لا يمكن  
ان يكون في اسرائيل مراكز صناعية إن لم توزع انتاجها في الاقطار العربية  
المجاورة » وتحاول اسرائيل اليوم بوساطة يهود امريكا ومناسبة قرب انتخابات  
رئاسة الجمهورية الامريكية ، ان تفرض الصلح على العرب . فقد كتب صاحب  
جريدة الحياة في عدد ٧ نيسان الحالي يقول ان اليهود استثمروا الحملة الانتخابية  
السابقة في سنة ١٩٤٨ لقيام دولة اسرائيل وتوفقوا في الحصول عليها .

ولكن تجارب السنوات الأربع الاخيرة التي مرت عليهم ان اسرائيل لا  
تستطيع ان تعيش على هذا الشكل ، وانها سائرة الى الخراب الاقتصادي ما لم تنته  
حالة الحرب مع العرب ويقوم صلح دائم يفتح اسواق البلاد العربية للصناعة اليهودية  
ويحمر الميزانية الاسرائيلية من النفقات العسكرية الضخمة التي تلتهم دخل الدولة  
والتبرعات الواردة عليها . انهم يريدون الصلح مع العرب وهم يعرفون انهم لا  
يستطيعون الحصول عليه مباشرة ، لذلك عزموا على استثمار انتخابات الرئاسة  
الامريكية الآتية في سبيل ذلك . ويهدف اليهود ايضاً من شائعات الصلح مع العرب  
الى إيهام الامريكيين بأن الصلح واقع حتماً ليسارع الممولون الى توظيف اموالهم  
في اسرائيل .

ففي العام الماضي طرحت اسرائيل قرضاً في الولايات المتحدة بقيمة (٥٠٠) مليون دولار ففشل فشلاً ذريعاً . وحتى الآن لم يدفع من السندات المباعة سوى (٤٨) مليوناً وكان هذا الفشل ضربة للاقتصاديات الاسرائيلية ، فانهارت الليرة الاسرائيلية انهياراً فظيماً ولولا التبرعات لسكانت الضربة قاضية . وكان السبب المباشر لفشل هذا القرض خوف الممولين من وقوع حرب ثانية بين العرب واليهود . ولا شك في ان لحوادث بالحولة في العام الماضي والموقف الذي وقفه الجيش السوري الباسل منها ، كل الفضل في قطع الطرق على القرض ، فهذه الحوادث حرمت اسرائيل من ملايين الدولارات .

وأعود لأمر الصلح الذي تستهدفه اسرائيل فأقول ان « برودي بنيامين » رئيس الهيئة الصهيونية الامريكية قد اقترح ان يقوم الرئيس ترومان بحملة امريكية تدعو الى عقد مؤتمر صلح عربي يهودي في واشنطن يتولى رئاسته الدكتور باناش .

وها ان السيدة روزفلت عقب عودتها من رحلتها الاخيرة الى الشرق تدعو ايضاً الى الصلح بين العرب واليهود وتقول بضرورة تبادل البضائع والخدمات والمعرفة الفنية بينهم . وان العرب واليهود يربحان كثيراً اذا ما تمكنت الامم المتحدة من مصالحتهم ويجاد أساس للتفاهم بينهم . كما جاء في البرقيات الاخيرة ان آخرا من لليهود هو انتخابات الرئاسة الامريكية حيث يعتمدون على نفوذ جالياتهم في الولايات المتحدة لانتخاب مرشحين مضمونين للحصول على مساعدات مالية جديدة من امريكا تسمح لاسرائيل بتخطي المرحلة العصيبة التي تجابهها . لا سيما بعد ان اصبح الرأي العام اليهودي يدرك مبلغ خطر الحالة الاقتصادية السيئة التي وصلت اليها اسرائيل ويشعر بان الازمة دخلت مرحلة عصيبة ، وأخذ الافلاس يهدد الدولة اكثر مما يهددها في أي وقت مضى ، لا سيما بعد اطلاعه على طلب الدكتور وايزمن خمسة ملايين من الاسترليني كقرض من بريطانيا كما يلاحظ المراقبون ان المنهاج الاقتصادي الذي وضعه بن غوريون في شباط الماضي قد فشل فالتضخم في ازدياد في كل شي .

## مستقبل الاقتصاد العربي

يؤلف الدخل الوطني وعدالة توزيعه بين الافراد مقياس رقي الاعم . وهذا الدخل هو الذي تستمد منه الدولة جميع وارداتها وهو مصدر ايرادات المؤسسات والافراد ، ولهذا فان ضآلة معدل الدخل الوطني للمواطن تشير الى انتشار الفقر والجهل والامراض وبالتالي تدهور البلد اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . وهذا لا يتأتى الا بسبب قلة الانتاج الوطني وإهمال استثمار الثروات الطبيعية استثماراً جدياً وما وهبته الطبيعة من مواد أولية وموارد حيوانية ونباتية ومعدينية . لهذا كان واجباً على العرب في كل مكان ان يعملوا في سبيل رفع مستوى افراد الشعب على زيادة معدل الدخل الوطني للفرد وعدالة التوزيع بين ابناء الشعب الواحد .

ان الدخل الفردي على اساس الدولار قدرته المصادر الاجنبية كما يلي : في مصر مئة دولار . وفي سوريا ( ١١٠ ) . وفي تركيا ولبنان ( ١٢٥ ) . وفي العراق ( ١٥ ) . وفي السعودية ( ٥٠ ) . وفي اليمن ( ٤٠ ) . وفي ليبيا ( ٢٥ ) .

ولكن هذه الارقام لا اعتقد ابداً انها قريبة من الحقيقة لضعف مصادر الاحصاء ، وعلى كل اذا ما قايستنا ذلك مع الدخل الفردي في اوروبا وامريكا نجد بوناً شاسعاً بين دخل الفرد في البلاد العربية والدخل في البلاد الاخرى . ولكن هذا المقياس لا يصح بين بلدان ناشئة فقيرة لم يمض على استقلالها اكثر من سنين معدودة ، وبين بلاد عربية غنية تسيطر على العالم اجمع . واعتقد ان المقايسة يجب ان تجري بيننا وبين البلاد التي سبقنا بالاستقلال والانتاج ، كبلاد الشرق الاخرى وبلاد شرق اوروبا المنسلخة عن الحكم العثماني منذ قرن وما يليه .

ان أهم العوامل في استقرار مراكز الانتاج الصناعي المواد الاولية للصناعات ومنابع القوى المحركة من نפט وقوى مائية وكثرة الايدي العاملة وقدرتها الفنية وسهولة النقل داخل البلاد وخارجها وقلة اجورها . فعلى العرب ان يحققوا

هذه العوامل وان يتخطوا عقبات الاقتصاد العربي كشح رأس المال والخبرة الفنية والبلبلة السياسية في أكثر الاقطار العربية الناجمة عن التأرجح الخارجي ، وعدم الاستقرار الداخلي بسبب ضعف الحكم وعدم الانسجام بين الحكومات والشعوب ، كما يجب عليهم التمسك بأهداب الوعي القومي وسلطان القانون وتوطيد العدل وتشجيع الاعمال الحرة والعمل الاقتصادي الجماعي وتمية الثروات عن طريق زيادة الانتاج ورفع مستوى العمل ، والحد من المنافسة التجارية الاقليمية فيما بينهم . وحيث ان الدول الاجنبية اتبعت المحافظة على اقتصادياتها سياسة قاتلة بالنسبة للدول التي تتعامل معها فتقيد هذه الدولة تجارتها مع تلك ، وتلك تخفف الاستيراد مع جاراتها ، فان من واجب الاقتصاد العربي ان يتمسك مع بعضه ليصد عنه عادية المزاومة الاجنبية والمنافسة القتالة . وان يكون له من تجارب الامم الراقية دروساً وعظة .

فهذه بريطانيا تشكل النقطة الرئيسية في سياسة التحول الاقتصادي العالمية فقد خفضت حكومة المحافظين الواردات بنسبة عالية . كما انا نشهد في كل مكان اعترافاً صريحاً بان التجارة الدولية توشك على الانهيار . فما أولى بالعرب ان يكونوا يقظين آخذين بسياسة متحدة اقتصادية شاملة ، لا سيما بعد ان تلقت الدوائر المختصة تقريراً من الجامعة العربية يقول بأن مصلحة الاقتصاد الدولي تدرس موضوع الاتفاقيات التجارية التفضيلية بين الدول العربية ، بعد ان تبين ان مبدأ الدولة الاكثر رعاية لا يكفي لتحقيق التعاون ، وهذا ما اشار اليه مؤتمر الغرف التجارية الصناعية الزراعية العربية ، وما اثبتته في محاضرتي التي أقيمتها في هذا المؤتمر في ١٧/١٢/١٩٥١

ان العالم يتطاحن اليوم في صفوف كتلتين غربية رأسمالية تريد استثمار الديموقراطية لمنفعة امريكا وتسخير مرافق العالم لمصلحتها . وشرقية اشتراكية متطرفة تريد استثمار الفرد وجهده وسيطرة مبادئها الديكتاتورية السيطرة الجالحة . وما أظن خير العرب الا بأن يكون سبيلهم وسطياً يوصل الى فلاحهم الاقتصادي موحى به من مصلحتهم وتفكيرهم وحدهم لا من مصلحة الاجنبي وتوجيهه لغايات

مبادئ وعقائد ومناهج لا تنسجم مع البيئة العربية وعقليتها الحاضرة ومبلغ استعدادها لهضم كل تفكير اجني .

ثم ان اقتصاديات العالم اليوم تسير على نظريتين مختلفتين الاولى النقشف والحرمان والثانية زيادة الانتاج ، فالتسابق في زيادة ابراج التسلح لا يزال بين الدول الكبرى قائماً على قدم وساق ، وقد أدى ذلك الى تحويل جزء كبير من المواد الأولية واليد العاملة الى الانتاج الحربي . ومن ثم الى ارتفاع الاسعار في جميع بلاد العالم ، والى تضخم ميزانيات الحكومات والنقصد . ومداواة لذلك عمدت بعض الحكومات الى الأخذ بسياسة النقشف والحرمان ، والبعض الى العمل على زيادة الانتاج . وقد أدت هذه المحاولات الى زيادة الانتاج عن الحاجة ، ولاحت من وراء ذلك - كما يقول عبدالمقصود احمد باشا رئيس مجلس ادارة بنك مصر - أزمة عاتية اخذت بوادرها تحيط ببعض الصناعات ، واستحكمت حلقاتها بالبعض الآخر ، وبدت البطالة تطل بشبحها الخيف ، وكادت تصبح مشكلة معقدة من جديد ، لا سيما في اوروبا وحتى في اليابان . وان العالم قد بدأ يودع فترة الانتعاش التي بدأت منذ الحرب العالمية الاخيرة ، وصار حتماً عليه ان يعد نفسه لاستقبال فترة من الانكماش بالنسبة لما تعودده من قبل ، وانه من الطبيعي ان تتأثر البلاد العربية بهذه الأحداث العالمية بما يوجب عليها الوعي الصحيح والتمسك بأهداب الحذر واليقظة والرأي السديد .

واخيراً أقول ان للعرب في ميثاق الجامعة العربية كما نصت عليه المادة الثانية من ضرورة إنشاء تعاون وثيق بين الدول الاعضاء في الامور الاقتصادية والمالية بما في ذلك الجمارك والنقد والزراعة والصناعة وفي ميثاق الضمان الجماعي ، خير سبيل لحفظ كياناتهم والذود عن اقتصادياتهم الناشئة ، فعليهم ان يتحدوا وان يعملوا وان يضاعفوا من مجهودهم في مقاطعة اسرائيل .

ولي في كلمة الاستاذ اكرم زعيتر القاثة : « ان مميزات العرب المادية  
للهوض والتقوية واستعادة قدس اقداسهم موفورة جداً اذا كانت لهم ارادة واوتوا  
عزماً وتحلى أولو امرهم بفضيلة ايثار المصلحة العربية الشاملة على الهوى الشخصي  
والغرض الاقليمي وجنحوا الى تبديل عقلياتهم الفردية الرجعية واستضاءوا بنور  
الايان القومي ولاذوا بالنظام » . إن لي بها خير ختام والسلام .

النظرة الاجتماعية في سوريا

الذكور محمد من كمال  
محمد بن علي بن عبد





## التطور الاجتماعي في سوريا

الدكتور عبد الرحمن الكبيسي

عضو المجمع العلمي العربي

= القيت بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٥٢ =

شبكة قريتنا

لديهم في بحثنا

أيها السادة :

اسمحوا لي ان اقدم موضوع التطور الاجتماعي في سوريا الى أسئلة لأحدد لكم ما اريد البحث فيه عن هذا الشأن المترامي الاطراف .

ما هو التطور ، وما هو التطور الاجتماعي ؟

هل يتطور الاجتماع كما يتطور الحي ؟

ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟

ما هي المقاييس الدالة على التطور الاجتماعي في نطاق التقدم والرقى ؟

من أي عهد نبدأ البحث عن التطور الاجتماعي ؟

ما هي النواحي الاجتماعية التي يمكن البحث فيها للاستدلال على التطور

المطلوب ؟

ماذا يستنتج من بحثنا عن التطور الاجتماعي ؟

ان كلمة ( التطور ) اصطلاح لفظي اضيف الى معجم اللغة العلمية الطبيعية وعلومها كعلم النبات ، والحيوان والارض وطبقات الارض والحياة وغيرها من العلوم . وأول من استعملها في كتبه وتأليفه العالم الطبيعي ( دارون ) . وفي اللغة العربية يعد مفهومها العلمي حديث العهد ، وأول من استعملها وحدد معناها المرحوم فتحي زعلول في كتابيه ( روح الاجتماع وسر تطور الامم ) اللذين نقلهما عن الفرنسية لمؤلفهما العلامة ( غوستاف لوبون ) وترجمها عن اللفظة اللاتينية والانكليزية ( Evolution ) ( ١ ) ثم استعملها الكتاب والادباء والعلماء في بحوثهم عن تطور الاخلاق ، وتطور الافكار ، وتطور العادات ، وتطور النفس وماشابه ذلك من التطورات اللاحقة بالانسان ، والحيوان ، والجماد .

اما الكلمة من حيث هي فمنجوتة من فعل ( تطور ) المأخوذ من لفظ ( طور ) ومعناه ( الدور والحالة والهوية والستارة ) ثم انتقل اللفظ الى علم الحياة وعلم الطبيعة بمعنى ( التحول والتغيير ) .

وجاء في تاج العروس للزبيدي ( الجزء الثالث ص ٣٦١ ) قوله ومما يستدرك عليه الناس ( اطوار ) أي اخيف على حالات شتى . وكلمة اخيف معناها مختلفون . يقال ( اخوة اخيف ) أي امهم واحدة وآبأؤهم شتى . وأما قوله تعالى ( خلقكم اطوارا ) في سورة نوح آية ١٤ فمعناه ( ضروبا واحوالا ) .

وقال ثعلب أي خلقاً مختلفة كل واحد على حدة . وقال الفراء ( نطفة . ثم علقه ثم مضغة ثم عظما ) وقال غيره انما اراد اختلاف المناظر والاخلاق وتمدي طوره أي حاله الذي يخصه . والطور الحد بين الشمين . وطور بمعنى فعل كذا وكذا .

( ١ ) نقلا عن كتاب النشوء والارتقاء ( لشبلي شيل )

وجاء في تفسير البيضاوي نقلاً عن إمام اللغة الزمخشري (وخلقكم أطواراً) أي تارات ، إذ خلقهم أولاً من عناصر ثم مركبات تغذي الانسان ، ثم اخلاطاً ، ثم نطقاً (١) ، ثم علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ، ثم لحوماً ، ثم أنشأهم خلقاً آخر . وبهذا يدل على انه يمكن ان يعيدهم تارة اخرى .

فمفهوم ما اورده الزمخشري يطابق مفهوم ما بينه الزبيدي وهو عين مفهوم ما اراده ( دارون ) وما اراده ( فتحي زغلول ) من كلمة تطور أي تحول من حال الى حال وتغير من شكل الى شكل بدليل ان الانسان كان نطفة ثم غذا علقة ثم صار مضغاً ، ثم اصبح عظاماً ثم تكامل خلقه فصار انساناً .

### معنى كلمة الاجتماع

وكلمة ( الاجتماع ) (٢) لا يحتاج معناها اللغوي الى تفسير وايضاح واما معناها العملي فيفيد ( تعاون الافراد تعاوناً يؤدي الى ارتباطهم بنظام لمعاشهم ، واعتناهم في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه ) .

ويعد العلماء اجتماع البشر ضرورياً لأفرادهم والالم يكتمل وجودهم ولم تتم حياتهم . لأن الفرد مضطر الى دفع الشرور الكثيرة عنه مثل الجوع والعطش والبرد والتعب ، والألم والخوف ، وعدوان بعضه على بعض ، وعدوان الحيوان الآخر عليه ينازعه الحياة ومضطر الى مقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمسكن والاسلحة وغيرها مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً لان كل عمل منها يستغرق حياة كاملة وقد لا تفي بجزء منه ، فهو لا بد له من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتم له التعاون بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والمهندس لينتظم وجوده ويحسن بقاؤه .

(١) النطفة = كظلمة القليل من الماء . - العلقة = هي مني الرجل . - المضغة = هي قطعة من اللحم .

(٢) عن كتاب علم الاجتماع لنيقولا حداد

## اسباب تسمية المجتمع بالجسم الحي

ولهذا شبه المجتمع بجسم حي كسائر الاجسام الحية ، مركب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة هي سلامة الفرد وسلامة المجموع . ووصفه بعضهم وصفاً طبيعياً بقوله انه نظير الجسم بأعضائه ووظائفه .

وتشبيه المجتمع الانساني بالجسم الحي تشبيه قديم أشار اليه ابن خلدون في مقدمته وأشار اليه الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه القانون ، وقال به اريسطو وافلاطون وتبعهم فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وبظهور مذهب دارون وتأيد العلماء له في نظريته ( النشوء والارتقاء ) اصبح التشبيه أقرب الى الحقيقة وسهل علينا فهم العوامل التي تحرك فعالية المجتمع والنوازع التي تهدم تلك الفعالية .

## ما هي عوامل التطور الاجتماعي ؟

ان الوراثة ، والتغذية والانتخاب الطبيعي ، والمحيط ، وتنازع البقاء والعقل الاجتماعي هي التي تعمل في تطور المجتمع وتميز هذه الظاهرة الانسانية عن الظاهرة الحيوانية التي تخلو من عامل العقل الاجتماعي . وكلما كان الفرد غير مجهز بالوسائل الدفاعية التي يملكها الحيوان فان العقل البشري الذي يملكه الفرد يمثل العقل المتفاعلة في اصطلاح سلسلة الأنظمة الاجتماعية ويحدد الغايات والاهداف ويوجد الشعور ويشرك القوى الفكرية بالتطور والارتقاء .

والنسبة بين العقل الاجتماعي والعقل الفردي كنسبة الجسم الحيواني والخلايا التي يتألف منها . فالخلية كأن حي قائم بنفسه ، والجسم الحيواني ليس حياة واحدة بل مجموعة حيوات متوافقة في عمل مشترك هو نمو ذلك الجسم وتوالده حتى ان خلايا كل مركز من مراكز الدماغ وهي تعد بالملايين تصنع الفكر

مشتركة ، ومع ان البشر بفعل الوراثة والديئات المختلفة وفعل الطوارئ المتعددة مختلفون متباينون ليس بينهم اثنان يتفقان في فكر أو عاطفة ، أو يقين أو عمل اتفاقاً بديهياً أو ناموسياً فهم بحكم الطبع متباينون مختلفون متنافرون ولكن للاجتماع الذي قضت به النواميس الطبيعية والنواميس الحيائية والنواميس الجغرافية ، عوامل قوية لا ترد، توجب على هؤلاء الافراد ان يعدلوا افكارهم وعواطفهم وارادتهم وأعمالهم بحيث تتوافق وتتساكل وتتحد ، ومن اتحادها يتكوّن الجسم الاجتماعي والعقل الاجتماعي .

وإذا اشترك افراد المجتمع بما ذكرناه فعلوا ذلك لا عن تفكير خاص ولكن بفعل العقل الباطن أي ( بالابحاء ، والتقليد ، والاستهواء ، والتشبه ، والاقبباس ) مما هو خليق بمن لبسوا محكومين للوعي المنطقي والرشد العقلي .

### مقاييس التطور الاجتماعي

وتختلف مقاييس التطور بالنسبة لما ينتج عنه سلباً أو ايجاباً فمقياس التطور الاجتماعي الايجابي هو المدنية ومقياس التطور الاجتماعي السليبي هو التقهقر والانحطاط .

اما المدنية فلها ثلاثة مقاييس (١)

الأول — مقدرة العقل على تسخير قوى الطبيعة ومواردها لخير الانسان ومنفعته في كافة نواحي الحياة، وهي لا تتم الا بواسطة العلم والعلماء ، والتنظيم وتقسيم العمل ، والادارات ، والشركات والمعاهد والمنشآت .

الثاني — وفاقية الشعب وسلامته وهي تضمن سلامة الجسم والنسل ، والروح وتنظيم العلاقات وحفظ الارواح والاملاك والحريات وحفظ الحقوق وضمان المستقبل والتساوي بين الافراد فيما لهم وعليهم .

(١) نقلا عن كتاب مبادئ السياسة العالمية ( للاستاذ هو كينغ )

الثالث — الاخلاق العامة وهي العمود الفقري من المجتمع ترافق العقل الاجتماعي وتعمل لتطوره .

على ان المجتمع الحي الذي يتحرك وينمو ويعمل بعامل العقلية ، وعامل الرفاهية ، وعامل الاخلاقية لا يتطور بحروب تنازعية وتذهب بمجهده الاجتماعي وتفسد انتظامه وطمأنينته ولكنه يتطور بتطور الافكار والتربية فيحصل على ترابط الناس برابط الثقة ، والتعاون ، والأمل ، والنظام ، والصدق ، واداء الواجب ، والطاعة ، واحترام الوازعات الدينية والاجتماعية والقانونية ، فلا تنساق افراده وراء الغرائز والمطامع ولا ينسى أحد منهم اجتماعيته وان عليه حق العمل وحب العمل ، ومسئولية العمل ، وان له حق اجر العمل ، ورفاه العيش بكل ما فرضه على نفسه ويفرض المجتمع عليه خيره وخير المجتمع .

واذا قيل بان الاخلاق تتغير وتبديل بتغير الزمن وتبديل الاحوال أجبنا ان الاخلاق التي تواضع الناس على فائدتها ومارسوها منذ عرف المجتمع وعرفت المدينة لم تتبدل ولم تتغير فلا يزال مفعول الصدق والامانة والنقة والتعاون وحب الخير والعمل والاحسان هو هو مانعاً للفساد وحافظاً لنظام المجتمع من الانحلال .

وهل من ينكر ان سلامة التفكير ، ورقة الطمع ، وحسن المعاشرة ، وكرم الخلق ، وأدب المخاطبة ، وجمال الفن ، وعمق الشعور ، وسمو الخيال ، مما يقوي تماسك المجتمع ويجلب رضى النفس ويوجد الرفاه ؟ وهل من عاقل يدعي ان المنطق ليس عاملاً بين الامم أو ان تقسيم العمل ليس منطقياً ولا مفيداً ؟ وهل من انسان سليم الخلق والنفس يؤمن بأن الرشوة ليست سرطاناً في جسم الامة . ؟ وهل يستطيع عالم ان يأتي بدليل من تاريخ الامم يستشهد به على ان انتشار الفحشاء والمنكر وفوضى الحكم والنظام وظلم الرعية وسوء الادارة وفقدان الوازعات الدينية والقانونية لم تكن من مهالكات المجتمع ولم تقوض بنيان الدولة ؟

لعل البعض يتبجح ويدعي تعليقات ضمنها المذاهب الشاذة ، والمذاهب الاباحية ، والمذاهب المألوفة ، والمذاهب الهدامة من وجودية أو استبدادية أو

شيموية أو فوضوية سميت بأسماء متشككة فيرد علينا بها، ولكن محك العلم ومقاييس الواقع والتجارب تنفي مدعياتهم وحججهم لانها ليست بما يتفق وسنن الاجتماع وقواعد المدنية التي لا ينهض بها الا العقل السليم والاخلاق الفاضلة والمقاييس الاجتماعية .

### مبدأ بحثنا عن التطور الاجتماعي

ولما كان التطور سلسلة مترابطة الحلقات فسهولة التحديد سفبدأ بما كان عليه مجتمعنا قبل نصف قرن وهي السنون التي عشنا فيها ولمسنا تحولها وعرفنا الادوار التي مرت عليها فما هي أهم المظاهر الدالة على تطور مجتمعنا منذ ذلك الحين؟

### النواحي الاجتماعية التي يجب معرفة التحول فيها لتقرير نسبة التطور

ان نواحي الحياة ليست واحدة فاذا اخذنا بنظرية الشمول والتوسع للبحث عن فعالية الحياة الاجتماعية ونتائجها والعقل الاجتماعي وتأثيراته وجب علينا البحث في آثار التطور في الازياء وما يتبعها، وفي المآكل وما يلحق بها، وفي المسكن وما يحويه، وفي البناء وما يتعلق به، وفي الزيارات والولائم والمواسم والاعراس والزينات والمهرجانات والحفلات والضيافات والملاهي والتسليمات لأنها من مستلزمات العيش ومن عناصر حياة المجتمع .

### تنظيم المجتمع

ويجب علينا ان ندرس وتناول في البحث اثر التطور في أدب المعاشرة وأدب الحديث والمخاطبة، وفي لغة الكلام والتفاهم، وفي البيع والشراء، والتأليف والكتابة والمخاطبة، وفي أدب الرواية والقصص والتمثيل، وفي الجمعيات والسهرات لأنها تمثل تنظيمية المجتمع ووسائله الاجتماعية ويتحتم علينا معرفة تطور الصناعة



والاجور والمال وارباب العمل ، وتطور التقنيات والمهن ، والحرف وتطور المؤسسات الصناعية والتجارية والزراعية والتعاونية ثم الشركات والادارات والمعامل ، والنقلات والضمانات وتطور المكوس والضرائب والثروة واسمار الحاجيات ونفقات العيش لأنها تمثل ناحية العمل والانتاج في المجتمع .

ثم يجب علينا الوقوف على اساليب الحكم والحكومة وأعمال موظفيها ودواؤها، وعلى اساليب الادارة وتقسيم قوى الدولة ومدى صلاحها وتعاونها، ويجب البحث في القوانين والانظمة والدستور واصول الانتخاب والتمثيل والتشريع ، وفي وجائب الحكومة ومدى نفاذها وفي سياسة الدولة وما لها وما عليها لانها من بناءة المجتمع وضرورات المجتمع .

ومن الواجب البحث في معرفة تطور العلم والعلماء ونسبة التعليم ومقدار انتاج علمائنا وعدددهم واتجاهاتهم ، وما هي عليه مدارسنا ومعلموها وبرامجها وما هو توجيهها العلمي والقومي ، ثم يجب البحث في الرأي العام والدعاية والصحف والصحافة والمنتديات والجمعيات والاحزاب وحرية الفكر والعمل والقول ، وفي المؤسسات العالمية والجمعيات التهذيبية ، وفي دور التهذيب والارشاد ومن يتولاها وكيف تؤدي رسالتها لانها من عناصر العقل الاجتماعي ونشاطه وعليها يتوقف التطور الفكري والاجتماعي .

### موجبات النمو الاجتماعي

ويجب علينا ان نبحت في الامراض الجسدية والعقلية والاجتماعية كالبغاء والميسر ، والاجهاض ، والجرائم ، والولادة الوفيات وفي الخمر والمخدرات ، والامراض التناسلية لانها من موجبات تفهقر المجتمع وانحطاطه .

### تطور النمو الاجتماعي

ويجب علينا البحث في العائلة والروابط العائلية ، والمرأة ومقاهها

الاجتماعي ، وفي البيت والمعيشة، والطلاق والزواج، والسكن والاطفال ، وفي جهدنا الاجتماعي لسلامة هذه الوحدة الاجتماعية، وفي طبقات المجتمع وصنوف الناس، وفي جهدنا العقلي والاجتماعي، وتزايد السكان وتزايد الاعمال العامة وتزايد الثروة لأن ذلك من مستلزمات النمو الاجتماعي .

ويجب البحث في فعالية المجتمع التي تم عنها مخترعاتنا ومكتشفاتنا ومنشآتنا العمرانية والهندسية وغيرها لانها من اسباب تنظيم حياة المجتمع .

### تطور المذاهب الفكرية

ومما يجب ان نبجته في المذاهب الفكرية ، والفلسفية ، والواقعية ، والموضوعية ، والعقلية ، والباطنية ، والوجودية ، وغيرها من المذاهب التي لها تأثير في توجيه العقل الاجتماعي وفعالته .

### العناصر الهدامة

واخيراً يجب ان ننظر في العناصر الهدامة لحياة المجتمع والمفاسد التي تلازمه، والحركات التي تؤخر نموه وتقدمه ، وتعيين موقف مجتمعا منها ، وما هي وسائلنا لمحاربتها واستئصال جذورها ، لأن بقاءها مهلك لحياة المجتمع . والمجتمع لن يصلح للبقاء الا اذا تغلبت عناصر البناء على عناصر الهدم ، ورجحت كفة التركيب على كفة التحليل .

أجل علينا ان نبحت فيما تقدم إذ بدون معرفته لا يمكن الحكم على تطورنا التقدمي والعاقل من عرف نفسه .

ولكن هل استطيع انا ، أو تستطيع أنت ، أو يستطيع غيرنا كشف هذه العناصر وإيقاد الموضوع حقه في ساعة محدودة ومحاضرة موقوتة. لا اظن ذلك ممكناً.

لذلك سوف أسلك طريق الاختصار والاجمال بقدر المستطاع ، وأبحث في أربعة مظاهر دون غيرها . ( الاولى ) المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع .  
( الثانية ) للمظاهر الدالة على تطور بنائية المجتمع . ( الثالثة ) المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع . ( الرابعة ) المظاهر الدالة على تطور فعالية المجتمع . وعقيدتي ان هذه الاربعة من أهم الاركان التي يستدل بها على المقصود معرفته من تطور المجتمع السوري .

### المظاهر الدالة على تطور عقلية المجتمع السوري

تدانا المظاهر الآتية على تطور عقلية المجتمع السوري .

اولاً = وجود المدارس ، والمدارس معمّل تهيمّة العقول والاخلاق وتربيتها تربية الجسم والموهب ، فنمو عددها وازدياد طلابها وارتفاع مقاييسها ، وصحة مناهجها ، وحسن تعليمها له الأثر البالغ في تطور الجيل الناشئ .

ثانياً - انتشار التعليم بين البنين والبنات في جميع درجات التعليم وأنواعه . ومن الحق ان انتشار التعليم بين البنات عامل في اسراع التطور . والنهضة التي لا تقوم بتطور الرجل وحده بل بتطور الرجل والمرأة معاً .

ثالثاً = إلزامية التعليم من سن الخامسة الى سن الخامسة عشرة لجميع أبناء الوطن .

رابعاً = وجود الكليات العلمية العالية من طب ، وقبالة ، وصيدلة ، وتمريض ، وحقوق ، وآداب ، وعلوم ، وهندسة زراعية ، ودور المعاهين والمعلمات ، وفتح ابوابها

لكل سورى أتم تحصيله الثانوى وحاز قصب السبق ، والعمل على استكمال بقية  
الفروع العلمىة للجامعة السورىة .

خامساً = ارتفاع مقاييس العلم والتحصيل فى جميع أقسام الجامعة  
والمدارس الثانوىة .

سادساً = تأسيس المدارس الرىفوىة وتعميم العلم بين البدو والعشائر حتى  
لا يحرموا من نعمة العلم وحتى يتبعوا سبى الرقى .

سابعاً = إنشاء المياتم والمعاهد الصناعىة والتجارىة والزراعىة .

ثامناً = نفوذ العقىة فى قلوب الناس بأن طرىق الحىاة واكتساب الرزق ،  
ونىل التفوق وكفالة المستقبلى لن ينالها طالبها الا عن طرىق العلم والتحصىل ولا  
ىكفى أبناء العصر الحاضر ان يتعلموا القراة والكتابة والحساب وامور الدىن بل  
هم فى حاجة الى نصىب وافر من العلوم فى جميع درجات العلم ، والتخصصى فى  
الكلىات والجامعات ومعاهد الغرب العالىة ومن لا يتزود لندىناه فلا نصىب له فى  
آخرة لأن الدنىا مزرعة الآخرة ولا ينالها من لا ىجد "لتحصىلها" .

تاسعاً = ذهاب البعثات العلمىة من كلا الجنسىن الى الجامعات الغربىة  
وغيرها لا كىال التحصىل والاختصاص .

عاشراً = التخصصى فى شتى فروع المعرفىة فى أعلى مراتب العلم كاطب  
والهندسة والكىمىاء والكهرباء والرى والتعدىن والاقتصاد والحقوق والسىاسة  
والمىكانىك وطبقات الارض وغيرها من العلوم التى تمكن المتخرجىن السورىىن من  
خدمة بلادهم وتعزىز رقىها .

ولو شئنا تمديد الجداول (١) للكليات والمعاهد ودور المعلمين وبيان من تخرج منها لطال الشرح فنكتفي بما أوردناه من العوامل لنستدل منها على تطور عقليتنا، وان انتشار العلم والمدارس قد قضى على الفكرة المستحوزة على عقول الآباء في أنحاء سوريا بأن العلم لا يفيد وان ما درج الاهلون عليه هم وآبائهم من الامية والقناعة والبساطة تكفيهم مؤونة الحياة ومجاهة الزمن .

وإذا علمنا بأن التعاميم الحديث لم يوجد في الثمانين سنة التي خلت ، وعلمنا ان مقوماتنا الفكرية والقومية والروحية كاد الجهل والاستعباد يقضي عليها - اقول اذا علمنا ما تقدم وقارناه بما تطورنا اليه منذ تحورت البلاد السورية لقدرونا نسبة التطور وقدرونا بعد الشوط الذي خطواناه في سبيل اليقظة والنهوض . فالتعليم الحديث تأسس في ايام فيصل عام ١٩١٨ ، فقد دعا لتأسيس المدارس ونشر العلم ونادى بأن الاستقلال لا يؤسس الا على العلم . وفي عهده في عام ١٩١٩ تأسس المجمع العلمي وانقلبت لغة الدواوين والقضاء والتدريس والانشاء من اللغة التركية الى اللغة العربية، وقام المجمع المذكور بتهديتها وإصلاحها ثم تأسست بعده (الجامعة السورية) ويرجع الفضل اليها والى اسانقتها بتدريس العلوم والفنون في جميع

---

(١) جاء في الاحصاءات الرسمية ان عدد المدارس الاعلية والحكومية في سوريا بلغ في عام ١٩٤٨-١٩٤٩ كما يلي (١٤٧٤) للمدارس الابتدائية و (١٠٨) للمدارس الثانوية و (٦) للمهنية و (٤) لدور المعلمين والمعلمات . وان عدد الطلاب في المدارس الابتدائية بلغ (١٤٧٠١٧) للبنين و (٥٨٦٦٥) للبنات وفي المدارس الثانوية بلغ (١٧٩٥٢) للبنين و (٥٩٧١) للبنات وفي المدارس المهنية بلغ (١١٢٨) للبنين و (١٩٤) للبنات وفي دور المعلمين بلغ (٢٢١) معلماً و (٣١١) مملكة . اما الاساتذة فلغ عددهم (٣٥٩٩) معلماً في المدارس الابتدائية الرسمية و (١٦٩١) معلماً في المدارس الابتدائية الاهلية و (٤٦١) معلماً في المدارس الابتدائية الاجنبية و (١٠٤٠) استاذاً للمدارس الحكومية الثانوية و (٧٦٣) استاذاً في المدارس الاهلية الثانوية و (٤٣٨) استاذاً في المدارس الثانوية الاجنبية .

وتقول الاحصاءات المذكورة ان عدد الذين نالوا شهادة الكفاءة منذ عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٩ بلغوا (٨٣٠٢) منها (٦٤٧٩) للبنين و (١٨٣٣) للبنات . وان عدد الذين نالوا شهادة البكالوريا بلغوا سبعة اضعاف ما كانوا عليه في عام ١٩٤٣ . وانهم في عام ١٩٤٩ بلغوا (٤٠٣١) منها (٣٣٢١) للبنين و (٧٢٠) للبنات .

اقسامها من طب وحقوق وصيدلة باللغة العربية ، وبفضل ما وضموه من المؤلفات العلمية تزججة وتعريباً خدموا لغة البلاد وأحيوا تراثها وجددوا ثقافتها وبذلك أسدوا الى الأدب العربي أجمل الخدمات . وبعد هذا عمدت الحكومة السورية الى نشر التعليم وإنشاء المدارس وتوحيد البرامج ، ولما وضع الاساتذة والمعلمون الكتب اللازمة وطبعت ونشرت سهل على ابناء البلاد اقتناؤها والدرس فيها وارتقت معارفهم واستطاعت سوريا ان تباهي غيرها بنهضتها وتفوق كتبها وارتقاء مدارسها وان تسير تقدم العلوم وتقدم الفكر الانساني ولا تزال جادة في اتمام رسالتها والاصراع بنهضة الامة وتقديمها .

وبيناً لما أسدته الجامعة السورية من الخدمة في نهضة البلاد أذكر عدد من تخرجوا من كلياتها منذ تأسيسها حتى الآن .

بنات	بنون	المجموع	
٦٢	١٩٨٣	٢٠٤٥	كلية الحقوق
١٠	٥٢٤	٥٣٤	» الطب وفروعها
٣	١٩٥	١٩٨	» الصيدلة
٢٣	٣٧٥	٣٩٨	» العلوم
٢٨	٤٢	٧٠	» الآداب
	١٨	١٨	» الهندسة
	١٥٤	١٥٤	» طب الاسنان
٢١٧		١١٧	» القبالة
٢٧		٢٧	» دار التمريض
٢١	٥٣	٧٤	» دار المعلمين والمعلمات
٣٩١	٣٣٤٤	٣٧٣٥	المجموع

وبناءً على ما انتجه التقدم العلمي وما تأتى عن استقلال البلاد وممارسة السيادة وما فعله الاحتكاك الاجتماعي عن طريق الهجرة والسياحة والسفر وعلى

عوامل اخرى فرضها الزمن بواسطة الحروب نستدل على التطور العقلي وأثره البالغ في التشريع السوري وفي الحكم الدستوري وفي العمران وما قام فيه من منشآت وهندسة ومواصلات وحدائق وتخطيط ، وأثره في الاقتصاد وما أتى به التطور الاقتصادي وأوجده من مهن وصناعات ووسائل فنية وأدوات وآلات حديثة وشركات وأثره في تقدم الصحافة ، والنشر والطباعة والدعاية التي بدون العلم وتطور العقل الاجتماعي لن تصل الى ما وصلت اليه والمثل الحكيم يقول :  
البناء لا يكبر عن عقل مهندسه .

### ما وصر في تواريخ حلب من الحوادث

ومن يقرأ في تاريخ حلب لمؤلفه الشيخ كامل الغزي وفي أعلام النبلاء لمؤلفه الشيخ راجب الطباخ يعلم بأن سكان الشهباء لم يعرفوا لقاح الجدري قبل عام ١٢٤٠ هـ ولا صدرت بلسانهم جريدة الا في عام ١٢٩٥ هـ عندما أصدر المرحوم الحاج هاشم الخراط جريدته وتولى تحريرها الكاتب العبقري المرحوم السيد عبدالرحمن الكواكبي ، ولا استعملوا البترول لاضاعة بيوتهم وأزقتهم الا في عام ١٣٢٥ هـ أي في عام ١٩٠٦ ولم تنشأ لهم الحكومة العثمانية مدرسة سلطانية أي ثانوية الا في عام ١٣٠٣ هـ أيام جميل باشا وانهم لم يزرعوا بذور البنودورة التي جلبت من مصر الا في عام ١٢٧١ هـ وان التبغ لم يعرفوه ويستعملوه الا في عام ١٠٠٠ هـ وان السكاير لم تصل اليهم الا في عام ١٢٧٠ هـ وان محلة العزيزية لم تؤسس قبل ١٢٨٦ هـ ومحلة التل لم توجد قبل عام ١٣١٠ هـ وكانت مطرحاً للزبل وتابعة لوقف الحلوية ، وان السبيل لم يصبح حديقة الا في عام ١٣١٤ هـ وكان اسمه قبلاً سبيل الدراويش .

فهل بعد هذا الا ان نقول ان مجتمعنا قد تطور وتطورت عقليته لهذه  
الاحداث وما تلاها ؟

## ما هي المظاهر الدالة على بناء المجتمع السوري ؟

ان أهم ركن في بناء المجتمع السوري هو المرأة والاسرة وما يتعلق بهما وزيادة المواليد وزيادة نفوس السكان وتأسيس النقابات ، وتحول الحياة الفردية الى الحياة التعاونية والاشتراكية وزوال الاقطاعية ، وتجانس الطبقات وتضامن الافراد وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي تقوم مقام البنية في هيكل الجسم الاجتماعي .

اما المرأة فنظرة خاطفة الى ما كانت عليه قبل نصف قرن وما هي عليه الآن ترينا آثار التطور المقصود .

### تطور المرأة والاسرة

فازدياد ترابط افراد الاسرة والمرأة والزوج ، والاولاد برباط الدين وأحكامه ، والقانون وواجباته ، والمجتمع وآدابه واعتباراته ، وتقاسم العمل فيما بينهم لكل نصيبه ومسئولته ، وتناقص التعدد في الزوجات وقيام القانون العائلي مقام التفريق الكيفي وتساوي الجنسين في حدود الاحكام الشرعية والقانونية فكل ذلك دليل على التطور وزوال القيود المانعة لتقدم الاسرة وهنأتمها .

ومن حيث الحرية والحقوق فقد اصبحت المرأة تمارس حقوقها كما اباحتها لها احكام الشريعة وما سمح به القانون فهي تتعاطى المهين الحرة والمهين الخاصة بها ، تتعاطى التعليم والتدريس ، وتتعلم في المعاهد العالية ، وتتعاطى المحاماة والتجارة ، والطب والصناعة ، وتشتغل في المعامل وتكسب اجر تعبها ، وتشارك في اعمال البر والخير ، وفي المؤسسات الحكومية وتتولى الكتابة والتحرير ، وتؤلف وتنشر افكارها ، وتشتغل في ميادين الجهاد ، والتمريض ، وتقوم بواجبات البيت كأم وزوجة وسيدة .

وان كانت المدن قد نالت حظها من تطور المرأة والاسرة فان بقية أجزاء الوطن لم تحرم من هذا التطور بل ان حظها كان عظيما بالنسبة الى الماضي فانتشار



المدارس ، وسرعة المواصلات ، ودفع المرأة للاقتباس والمحاكاة في كل ما يرفع شأنها جعلها تتطور وتقبل ما هو الأفضل لها والأجمل لطبيعتها وحاجتها .

وفي باب المواليد تقرر الاحصاءات ما يجعلنا نستدل على الزيادة وقلة الوفيات وتقدم العناية بالصحة العامة نقول ان الذين ولدوا في عام ١٩٤٤ في سوريا بلغوا (٥٢٠٢٠) وفي عام ١٩٤٨ بلغوا (٥٨٩٠٦) والذين توفوا في عام ١٩٤٤ بلغوا (٢٨٨٢١) وفي عام ١٩٤٨ (١٩٩٦٤) فيكون الزائد في العام الأول (٢٩١٩٩) وفي العام الثاني (٣٨٩٤٢) يقابل ذلك ما ذكره علامتنا المؤرخ المرحوم الشيخ كامل الغزي في المجلد الثالث صحيفة ٣٠١ من كتابه بأن المجاعة وقعت في حلب عام ١١٧٠ هـ فقضت على ٨٧ الفاً من السكان لفقدان الغذاء واستحالة جلبه من محلات اخرى . واني اعلم ان الوفيات في حماة عام ١٩١٤ بلغت في خمسة أشهر أحد عشر الفاً مات معظمهم من التيفوس ومنهم من مات من الجوع ولما كنت طبيباً هنالك شاهدت بأمر عيني من أكل الميتة ، ومن أكل الحشيش ، ومن أكل قشور البرتقال والحبس ومن أكل الققط والكلاب ، وتقول احصاءات الحرب الاولى ان الذين قضوا من سوء التغذية والمرض في سوريا ولبنان يزيد عن نصف مليون .

### زيادة النفوس والمواليد

وفي باب زيادة السكان ذكرت الاحصاءات ان النفوس في حلب بلغت في عام ١٩٣٧ (٢٦٢٦٩٧) وفي عام ١٩٤٨ بلغت (٣٤٨٨٩٦) اما المجموع في المحافظة فقد بلغ (٧١٣٩٥٨) في عام ١٩٣٧ و(٩٣٢١٤٣) في عام ١٩٤٨ فتكون الزيادة في مدينة حلب خلال ١٩٣٧ و١٩٤٨ تبلغ (٥٢١٩٩) وفي المحافظة (٢١٨١٨٥) أي ما يعادل (١٨٠٨١) في كل سنة .

على ان هذا الاحصاء ليس مشجعاً بالنسبة لما يقوله علم الاقوام وتكاثر السكان فان سكان المدن عادة وفي الاحوال الطبيعية يزيد عددهم ضعفين في كل ١٥ سنة .

## تطور الطب والمعالجة

وبالرغم عما ذكرته فان مجتمعنا قد تقدمت اموره الصحية فلجدري يحدث قليلاً ووسائل الوقاية والمكافحة تتقدم عاماً بعد عام والطب يتقدم وعدد الاطباء يكثر ففي حلب مثلاً لا يقل عددهم عن (١٢٠) وقبلاً أي قبل خمسين سنة كان لا يوجد فيها من الاطباء القانونيين الا اربعة أو خمسة وكانت الطبابة بأيدي المتطيين ، والدجالين ، والمطارين ، والاجانب .

وبعد ان كان الناس لا يراجعون الا الحلاقين لمداواة جروحهم أو لجبارة كسورهم ، والمطارين لمداواة امراضهم الداخلية والخارجية ، اصبحوا بعد تقدم العلم يعتقدون ان الاطباء أولى بالمراجعة وعليهم مراجعتهم والتداوي عندهم . ولذا كثرت المستوصفات والعيادات والمستشفيات ، وكثر عدد الجراحين والمتخصصين واصحاب المخبر التحليلية وأسست المراجع التشخيصية للأشعة والتداوي بالكهرباء .

وما يدلنا على التطور الطبي وجود القابلات في كل المحلات ومعظمهن مأذونات من الحكومة وخريجات دار القبالة ويوجد أربعة عشر مستشفى للتوليد وكان التوليد فيها محرماً أو غير معروف .

ووجود المولدين من الاطباء والجراحين في جراحة النساء ، وأطباء العيون وأطباء الجلد ، وأطباء الداخلية ، ووجود الادوية والصيدليات ووسائل التشخيص والمداواة جعل العقيدة في اهمية المعالجة وكفاءة الطب ووسائله الحديثة تقوى وتتقدم مما ساعد على مكافحة العلل والامراض وزيادة نمو السكان وإطالة عمر الانسان .

## الشركات وزمارة عررها

وفي باب الشركات وعددها والمشاريع العامة وما اسس منها تذكر التقارير التجارية والصناعية بأن عدد الشركات الاهلية المساهمة بلغت ٥٤ شركة رأسمالها

(٧٨٥٤٥٠٠٠) ليرة سورية وذلك من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٤٧ والشركات المساهمة الاجنبية التي لها فروع في سوريا أو انها تتعاطى مع سوريا التجارة بلغ عددها (١١٢) شركة . والشركات تشبه الشرايين في الجسم تنقل البضائع وتجلب الآلات وتعمل على التبادل التجاري بالاموال والمصنوعات فتزيد نمو المجتمع وتقدمه .

### النقابات ونظورها

وبما يخص النقابات وهي مفتاح حركة العمال والعمل تعالج شؤون المنتسبين اليها وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم فالاحصاءات تدلنا على عددها والمنسوين اليها فتقول ان عدد نقابات العمل في سوريا بلغ (١٢٠) للعمال ينتسب اليها (٢٦٧٩٩) عاملاً و(١٢١) نقابة لأرباب العمل ينتسب اليها (١١٠٨٦) شخصاً . والنقابات لم تكن معروفة قبل خمس عشرة سنة بالشكل الذي عليه الآن ترتبط بالقانون وعليها مسؤوليات . كان هنالك ( شيوخ للكار والحرف ) يرجع اليهم المراجعون عند وقوع الاختلاف فيحكمون حسب العرف والعادة ولم يكن لهم ارتباط في الحكومة أو ارتباط في العمال كالتنظيم الموجود في النقابات واتحادها .

### الصناعات ونظورها

وفي باب الصناعة نقول النشرة التجارية الصادرة عن غرفة التجارة والصناعة (١) بحلب ويعود لها الفضل في تزويد الباحثين فيما يحتاجون اليه من معرفة واطلاع ( ان سوريا لم تكن لها قبل الحرب العامة سوى بعض الصناعات اليدوية والحرف المنزلية كالنسيج ، والتطريز ، والنجارة ، والحداة ، والصبغة ، وصنع الحلوى والمربيات وعدد ضئيل من الصناعات الاخرى ، ثم تطورت الصناعة وزادت حاجة البلاد الى مختلف المصنوعات فنشطت المعامل والمصانع لسد الحاجة ولما انتهت الحرب العامة تأسست في دمشق وحلب وبعض المدن الرئيسية الاخرى صناعات جديدة كصناعة السكر ، واستخراج الكحول ، والقلوكوز والنشاء وصناعة التبريد واستخراج الزيوت النباتية وصناعة الزجاج والصابون والديابغة

(١) نقلا عن نشرة غرفة التجارة والصناعة بحلب لعام ١٩٥١

الحديثة ، والصباغة الفنية ، وصناعة العطور ، والمرايا ، وصناعة صقل الالماس الخ.. كما طرأ التعديل والتجديد والتوسيع على الصناعات القديمة وادخل عليها الاساليب الحديثة والمحركات الكهربائية ومن أشهر الصناعات السورية القائمة نذكر صناعة حلب القطن ، وصناعة الغزول ، والنسيج بما في ذلك غزل القطن وحل الخيوط الحريرية الطبيعية وحياسة القطن والصوف والحري الاصطناعي والدامسكو والاغباني ، والصايات الحريرية ، والحطابط المصرية ، والمشالح المقصبة ، وصناعة الاسمنت وصناعة عصر البذور النباتية ، وصناعة الكونسروة ، وصناعة السكر ، وصناعات اخرى كصناعة الكرتون ، والمستحضرات الطبية ، والمستحضرات الكيماوية ، والمستحضرات الغذائية وصناعة البويات ، والشمع ، والشريط للاحذية ، وصناعة السكب والتليس ، وصنع المضخات وبمض الآلات والادوات الزراعية ، وصنع الغالات والمفاتيح والسامير والرفاسات ، وصناعة الثريات والمكاي الكهربائية والمدافئ على المازوت ، وصناعة الآنية المنزلية من الالومنيوم ، وصناعة الفضة والتليس بالنيكل ، وازدهرت من الصناعات القديمة صناعة السكاكر والمربيات ، والحلاوة ، والمعكرونة والصابون ، والتجليد ، والعطورات ، وصناعة الموبيليا والتنجيد .

وكما ارتفعت الصناعة واتسعت تطورت زراعة سوريا وارتقت وتجلت تطورها في التوسع والتنوع والغرس والتجريح وتربية المواشي والدواجن واستعمال الاسمدة ، والتراكتورات ، والحصادات ، وانتقاء البذور واستعمال المضخات لرفع المياه والارواء وتفجير المياه والينابيع وجر الاقنية وحفر الآبار الارتوازية وغرس كروم العنب والزيتون واستثمار الاراضي البور والاعتناء بزراعة القطن والحبوب والأرز ، وإنشاء المشاتل تزود المزارعين بالاغراس وتأسيس الدوائر الزراعية والمخابر وإنشاء المعاهد الزراعية والمؤسسات التعليمية للتدريب وغيرها .

### تطور الزراعة

ومن الأدلة على نمو الزراعة وبنائها اتساع المساحات المعدة للزراعة وازدياد الانتاج لحد عظيم ضاعف ثروة البلاد أضعافاً مضاعفة . وقد جاء في

الاحصائيات الكركية ان صادرات سوريا في عام ١٩٤٤ بلغت (١٩٧٠٠٠) طن قيمتها (٨٧) مليون ليرة سورية وبلغت (٣٠٧٠٠٠) طن في عام ١٩٤٩ بلغت قيمتها (١١٣) مليون ليرة سورية . وبعد الانفصال الاقتصادي الواقع في ١٣ آذار سنة ١٩٥٠ ولغاية العام نفسه بلغت صادراتنا ٤٣٥ الفاً من الطونات قيمتها ٢٠٨ ملايين ليرة سورية .

وتقول غرفة التجارة بحلب ان النتيجة المذكورة تعتبر في الواقع حدثاً اقتصادياً هاماً يضاف اليه ما تحمله المنتجات الحيوانية ومحاصيل البلاد النباتية ومشتقاتها من المقام الاول بين الثروة النباتية الزراعية .

### زوال الاقطاعية

ومن الأدلة على تطور بنائية المجتمع السوري زوال الفوارق الطبقية التي وجدت في عهود الاستعباد والجهل فلا طبقة حاكمة في وقتنا الحاضر ولا طبقة محكومة ولا طبقة اقطاعية ولا طبقة مستعبدة ولا طبقة سيده وطبقة مسودة انما الطبقات طبقات تتقاسم العمل والعلم والمقدرة ولذا نستطيع نفي مدعي القائل بوجود الاقطاعية في سوريا مع وجود الدستور والحكم الجمهوري ، الاقطاعية التي تعني ان الارض ومن عليها ومن يعمل فيها ملك للسيد الاقطاعي وعبيد موروثون له ولأولاده ونسله .

واذا كان من لا يزال يملك الاراضي الشاسعة ويتصرف بها مستأجراً الفلاحين أو مشاركاً لهم فهذا لا يعني الاقطاعية ، واذا جاز للسلطان الفاتح فيما مضى ان يهب الاغشار أو يهب الاراضي لولائه وقواده ووزرائه فعهد العطاء قد انقطع وولى دون رجعة واصبحت الاراضي ملكاً للدولة وملكاً لأصحابها بحق القانون ، قانون حيازة الاراضي وقانون اراضي الدولة ، ولم يبق لرؤساء الجمهورية أو رؤساء الوزارة أو لغيرهم ان يهبوا ما لا يملكون ولذا فيجب التفريق بين حق التملك وحق التصرف وما هو عليه الفلاح من ظلم وبؤس وعوز ، انه يتظلم ويشقى

لأن الجهل والفقر وفقدان الأمن وسوء الإدارة وضعف القضاء وإهمال الاعتناء بحياته وأولاده ومستقبله قد جارت عليه وهضمت حقه وحرمته من اتعابه . وما كان الجور والظلم والتعدي والاهمال مما يقول به قانون ، أو يرضى به عاقل ، أو تقره حكومة تريد رفاهية الشعب وتقدمه لذلك يجب إرجاع الاوضاع الى عواملها وتحديد مفهوم الالفاظ والمسميات دون تضليل ومعالجة الشكوى بالعدل وحسن التدبير والاهتمام وايصال الضعيف الى حقه وإزالة الظلم دون تسويق وإسعاف الفلاحين والعمال بقطع دابر الرشوة ومعاينة المعتدين ، وفسح المجال لطالب الرزق الحلال بالكسب والعمل وحمائمه من كل جور وتمعد لأن المزارعين والزراع والفلاحين والعمال هم سبعةون بالمائة من مجموع الامة وهم عمادها وثروتها .

وكما برزت آثار التطور البنائي في المرأة والاسرة والنقابات والشركات والمؤسسات وفي الزراعة والتجارة والصناعات وفي زيادة المواليد والسكان ، فكان انتقال البلاد من الحكومية التي عاشت ثلاثة قرون تحت وطأتها وزوال الاقطاعية وعبود الظلم والجور من مجتمعها وحصولها على الاستقلال والسيادة وتنعمها بالحرية والأمن يعد من أعظم التطورات البنائية التي جعلت السكان انفسهم اصحاب الحكم والسلطان والتشريع والإدارة والقضاء والعمل والانتاج ، بيدهم الانتخابات ومنهم رجال التمثيل وهم المسؤولون عن سلامة بلادهم والدفاع عن حدودها وحقوقها ومصالحها وهم الذين يعملون على تطبيق الديمقراطية بواسطة نظامها الجمهوري الذي ارتضوه ودستورهم الذي وضعوه .

### تطور الحرية وزوال الحكم الاستبدادي

ولما كان الاستقلال وسيلة وغاية لتحقيق الاهداف القومية والآمال الاجتماعية وغاية لنقل الشعب من حالة غير محمودة كان فيها الى حالة محمودة ينتظرها ويسمى اليها ويمتد بسعادتها فان حرية القول وحرية العمل وحرية التفكير والاعتقاد في ظل الاستقلال التام والسيادة المطلقة نقلت الوحدات الاجتماعية المار

ذكرها والوحدات الاخرى من طور الى طور لم تكن لتحصل عليه سوريا لولا قيام الحركة الوطنية من نصف قرن واشتدادها بعد الاحتلال الى يوم الجلاء ولولا اليقظة العامة وانبعاث حب العمل والنهضة ، ولولا اتساع العلم وانتشاره ، ولولا الشعور بضرورة التعاون والتضامن لما استقلت البلاد ، ولا تكونت النقابات ، ولا ازدهرت الشركات ، ولا تألفت الاحزاب والنوادي ، ولا نظمت مصالح العمال وتكاثرت الصحف والمجلات وأقبل الناس على قراءتها ، ولا شجعت الحركات الرياضية وغير ذلك من الاعمال البنائية التي تدل على تطور البنائية الاجتماعية وتدعو للتقدم والارتقاء .

### الانتقال من الفردية الى التعاونية

على ان التطور المذكور وإن لم يبلغ الذروة العليا من السرعة والتكامل فانتقال السوريين من الفردية الى الاشتراكية والتعاونية أي الى توحيد الجهود وتقاسم العمل والاشتراك في العمل يعد تطوراً إيجابياً يحمل في ثناياه أعظم الآمال على دوام النمو وتكامل البناء كما يمد تطور نقل الاموال من سجونها في الخزان والمصارف وصرفها في وجوه المشاريع الاقتصادية والاعمال المنتجة خطوة أعظم لا تقف فوائدها على التحويل والاستثمار بل يتعدى الى تطور المقايضين والمستهلكين، والناشرين والحامين والاطباء والمهندسين والعاملين وغيرهم من عناصر المجتمع .

### الاتجاه نحو المدينة الغربية

ومع العلم بأن الاتجاه نحو الماضي والتمسك به قد تطور وتحول السوريون نحو المدينة الحديثة واخذوا بالاقتراس والتعلم من الغرب ومسيرة الركب الذي يسير فيه بذات العلم والتفكير والاسلوب فالانم كما قال غوستاف لوبون ( لا تحيا الا بتمسكها بماضيها وتقاليدها ولكنها لا تتقدم الا اذا عرفت في الوقت المناسب كيف تتخلى عما لا يفيدها من تلك التقاليد وعنمات الماضي ) .

والذي يؤيد القول ان النفرة من المدنية وتقليد النافع منها والكرهية من كل ما هو اجنبي لم تعد بالنسبة التي كانت عليه وتعادت نفسية السوريين فرغبوا في ان يتعلموا من علوم الغرب ما يستطيعون الوصول اليه وان ينقلوا عنهم مؤلفاتهم ونتاج قرائمهم وان يستفيدوا من مخترعاتهم ومكتشفاتهم ويستخدموا اخصائيتهم وتجاربهم ويتبعوا نهجهم في البحث والتحقيق .

ونحن لهذه الرغبة نتبع انظمتهم ونطبق قوانينهم ونعلم لغاتهم ونستجلب من بلادهم ما نحتاج اليه ونعطيهم ما يحتاجون اليه وسوف نبقي عالة على مصانعهم ومعاملهم ولا ننكش عما يعرضونه علينا من مدينتهم حتى نستكمل طريقنا ونحقق مثلنا ونستعيد مدينتنا ، والمدنية ليست وقفاً على امة دون امة والحكمة خالصة للمؤمن حينما وجدها التقطها .

### المظاهر الدالة على تطور نفسية المجتمع

ان تطور الرأي العام ولا شك من أهم ما يستدل به على تطور النفسية الاجتماعية لأنه يمد الثمرة الناضجة لأعلى درجات المحاكاة أي الاقتباس القويم وعلى نضوجه تتوقف التسوية الفضلى في النزاع المستعصى الذي لا ينفص بغيرها والتسوية أقرب الدرجات الى العدل .

ومن الأدلة على تطور النفسية نظرنا الى الحياة كواقعية تتطلب العمل والاهتمام بها وجها لما فيها من مباحج وتكائر وزينة ، وفاخر ولذة وألم وحرمان ووصل وجهد وفناء . ولو تمشى العلم الى قلب كل انسان وأضاء بنوره كل مجتمع وكل بيت لزال الفوارق المصطنعة واحتفت المتناقضات المتكاثرة وانسجمت النفوس والطباع وارتضت بنظام الاجتماع وما دامت نفسيتنا الاجتماعية قد عنت اتجاهنا فمن الخير ألا نعيش كأننا على هامش الحياة . ولكن ليس من الضروري ان تنغمس في حمأة الحديث أي في المدنية المادية دون وعي وتمييز فالروح والمادة يعيشان لغاية



واحدة فان تسلم ضمائرنا وتسلم اجسامنا كانت المدينة لنا نعمة وتقدماً ، وما دامت مقومات الروح والدين والاخلاق والفضائل ومحبة الناس وحب الخير والعلم في حدود الحقيقة هي المحافظة على نفوسنا وما دمنا نبعد عن افكارنا وضمائرنا اللامبالاة والاحاد والاباحية وزيد طهارة العرض وعصمة اليد واللسان فاننا ولا نشك في طريق الانتقال والتطور الى ذروة التقدم والمدينة .

ولعل من الادلة الثابتة على تطور النفسية ارتقاء العقائد ، وورق الأدب الذي تمبر عنه أفلام الحق وقصائد الشعر وكتابات الصحافة ، ومقالات أهل الرأي والعلم ومناهج الاحزاب وما ترمي اليه الكتب والقصص والروايات والموسيقى والفنون والازجال والاغاني لانها تنبعث عن عاطفة المجتمع وتمثل قرارات النفس . وفي ذكر الرأي العام يجب استعراض المواقف الخطرة التي وقفها الشعب السوري من قضية بلاده واستقلالها كمثال لتطوره فنذكر منها .

موقف الرأي العام السوري من الثورة العامة عام ١٩١٦ وموقفه من مظالم جمال باشا وموقفه من الخلافة عام ١٩٢٢ وموقفه من الحكومات التي تعاقبت ايام احتلال الاجني والديساتير والمجالس التمثيلية التي فرضها والادارات التي كوّنوها والقوانين التي أخرجها والاعمال التي ارتكبتها من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٦ وموقفه من التجزئة والوحدة ، وموقفه من المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨ ، والمواد التحفظية ، وموقفه من ثورات هنانو والشيخ صالح وجبل الدروز والعوطة والقلمون وجبل الزاوية وحماة وحمص وحلب ، وموقفه من انتخابات عام ١٩٣٢ ، وموقفه من المعاهدة ، ومن الكتلة الوطنية ، والاضرابات ، والوفد السوري ، ومعاهدة عام ١٩٣٦ ، والانتخابات في ذلك العام ، وموقفه من الذين تعاونوا مع الفرنسيين وساهموا في نصرته وتأييده ، وموقفه من قضية فلسطين بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ومن الحرب الثانية وسنيها من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٣ ، وموقفه من انتخابات عام ١٩٤٣ والحكم الوطني من عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٦ ، وموقفه من جيش فرنسا ومفوضي فرنسا ، وموقفه عام ١٩٤٦ من فلسطين والحرب لانقاذها وما انتهت اليه ، وموقفه من جامعة الدول العربية وميثاقها ومنظمة الامم والاشترك في

عضويتها ، وموقفه من الازمات العالمية والازمات الداخلية وغيرها من المواقف التي ترينا طرفاً من الامور التي شغلت الرأي العام وجذبتة الى مشاكلها .

ذكرنا ذلك لأن الرأي العام فيما مضى كان ضعيفاً بل كان معدوماً فصار موجوداً وملحوساً، وكان همساً فصار مدوياً .

### المظاهر الدالة على تطور المجتمع السوري

ان فعالية المجتمع السوري اي حركته ونشاطه وحيويته ظاهرة أو خفية، قوية أو ضعيفة تظهرها امور عديدة كالدين والسياسة والثروة والتشريع والحرب وال عمران، وكذا التعليم والاقتصاد واللغة والاختراع والاكتشاف والبحث والبناء والتنظيم والتشريع والانشاء وغيرها ، مما يقوم به العقل الاجتماعي واليد الاجتماعية.

#### تطور الدين

ففي ناحية الدين يؤمن السوريون على اختلاف ملتهم ومحلهم ومذاهبهم بالاديان السماوية التي تجمعهم على توحيد الاله وعبادته وطاعة اوامره واجتناب نواهيه وهم يزدادون تمسكاً بما فرضته كتبهم السماوية وتأثير ما وجدوا عليه وآمنوا به، يحافظون على الشعائر القائمة والعبادات المفروضة ، يربون أولادهم على حب الاله وحب انبيائه وهم كلما تعلموا وخبروا الحياة ورأوا بواطن المدينة شعروا بضرورة الدين وفضله وحاجة النفس اليه وحاجة الاجتماع الى ازعات تقيهم المفاسد وتنجب الى افراده الخير ومحبة الناس .

#### التطور الحربي

وفي ناحية الحرب وهي قضية تنازع البقاء فالسوريون في جميع أزمنة التاريخ أثبتوا تمسكهم بوطنهم واستقلالهم وسيادتهم ولهذا الغاية تنازعوا الفاتحين

والمحتلين وقاموا سلاطنتهم وحتى اليوم لم يتبدل موقفهم تجاه كل طامع أو فاتح  
ومسيطر بل تطورت قواهم الدفاعية فحرروا بلادهم وانتزعوا من الغاصبين حريتهم  
واستقلالهم، وفرضوا سيادتهم، ولذات الغاية المثلى يعدون أبناءهم وجيشهم بإيمان  
وحماس للحرب ان دعوتهم الدواعي، أولللدفاع ان تعدت عليهم البواغي .

### التطور السياسي

واما تطور المجتمع السوري السياسي فبعد نيل الاستقلال تحول الجهد العام  
نحو تأسيس الدولة وتثبيت كيانها من جهاز الحكم الى التشريع، والتنظيم، الى نشر  
العلم والقضاء على الامية، الى تأمين العلاقات السياسية، الى الاصلاحات في كل أجهزة  
الدولة الى تقوية الدفاع وتأمين الأمن الى رفع مستوى المعيشة وزيادة الواردات  
والثروة القومية .

ومع قصر الزمن بعد الجلاء استطاع المجتمع السوري حكومة وشعباً ان  
يظهر الفعالية الوثابة في التشريع اللازم لنمو الدولة ورفاهية الشعب والعدالة  
الاجتماعية وزيادة الانتاج وتأمين الواردات وتقوية المقومات الاجتماعية والعمل على  
تحقيق المبادئ الديمقراطية، والوصول الى الغايات التي اشارت اليها المقاييس المدنية.

وفي الامور الدولية فقد برزت فعالية المجتمع السوري في دخوله منظمة  
الامم واشترائه في مجيها، ثم في تكوين الجامعة العربية ودعمها وتحقيق اهدافها،  
ثم في قبوله الضمان الجماعي والدفاع الجماعي بين الدول العربية وسعيه لاقامة علاقات  
الود والتعاون على أمن الاسس معها .

ومع ان العالم يسوده الذعر والخوف والقلق من الحرب وويلاتها وتنافس  
الى قلوب امه سموم المذاهب الهدامة فان مجتمعا السوري لا يزال رابط الجأش  
يأبى الاذعان لكل طامع أو مستعمر أو مخاتل يفسد عليه عقائده وخططه التي  
وضها لتقدمه وارتقائه .

## النظور العمراني

والمجتمع السوري من حيث عمرانه ووعيه وتماسك وحداته قد تطور كثيراً عن أزمته الغبار والوحل والسلب والسخره والسجن في الخانات والربط بالجمال كأن افراذه حمير أو جمال وعن زمن النفي والتبعيد والشنق والمجاعات وزمن الارادات السفية وكم الافواه وزمن الحرمان من كل حق قومي أو سياسي، وانتقل الى زمن الحرية والدستور الى زمن فجر العروبة وشروق القومية ورأى بأمر عينه صروح مجده تبنى وثقافته تتسع وعمرانه يشيد وطرقه تعبد ومدنه وشوارعه تنار بالكهرباء وتفرش بالاسفلت والماء يصل تقيماً الى بيته فلا يظلم، والسيارات تنقله الى حيث يشاء، والطائرات تطوف به الفضاء بفعاليتها التي ازال العقبان وهيات المعدات.

## النظور في ناحية الاكتشاف والاختراع

وأما في ناحية الاختراع والاكتشاف والبحث والاستقراء والابداع فما ظهر منه قليل بالنسبة للأمم التي تكاملت فيها المؤهلات ونضج فيها العقل الاجتماعي وتسهلت فيها سبل تحقيق الفكر وما تتطلبه الحاجة لأن الحاجة أم الاختراع ومجتمعنا لا يزال يعمل ويجد في إكمال دور تكوينه ونموه أي دور الاستعداد والتهيئة والاقتراب والتعلم حتى يستكمل نواقصه من علم ووسائل وخبرة وتجربة ومتى أتم ذلك انتقل الى الدور الثاني، دور الصنع والايجاد والاكتشاف والابداع بفعل المنهات الاساسية وهي ( الحاجة الى الغذاء والحاجة الى الوقاية والحاجة الى الزينة والحاجة الى الحماية والحاجة الى الغذاء الفكري والغذاء الروحي ) وكلها مما يأخذ شكلاً اجتماعياً وشكلاً سياسياً وشكلاً نفسياً في المؤسسات الاخلاقية والاقتصادية والدينية.

ولما كان التطور الاجتماعي في كل ما يبناه لا يقاس الا بمقاييس المدينة  
فالأمل ان يظل اتجاهنا الاجتماعي موجهاً لتحقيقها وليس لمعكستها . فالحياة لا يكتب  
لها التقدم والبقاء الا اذا اتبعت الغاية التي أوجدها المبدع وتطورت مع تطور العقل  
وقواعد العلم واتبعت سنن الطبيعة في النشوء والارتقاء وانتخاب الافضل .

### الخاتمة

وفي الاخير اکتفي بما اورده من المظاهر الاربعة التي لا تشكل الا جزءاً  
من نواحي المجتمع اعتقاداً مني انها تربيها مجال البحث للوصول الى المقصود .

ومع هذا فقد بسطت النواحي الايجابية وكان علي ان أبسط النواحي  
السلبية من هذا الجزء اليسير للخروج بنتيجة « هل نحن حقيقة في تقدم أو تأخر  
فان كان الأول فما هي الخطوات لاستكمال اسباب نضوجنا وان كان الثاني فما هي  
الخطوات للرجوع عنه ، ولكن لهذا الثاني شأن آخر وبحث أوفر والمتسع له أقصر  
فلنتركه الى يوم يكون فيه المجال أوسع ولنتذكر ما قاله غوستاف لوبون في كتابه  
روح الاجتماع ( ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالافراد سواء بسواء  
فليس في يدنا ان نحولها فجأة من حال الى حال ، نعم قد يتفق ان تحدث الطبيعة  
تغييراً كلياً فجائياً الا ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا ابداً فلذلك كان حب بعضهم  
للاصلاحات الكلية من اسوأ المؤثرات في الامم مهما دل النظر على حسناتها لانها لا  
تكون مفيدة الا اذا كان في الامكان تغيير روح الامة تغييراً فجائياً والزمان وحده  
هو صاحب هذا السلطان والذي يحكم الناس مجتمعين هي الافكار والمشاعر والعادات  
وكلها امور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والانظمة الا صورة من صور  
النفس العامة التي لنا والمثلة حاجتها واذا كانت القوانين والانظمة صادرة عن  
النفس فهي لن تستطيع تغييرها . »



## نظرتنا الى أدبنا

عمر مجدي  
مدير معارف جاه

= القيت بتاريخ ٢ ايار ١٩٥٢ =

تعمیرات

کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه



في اقباض وحشمة فاذا      خاطبت أهل الوفاء والكرم  
أرسلت نفسي على سنجيتها      وقلت ما قلت غير محشم

قد تمر بنا أيام تقضيها في بهجة ونغرق فيها غرق الثمل في لذة الصبهاء ،  
يباكرها في فتية باصطباح الراح حذاق ، لا يتمثل الا الرؤى الجميلة ، فكل شيء  
رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساقى ولا نكاد ندين آثارها ونلمح انوارها  
حتى نذهب على ألا تعود ، وتمر بنا ايام اخرى يود المرء لو يقسم كل يوم بـدل كل  
لحظة منها الى فصول ، وتقسم الفصول الى شهور والشهور الى ايام لطولها ذلك لأن  
أوقات الملل اوقات ، ولكن أين هي من الذكرى ؟؟ هذا ما نعتقده أو ما يدور  
في خلدنا ، نحس السرور حالمين ولكننا نحس الاحزان أيقاظاً ، والحقيقة ان  
الساعات والايام التي تنسلخ من الاعمار لا تنحدر الى هوة الماضي كما يقولون ولكنها  
لا تكاد تنتهي حتى تقفز الى اكتافنا وتبقى هناك دائماً متمثلة لنا صوراً وتماثيل حية  
بمقدار ما كان فيها من اللذة والألم والتأني والأمل والكتابة والطرب . ان ساعة  
تقضيها الى جانب من تحب راشقاً ما تشاء من أمان وأحلام متمثلة بقول مالك  
بن اسماء :

أمغطى مني على بصري بالحـب أم أنت أكل الناس حسنا  
وحديث أذه هو مما تشتميه النفوس يوزن وزنا  
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لنا

أو قول ابن زيدون لولادة :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك  
يقرع السن على إن لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك  
يا اخا البدر سناء وسنى قرب الله زمانا اطلعك  
إن يطل بمدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

هي غير الساعة التي تقضيها تحت منهر الثلج أو وهج الشمس تنتظر حافلة  
(الترام) أو مع ثقيل تجاس اليه وكأنك تحمل في جلدك منه دملاً ممدماً ، يذكرك  
بقول ابن برد :

وكيف يخف لي بصري وسمي وحوالي عسكريان من الثقل  
قعودا حول دسكرتي وحوالي كأن لهم عليّ فضول مال  
إذا ما قتت صبّخني هلال وأي الناس أثقل من هلال

أجل وكم من شاب يمشي أبداً خافض الرأس كأنما يبحث في الارض عن  
سعادته الضائعة ، وأحلامه المفقودة ، وهو يكاد ينوء تحت سنين قلييلة ؛ وشيخ  
يمشي رافع الرأس لأنه يحمل لسنيه الطويلة ذكريات جميلة ، وتأملات عذبة ، وأنت  
لو سألت (لامارتين) عن زمانه لسمعت منه : ايها الارض قني دورانك ، وأنت ايها  
الساعات قني جريانك ، ولو سألت امراً القيس عن ليله لسمعت منه :

ألا ايها الليل الطويل ألا انجبل بصبح وما الاصبح منك بأمثل

ألا يسمع الفرزدق من الشيب صياحاً وصارخة حين يقول :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصبح بجانبه نهار

ويلوم ابو العلاء من تسأله عنه مستكبرة كارهة بقوله لها :

خبريني ماذا كرهت من الشيب - فلا علم لي بذلك المشيب  
أضياء النهار أم وضح اللؤلؤ أم أم أنه كثر الحبيب

ان الماضي لا يزول كله بل يبقى منه في الحاضر شيء عظيم ، الحاضر نقطة يلتقي فيها الماضي والمستقبل ، وما العمر للفرد واللامم الا سلسلة واحدة تبنى حلقتها الاخيرة على أطلال الحلقات الاولى ، ولو تعمق احدنا في تحليل دقيقة واحدة من حياته لرأى كل ماضيه ، ومتى انقطع عنه المستقبل انقطع عنه الماضي بعد ان تتوالى في مخيلته صورته توالي الصور في مخيلة من يشعر بانقضاء زمنه .

فلتحدث اذن على أننا أبناء الماضي والحاضر بل والمستقبل لا على اننا بقية من بقايا الذكريات كما يريد لي ، فالنفس لا ترضى بالشيخوخة مهما اعترى جثمانها من خطوب وما دام قول أبي الطيب :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيئه      ولو أن ما في الجسم منه حراب  
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرها      وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

أقول ما دام قول أبي الطيب هذا مدوياً. والأدب أيضاً مهما حدث واختلف وتباينت صورته إنما هو امتداد للآداب القديمة واستمرار لها، وان الرقي الادبي الصحيح ومحتاج الى ألا يقطع الادباء والقراء صلتهم بالقديم، ذلك أحرى أن يعصمهم من الغرور ويحميهم من أن يظنوا بأنفسهم الاعجاز والابتكار على حين انهم قد اضافوا الشيء الكثير الى ما ترك القدماء، ولكنهم لم يعجزوا ولم يتكروا وإنما جعلوا انتاج من سبقهم فغلوا في تقدير أنفسهم غلواً كبيراً . « وبعد فهل تكون نظرتنا في هذه الحياة مضطربة فتكون لها مقاييسنا الادبية مضطربة ؟ اما نفوسنا فهل فقدت الثقة بها حتى أضعنا مقومات شخصيتنا العربية - تلك القوة المعنوية التي تغذي المشاعر وتثبت الايمان، وما هي نظرتنا الى أدبنا ما دام الادب الحق صورة صادقة للاجتماع بما فيه من عواطف وأهواء وآراء ومذاهب ووقائع ، وثمره للاضطراب

الفكري الذي كان ولا يزال دليلاً على قوة الإدراك وحياة النفوس، وتمبيراً عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتبني بأدراك العقل لها إدراكاً ولكنها تخلد بالالفاظ وتوضح بالعبارات . وقف بعد أن جاب الشرق والغرب وترجم ما ترجم وخطب ما خطب وهو يحمل على أدبنا القديم الباكي ، المتعرج على الاعتاب، البادي الانانية هذا الادب الكاذب الذي لا يلتمس في اكثره سوى النجيب والهجاء والغزل والمديح ، هذا الادب الذي فقد مقومات الرجولة الحقة ومقاييس الرجال الصحيحة واورد من قصيدة لأبي الطيب قالها في شبابه لا في المدح ولا في الهجاء كما ادعى مطلعها :

كم قتيل كما قتلت شهيد      لبياض الطلى وورد الحدود  
وعيون المها ولا كعيون      فتكت بالتميم المعمود

قوله :

جمعت بين جسم احمد والسق      م وبين الجفون والتسميد  
هذه مهجتي لديك الحيني      فانقضي من عذابها أو فزيدي  
شيب رأسي وذلتي ونحولي      ودموعي على هواك شهودي

ونسي القصيدة كلها، نسي منها ان مفرشه صهوة الحصان وان درعه الحديدية  
أحكمت يدا داود نسجها بل نسي منها قوله :

فاطلب العز في لظى ودع الذ - ل ولو كان في جنان الخلود  
يقتل العاجز الجبان وقد يه - جز عن قطع بخلق المولود  
ويوق الفتى الخش وقد      خوض في ماء لبة الصنديد

ولم يعرف ان للمتبني فلسفة القوة وكان قوياً في حمله على الناس والزمان ، قوياً في احتقاره اللذات الوضيعة ، وطلبه لمعالي الامور ، قوياً في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكثرث لأحداثه ، قوياً في دعوته للناس ان يشوروا ويؤسسوا مملكتهم على حد السيف ، يجد في شعره كل انسان وصفاً لناحية من نواحي نفسه ويرتاح

للاستشهاد فيها بشعره وهما هي ذي الحمرة التي صبغ بها حذته الحمراء أصبحت لوناً  
لكل حرية :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقين الغائم

\*\*\*

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق (شوقي)

\*\*\*

في مهرجان الحق أو يوم الدم مهبج من الشهداء لم تتكلم (شوقي)

\*\*\*

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء (شوقي)

وهو القائل في قوة نفسه ومضاء عزيمته :

يحاذرنى حتى كأني حتفه وتنكزني الأفي فيقتلها سمي

طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض السريجات يقطعها لحي

برتي السرى بري المدى فرددني أخف على المركوب من نفسى جرمي

وأبصر من زرقاء جو لأنني متى نظرت عيناء ساواها علمي

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بني الاسكندر السد من عزمي

ثم تعمق خطيبنا المشهور فيبين انه يكبر من يحتقر الدموع ويمجد الألم من  
الشعراء كألفرد دوفيني مثلاً . وهناك خطر بالي قول هذا الشاعر الكبير على  
لسان الذئب: ونظر الينا والمدى لا تزال الى مقابضها في خاصرتيه - نظر الينا ثانية  
وبدون ان يتحط الى ان يعرف كيف هالك، وبدون ان يصرخ أطبق جفنيه وقضى .

وقول شاعرنا الصغير على لسان أسده :

أنف الكريم من الدنية تارك في عينه العدد الكثير قليلا

والعار مضاى وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيل

فقلت : لا فرق بينهما الا كالفرق بين حقيقة الأسد ولذئب ذلك لانه لم يدرس أدبنا القديم كما ينبغي وحفظ منه بعض الابيات ، ثم اخذ يرددها لانها تلائم ما انطوت عليه نفسه من حكم ممزوج باللؤم والضعف ولم يعلم « ان الذين يزدرون الأدب العربي ويعضون منه يجهلون هذا الادب جهلاً منكراً ، وما كان ابن جهل شيئاً أن يحكم عليه » .

فتننا كل ما هو غربي فلم نعرف الا التزوير اليسير عن حقيقة العقلية العربية واسترسلنا في فتننا حتى سرى هذا الجهل الى راجعنا التقديمية فأصبح الطالب أمل الغد ودعامة المستقبل بعد أن كان يدرس من المتنبى شاعر العنصرية ما يبعث فيه روح القوة والاندفاع ايام المستعمر يكتبني الآن بالقصيدة الواحدة أو الاثنتين: هذه في الرثاء وتلك في المدح بلوكها كما بلوك الادرد قطعة من اللحم التي لا يلبث ان يقذف بها بعد أن يجهد فكيف لا طعم ولا فائدة ، ولقد كنت أتحدث الى تلاميذ لي سنة ١٩٣٩ في أن الحلفاء يشيدون بالطولة التي بيدونها في مهارتهم في الانسحاب من أمام الالمان والفرار عن طريق دونكيرك ، واذا بطالب يذكرني بقول أبي الطيب في مدح سيف الدولة :

أغرّ أعداؤه اذا سلحوا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

واذا به يذكرني بشيء يغيب عن حفظي ، أما الآن فقد تركزت راجعنا التقديمية هذا الطالب يطلب اليك الاقتصار من المقرر له من الشعر على أبيات، ومن الشرح على أسطر فلا يسير مع أبي العلاء في نقده الحياة الاجتماعية نقداً عاماً شاملاً وافياً متقصباً لا يترك ملوكاً ولا امراء ولا رجال دين ولا وعظاً :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

ولا يطير معه طيران استاذنا الهنداوي على مركب الجحججول من كفر طاب أو على صحنه الطائر :

وقد وضع قلعه « الباركر » في جيب قميصه بعد أن جمع جراميزه ، ومشط شعره المصبوغ وهو يصرخ لماذا لا نتطور ؟ لا يرضى بقراءة « رسالة الغفران » ولكنه

يقاوم بينها وبين ما كتبه دائتي ومحبي الدين ويرد ما جاء في القرآن من الفروع  
الى الاصول .

ولقد تجلس الى احدهم فينفض اليك جمل علمه منتفخاً منتفخاً ويخرج  
دفاًن صدره ناطقاً بوحى الآلهة، منتقلاً من هذا الى ذاك : من شكسبير الى موسى  
ومن فولتير الى روسو ، من باتو الى وود ومن ونكلان الى غيره واذا تركته  
وشأنه دون مقاطعته عب عباً به وزاد اصطخابه حتى اذا سألته عن شيء مما له به  
صلة سخر منك ملء شديقه ، ما هو الادب العربي ؟ الخير في إمامته لا في إحيائه ،  
واخذ ما يصلح للبقاء منه ، ثم ان المتنبى شاعر بيت ، وان تفضل جملة شاعر مقطوعة  
ولا أمل ان يكشف الله عن بصيرته فيجعله يعترف له بالقصيدة لأن القصيدة  
العربية القديمة لا وحدة معنوية لها - على زعمه - نحمل حملات تختلف في نوعها  
وقوتها وضعفها ، على الشعر القديم ، نحمل عليه من حيث صحته وعدم صحة نسبته ،  
ونحمل عليه من حيث إنه ثقيل على الذوق ، بعيد عنه في اسلوبه ولفظه وتشبيهاته ،  
ونسى أن هناك اشياء نشأت مع الشعر القديم وانتقلت معه في جميع عصوره ،  
حاولت العصور ان تمحوها فلم تستطع ، وتلك الاشياء تجعل الشعر العربي عربياً  
وتجعله وحدة يشبه بعضها بعضاً ، بمقدار ما يحافظ عليها الشاعر يكون ممتازاً ،  
وبقدر ما يحاول ان يحفظ الصلة بين قديم السنة الادبية وحديثها وان يستفيد من  
خلاصة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرته عقول المحدثين من ثمرات انتجها  
الرقى وأمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف يكون موفقاً .

وبمقدار هذه المحافظة ، وهذا التعصب ، استطعنا أن نبنى نفوساً وقفت  
أمام المستعمر ، اني لن أنسى هذا الطالب الشهيد وهو يحدثني في يوم عاصف وفي  
باحة المدرسة ويسمعني ما كتبه في موضوعه الادبي من شعر قوي ثم بعد ساعة  
أراه مزملاً بالدم مجندلاً مع رفيقه :

لست أنسى حواراه لي يوم الذ - مي والصدق مائل في حواراه  
ملء عينيه للبراءة معنى يتجلى في ثغره واحواراه  
ما ترى في هل أفوز وسعي لك باد والمره رهن اقتداره؟؟

فزت بالمجد يا بني وهذا ال - مرس طفرى التاريخ في اسفاره  
أنت رمز الشباب يهتز للمجد - د فيمشى مغرراً في خطاره

ونهبوا الى استلهم الادب الغربي معرضين عن استلهم الادب العربي بعظمته  
وكبريائه ، ووضوحه ، وهو نتاج مجتمعنا وبيئتنا قديمتها وحديثها مغترين بالاول  
على ما فيه من بعد عن روحنا ، ظانين اننا نسلك طريق التجديد ، والواقع اننا  
ننسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد فليس التجديد في إمانة القديم ،  
وانما التجديد في إحياء القديم واخذ ما يصلح منه للبقاء ، « اما ان ننصرف عن  
واقعية الجاحظ والجاهلي النبيلة الى واقعية تنحدر الى تصوير أحط الغرائز الدنيا  
في الانسان » ، الى رمزية مبهمة غامضة لا يعرف المرء من ورائها فكرة أو معنى ،  
ولا تعنى بمجتمع أو انسان ، ونهيم بهذه الرمزية حتى نحار كيف نخاق من  
ابن الفارض شاعراً رمزياً ، ونستلهم عبقريتنا مرة أخرى فننكر رمزية ابن الفارض  
وأضرابه من المتصوفة ونوجد من الشريف الرضي رمزية بوداير العرب فنجمله  
واضع أسس الرمزية العالمية في الشعر العربي كأن امورنا لا تستقيم الا بهذا التقليد -  
فاذا قال فيرلين زعيم الرمزية : ان التهذبات الطويلة المنبعثة من قيثارة الخريف  
تجرح قلبي بانحطاط مستمر ، كل شيء خانق وباهت ، وعندما تدق الساعة أذكر  
الايام القديمة وأبكي وانطلق مع الريح التي تحملني الى هنا وهناك شديهاً بالورقة  
المائتة . جعلنا قول الشريف الرضي مقابلة للمعنى ذاته :

لا عادت الكأس عليل النسيم	بمدي ولا قضت ختام الهموم
في ليلة غاب معي بدرها	وحاربها في الظلام النجوم
يا ليلة تكسر الحاظها	كأما مكحولة بالغيوم
أحيت شآبيب الحيا منزلا	مات لنا فيه الزمان القديم
كم صبغ الدهر قميص الثرى	وعادرق الارض ضاحي الوشوم
لي في حواشي البرق أنس فلا	أدري أغضي دونه أم أشيم
لو أن قايي مطلق في الحشا	جرى اليها في عداد النسيم



ثم نطبق على شعره فلسفة الادب الرمزي ونجعل صوفية ابن الفارض  
ملتبسة التباساً بالادب الرمزي لان قوام نظمه على المنطق والدليل العقلي لا على  
بسط الافكار من حيث اشتراك الحس الشخصي والشعور الباطن ، ثم تعرفنا هزة  
الابداع انتفاضة عصفور أبي صخر الهزلي :

واني لتعروني بذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

فنتقل متوقلين كراع الرقي كما يقول المهلهل في هجين أعدائه ، رامين كل  
ما مر جانباً باحثين عن « السريالية » ( أو فوق الواقعية ) ولا يكاد ينشر منها نماذج  
في كتاب حتى يظهر فينا شعراء سرياليون ولا ازال اذكر مجلساً لي معهم وقد  
اجتمعوا عند احد الاخوان في حلب واخذوا يبدعون قصائدهم : تراب . رابية .  
نجم . شجرة . جبل . نهر . قبر . قصيدة .

واني لالتفت الى هذا وذاك ضارعاً تارة ، ساخرراً طورا ، شامئاً حيناً ،  
وهم يشرحون كل كلمة محاولين ان يفوقوا غول شعراء السريالية و . . . . .  
واذا كانت حياتنا ايها السادة تقليدية فلا شك اننا في هذا النوع نخرف ونهزي  
بخز عبوات العقل الباطن وهو اجس اللاوعي ونحتفل بأضغاث الاحلام ، وننكر  
المنطق والعقل والشعور و اوضاع المجتمع ! واننا لنؤثر الف مرة ان نعيش في جو  
امرئ القيس اللاهي والنابغة الشاعر المداحة وعروة الصعلوك و ابي نواس السكير  
وابن الرومي الهجاء الوصف والبحثري وعلوة بين بانقوسا وبطياس :

فيها لعلوة مصطاف ومرتبغ من بانقوسا فباتلى وبتيامي  
يا علو لو شئت ابدت الصدود لنا وصلا ولان لصب قلبك القاسي  
أمد كفي لأخذ الكأس من رشاً وحاجتي كلها في حامل الكاس

وفي جو شوقي وحافظ وبشارة ( وأبو ريشه ) وعيسى سليمان على ان  
نعيش في هذا الجو الذي لا نحترم فيه نفوسنا .

جلسنا ثلة من الاصدقاء ، وقد تناولنا الادب العربي بالنقد ، أما الجاهلي  
منه نخشن ، وأما العباسي منه فليس فيه الا المدح والذم وأما المعاصر فلا يساوي

شيثاً ( القديم يجب ان يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالالفاظ ويملاون أفواههم  
 باللقاف والطاء وما يشبهها من الحروف الغلاظ ، والاستمسك به جمود ، والاندفاع  
 في الحياة الى الأمام هو التطور وهو الحياة وهو الرقي ) ومن هو شوقي وحافظ  
 وبشارة وأبو ريشه هؤلاء حاولوا إحياء الشعر العربي القديم والملاءمة بينه وبين  
 العصر الجديد ، ألا تستطيع أن ترد كثيراً من قصائد شوقي وحافظ والبارودي  
 وغيرهم الى البحري وأبي تمام والمنتبي ، كباية الاول وسينيته اللتين قلدهما  
 الاولين كما تقبل أثره في الثانية بشارة الخوري والحوماني وكثير من الشعراء  
 غيرها ، وما زاد الطين بلة أن احدهم يرجع الى العصور القديمة النائية يأخذ منها  
 بمض معانيه ، انتا نعذر مثل ابي تمام في اخذه قوله :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب  
 ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحاب منه أعقبت بسحاب  
 من أوس بن حجر :

أقول بما صبت علي غمامتي وجهدي في جل المشيرة أحطب  
 ولكننا لا نعذر المعاصرين ، وهنا طاب لي الاندماج في جوهم فقلت وهم  
 الآن يسمعون : لقد كنت جالساً أصيل يوم مع عمر أمام قاعة حلب ، الطلل الخالد ،  
 وما كاد يصل الى قوله الرائع في طلله :

قفي قدمي ان هذا المكا - ن يغيب به المرء عن حسه  
 لقد تعبت منه كف الدما - ر وبأت تخاف أذى لمسسه  
 هنا ينفض الوهم أشباحه ويتنجر الموت من يأسه  
 حتى قال لي - وقد رأني افكر - هات ما خطر ببالك ، قلت له :

اخذ بنو لحيان على تأبط شرا الشاعر طريق جبل وجدوه فيه يجني عسلاً  
 ولم يكن له طريق غيره ، فأقبلوا عليه وقالوا : استأسر أو نقتلك فكره أن يستأسر  
 وصب ما معه من العسل على الصخر ووضع نفسه عليه حتى انتهى الى الارض من  
 غير طريقهم فصار بينه وبينهم مسافة بعيدة ونجا منهم ثم قال :

اذا المزم لم يحتل وقد جد جده  
 ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً  
 هما خطبا اما اسار ومنه  
 واخرى أصادي النفس عنها وانها  
 فرشت لها صدري فزل عن الصفا  
 فخالط سهل الارض لم يكدح الصفا  
 أضاع وقاسى أمره وهو مدبر  
 به الخطب الا وهو لتقصد مبصر  
 واما دم والقتل بالحر أجدر  
 لمورد حزم ان فعلت ومصدر  
 به جؤجؤ عبل ومتن مخصر  
 به كدحة والموت خزيان ينظر

فقال لي عمر وقد أشرقت أساريه هو والله ما حزرت وما انتحار الموت  
 من يأسسه في بيتي الا صدى نظر الموت خزيان في بيت ابي زهير . وما كاد ينتهي  
 من كئنه حتى جاجل صوت هو أشبه بصوت زعيم الأدب : ( اني اكاد اتخذ الميل  
 الى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم  
 ينتفعوا بها . فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن انفسهم حين تلهيهم عن أدبهم  
 القديم لم يذوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ولم يفهموها على وجهها وانما  
 اتخذوا منها صوراً وأشكالاً وقلدوا احكامها تقليد القردة لا اكثر ولا أقل . والذين  
 تلتفهم الحضارة الى انفسهم وتدفعهم الى إحياء قديمهم ، وتملاً نفوسهم إيماناً بالاحياء  
 لقطر الا اذا غني بتاريخه القديم . بالأدب العربي قديمه وحديثه عنايته بما يمس  
 حياته اليومية من الوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا وهم الذين فهموا وهم  
 الذين ذاقوا .

وهم القادرون على أن ينتفعوا في إقامة الحياة الأدبية الجديدة على اساس  
 متين . ونظر الي احدم وقال : هل رأيت مثل هذا الادب الختار ومديده الي  
 بكتاب انكليزي فيه مختارات مترجمة من روائع الادب العالمي لاستاذ كبير جامعي  
 في انكلترا واخذ يقلب صفحاته الى ان ثبت نظره في صحيفة وقرأ فقلت له : ترجم  
 فأننا لم أتعلم من اللغة الانكليزية الا بعض الكلمات التي استطعت ان امزجها بالفارسية  
 والافرنسية لأكون ترجماناً لرفيقي في الهند ، ولما ان ترجم لي السطر الاول وهو  
 يهنز رأسه إعجاباً خبرته ان ترجمته حرفية لبيت تأبط شرا يصف صديقاً له :  
 قليب التشكي لهمم بصيبيه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

وكانت ترجمة الثاني :

إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل      له كالى\* من قلب شيجان فاتك  
ويجمل عينيه ربيثة قلبه      الى سلة من حد أخلق صائك  
يرى الوحشة الانس الانيس ويهتدى      بحيث اهتدت ام النجوم الشوابك

ولما ان عرف ان هذه القصيدة موجودة في الادب الجاهلي طلب الي ان  
اكتبها له واعجبه ادبنا كما اعجبتنا قصيدة السهروردي :

ابدأ تحن اليكم الارواح ووصالكم      وريحانها والراح

لما ان القاها على مسامعنا في هذا البلد احد كبار المستشرقين وبهرتنا حتى  
اخذ اشخاص يتقنون عنها وهي اكثر انتشاراً من الفخار في سوق الخابية والباذنجان  
في ( السقطية ) وذكرت ان الدكتور محمود عزمي اراد ان يدخل مسجد خليل  
الرحمن وهو ثاني مسلم مصري متبزنط فلم يجد وسيلة للدخول الا ان يستعير  
طربوش الامتاز خليل السكاكيني المسيحي فكان جواز دخوله وكانت مثلاً يتندر  
به في المجالس ، وهكذا نحن نعرف ادبنا عن طريق الغرب فلولا ترجمة جوت  
لقصيدة تأبط شرا :

ان بالشعب الذي دون سلع      لقتيلا دمه ما يطل

لما لذت لنا هذه القصيدة ولبقيتنا لا يهمننا الا ان ثبت انها منحولة غير ناظرين  
الى ما فيها من رجولة وقوة :

مسبل في المي أحوى رفل      واذا يغزو فسمع ازل  
وله طعمان أري وشرى      وكلا الطعمين قد ذاق كل  
يركب الهول وحيداً ولا يصحبه      الا السيماني الأفل

ولولا الاديب الانكليزي الذي ترجم قصيدة تأبط شرا :

قليل التشكي للمهم يصيبه      كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لما ترحز حنا عن موقفنا من الازدراء بادبنا . أجل لولا بلاشير لما كتب  
طه حسين مع المتنبي ولولا ديمومبين لكان الادب الجاهلي في خبر كان . ولا شك  
ان هذا من ثقتنا بأنفسنا والثقة بالنفس تشد العزيمة وتقوي السواعد وتجعل من  
القلة كثرة حتى يحسب العدو لنا حساباً فتكون كلمتنا في مضامير النضال ( في هيئة  
الامم مثلاً ) هي العليا !!!

وما لنا نذهب بعيداً عن الواقع . لنلق نظرة على روائع النهضة الاوروبية  
الحديثة تلك التي يطلق المؤرخون عليها اسم ( الرونيسانس ) أي عصر الانبعاث .  
ألا نرى ان خول شعراء الغرب قد اتكأوا في أدبهم من شعر ونثر على آثار اليونان  
والرومان . وانهم قد تأثروا بتلك الآداب القديمة الى أبعد حد مستطاع . ألبست  
ملحمة الشاعر الانكليزي شلي وهي ( بروميثوس طليقا ) صدى اسطورة يونانية  
قديمة . ثم ألم يستوح ( بيرون ) و ( لامارتين ) و ( جوتيه ) و ( دوميسيه ) و ( راسين )  
و ( كورني ) وغيرهم آثار اليونان والرومان ويقلدها وتقليداً يفخرون به في أكثر  
الاحيان . ألم يفخر ( داتي ) خلال ملهاته الالهية بمرافقة شاعر الرومان الاكبر  
( فيرجيل ) وبعده منبع وحيه واستاذه الاكبر في رحلته الخالدة . أجل لقد  
عرفوا كيف يجيئون ماضياً بعيداً عنهم ويستفيدون من ابداعه وعبقريته اما نحن  
فاننا ما زلنا نسلخ من ماضينا العربي الاصيل .

اما نظرنا نحن الى ادبنا هذا المزدري فبي : ان في كل ادب عناصر  
انسانية اشتركت فيها الآداب عامة في كل العصور كالحب وما يستتبع من غزل  
واخلاق الناس وما فيها من رفعة احياناً وضة احياناً ، ومقياس مقدرة الامة  
الادبية ليس في نوع ما تعرضه ولكن بمقدار استخدامها لبيئتها في ادبها ، والحق  
ان الامة العربية استخدمت بيئتها في ادبها استخداماً يدعو الى الاعجاب فلم تترك  
صغيرة ولا كبيرة الا أولتها عنايتها وافاضت عليها الطبيعة من فصاحة القول وقوة  
اللسن ما يصح ان تقف به أمام الامم الاخرى مباهية .

برع الادب العربي في وصف المشاعر من حب وجمال وتفان ما شاء له  
التفان في عرض الصور حتى كاد يستوفيها مع قوة روح وحرارة حتى ان هذا

النوع من الأدب لما ظهر في الأدب الاوربي في القرون الوسطى اتجه كثير من النقاد الاوربيين يبحثون عن مصدره في الأدب العربي وكذلك الشأن لما ظهرت في اوربا حركة الرومانتي فقد رأى كثيرون ان له بالشعر العربي علاقة وثيقة .

أعرب عن عواطف الانسان وصور أدق خطرات النفس وأخفى هواجسها ولم يقصر في وصف ما أحاط بالانسان من مظاهر الطبيعة وحوادث الزمان .

والعاطفة في الأدب أبرز سبب من اسباب خلوده . فما كان لمن يذكر أيامه الخوالي وایام طفولته مع من أحب ليعبر بأجمل من قول المجنون وان كانت ليلاه لم تزل في عينه طفلة :

تعلقت ليلى وهي ذات تئام ولم يبس للآتراب من ثديها حجم  
صغيرين نرعي البهم يا ليت انسا الى الآن لم فكبر ولم تكبر البهم

ولذلك الجندي الذي يذكر في مواقف الخطر من يحب بأروع من قول عنتره :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي  
فوددت تقبيل السيوف لانها املت كـبارق تغرك المبتسم

أو قول خالد بن يزيد في رملة :

تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خالخال يـجول ولا قلبا  
فان تسلمي نسلم وان تنصري يعلق رجال فوق أعينهم صلبا  
أحب بني العوام طراً لأجلها ومن اجلها أحببت اخوالها كلبا

وهذا الغزل العربي قد بلغ في تصويره العواطف الانسانية الغاية حتى وجد فيه الصوفية تصويراً لأسمى مداركهم ، الغزل النفسي العالي الذي يسمو بالنفس الى أسمى نزعاتها حتى يكاد يخلعها عن المادة . أليس قول عمرو ابن اذينة :

قالت :

وأبثتها وجددي فبحت به  
ألست تبصر من حولي فقلت لها  
قد كنت عندي تحت الستر فاستتر  
غطى هواك وما ألقى على بصري

أصلا لقول ابن الفارض :

تراه ان غاب عني كل جارحة  
في نعمة العود في الناي الرخيم اذا  
في كل معنى لطيف رائق بهج  
تألفا بين ألحان من الهزج

وما قصر الشعر العربي في وصف الطبيعة واستيفاء ملامحي الانسان والترويح  
عنه فانظر الى ظرف ابي نواس في قوله :

وقصرية أبصرتها فهويتها  
فلما تمادى هجرها قلت واصلي  
هوى عروة العذري والعاشق النهدي  
فقلت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي  
تباع بتقد حاضر وسوى تقصد  
لملك ان تهوي وصالي من بعد  
فقلت : ولو اصبحت نابغة جمدي  
وان كنتُ ذا قبح فاني شاعر

ويسمو الادب العربي الى ذروة الآداب في الاخلاق ولا سيما الاخلاق  
القوية ولعل هذه أروع صحائفه فقد تعنى شعراء الجاهلية بأخلاق الفتيان الامجاد  
وفضائلهم . بالحرية والقوة والاباء والحلم والشجاعة والسخاء والوفاء ومواساة الفقير  
والحذب على الضعيف والتواضع وقوة الاحتمال وإكرام الجار حتى قال عروة بن  
الورد مخاطباً من سخر من ضعف جسمه وهزاله وسمنه وضخامته :

أتمزأ مني ان سمنت وان ترى  
واني امرؤ عافي انائي شركة  
بجسمي شجوب الحق والحق جاهد  
وأنت امرؤ عافي انائك واحد  
أقسم جسمي في جسوم كثيرة  
وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعدد طرفه من سجاياه فبين انه كريم شجاع متلاف ، يمطي نفسه حقها من  
اللهو ، ويعطي الواجب حقه من التضحية :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه  
اذا القوم قالوا : من فتى خلعت اتي  
ولست بحلال التلاع مخافة  
فان تبغني في حلقة القوم تلقني  
وان ادع للجلي اكن من حماها  
خشاش كراس الحيمة المتوقد  
عنيت فلم اكسل ولم أتبلد  
ولكن متى يسترفد القوم أرفد  
وان تلمسني في الحوانيت تصطد  
وان يأتك الأعداء بالجهد أجهد

وأى غوي من شباننا الغواة الذين يعيشون بين الكأس والطاس أي غوي  
لا يجد في هذا تلخيصاً لحياته كلها :

كريم يروي نفسه في حياته  
ستعلم ان متنا غدا أينما الصدي  
وتغني الآخر بالعزيمة والحرم وانه لا يتردد ولا يتلوم وإلا قضى عليه تردده  
وتقاعسه فهو :

اذا هم لم تردع عزيمة همه  
اذا هم التي بين عينيه عزمه  
ولم يستشر في رأيه غير نفسه  
ولم يأت ما يأتي من الامر هائباً  
ونكب عن ذكر العواقب جانباً  
ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

يأبى الضيم والباؤه المضمين ونفوره من الذل جعله محبباً للموت خير له ان  
يموت شجاعاً من أن يعيش ذليلاً جباناً . فالخنساء أم الابطال : تهين النفوس لعلمها  
ان بذل النفوس يوم الكرمية أبقى لها وأخلد وأن الموت سبيل الحياة فلم لا تستهتر  
بالخطار ما دامت الغاية هي الموت :

فانني حيماءك لا اباك واعلمي  
اني امرؤ سأموت ان لم أقتل  
ولم لا يقتحم الخطوب بقلب ثابت وشجاعة بالغة المدى واثقاً من شجاعته  
وبأسه ودرسته وحنكته في حميا القتال انه يبغني من اقتحامه المكاره الحمد والصيت  
والبقاء في عزة وحرية :

لعمر أبيك الخير اني لخادم  
واني لا أشري الحمد أبني رباحه  
لضيبي واني إن ركبت لفارس  
وأترك قرني وهو خزبان ناعس



وهو لا ينكر ان الحرب سجال وان الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فلا  
يظن انه لن يصاب ، ان هذا ظن العاجز لا يكتفم التعبير عن وقائعه في صدق  
وصراحة وقوة في شعر غنائي صحيح والصدق قوة والتمويه عجز :

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا  
وشد وشدة اخرى جفروا بأرجل مثلهم ورموا جونا  
وكان اخي جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا  
فأبوا بالرماح مكبرات وابنا بالسيوف قد انحنينا

والكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء واحتلت منزلة سامية في نفس  
العربي فرشحته للرياسة والسيادة ، المال في ذاته ليس غرضاً ولا قيمة له ان لم يبعث  
به الملهوف ويكسب به الحمد ويحمي به العرض :

المال يغشى رجالاً لا طبياخ لهم كالسيل يغشى اصول الدندن البالي  
أصون عرضي بمالي لا ادنسه لا بارك الله بعد العرض بالمال  
أحتال للمال ان أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال

ولا ريب في ان الكرم والشجاعة خلقان متلازمان فاذا قيل من للامور  
الجسيمة والشدائد والسنوات المحببة لبي النداء رجال عظام العطايا تندي اكفهم  
بالخير فاستمع الى آخر يصف شخصاً بالكرم والشجاعة :

ياقي السيوف بوجهه وبنجره وقيم هامته مقام المغفر  
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فمقرت ركن المجد إن لم تمقر  
واذا تأمل شخص ضيف مقبل متسربل أثواب عيش أغبر  
أوما الى الكوماء هذا طارق تحرتني الاعداء ان لم تنحري

وكرم القلب في الصفح عن السيئة ، والاغضاء عن الخطيئة واللين لخشونة  
الصاحب حتى يستل منه الضغن ويفسل بماء الخلم وخز الفؤاد :

وذي رحم قلعت اظفار ضغنه      بحلمي عنه وهو ليس له حلم  
فان أغض عنه أغض عيناً على القذى      وليس له بالصفح عن ذنبه علم  
انه حلم المقتدرين الاقوياء لأجل الضعفاء والجبناء الذي عبر عنه الممتبي فيما  
بعد بقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدار      حجة لاجيء اليها اللئام  
في الأدب العربي حماية الجار الذي يصبح له مال لكل افراد القبيلة من حق  
ورعاية فلا يميز الجار من جاره وكثيراً ما قرأنا في ادبنا غضب من يرحد عنه  
جاره ويلجأ الى سواه فعل الخطيئة الذي تحول عن جوار الزرقان فكان فعله طعناً  
في كرامة الثاني وسبباً من اسباب النزاع بين ابناء العم وكثيراً ما كانوا يذهبون  
بالجوار الى ما بعد الموت فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار به فقال  
له : آجيري من الانس والجن قال قد أجرتك قال ومن الموت ؟ قال : نعم . قال :  
وكيف تجيري من الموت ؟ قال : ان مت وأنت في جوارى بعثت الى اهلك الدية .  
قال : الآن علمت انك قد أجرتي من الموت . بطول بي القول ان رددت ما لهج به  
الشعراء من اعزاز لهذه المفخرة فما ضر أحدهم أن يكون قليلاً وجاره عزيز : لا  
يعتقد الا انه من القبيلة واليهما واما تليته لدعوة المكرويين في الحرب دون  
تردد وسؤال :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم      في التائبات على ما قال برهانا  
وفك العاني الذي أسر في الحرب      ودفع ما يطلبه من أسره .

وأما الدفاع عن المرأة فروح هذا الادب وجناحه ينافح عنها في الحرب :

على آثارنا بيض حسان      نحاذر أن تقسم أو تهونا  
يقان جيانا ويقان لستم      بعواتنا اذا لم تمنعونا

وفي السلم بعدم التعرض لمن بسوء والمحافظة على عفافها وحرمتها :

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

أما جار اليوم فيمشط شعره ويمسح خديه وقد يصنع شفثيه ليتمسح بجارته  
ويقف في طريقها صباح مساء فأين هذا من حاتم الجاهلي القائل :

وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي يجاورني ألا يكون له ستر  
بمعني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر

ذخر الشعر العربي بهذه المروءة العربية وبذلك الفتوة على مر الزمان وقل  
ان يباشر احد خطباً جسيماً من حرب أو نازلة بالنفس أو المال أو حادثة تمتحن بها  
الاخلاق الا وجد مدداً من الشعر بثبته ويحفزه الى المعالي ويدعوه الى مسكارم  
الاخلاق . ولا ريب أن في ذخائر الشعر العربي الاخلاقي ما يفي بتأديب امة وتنشئتها  
على خير الاخلاق وأحسن السير وليس لأمة من الامم مثل هذا الشعر القوي  
الغزير الكريم السامي .

والأدب العربي القديم من أعرق الآداب وأبرعها في رسم الاشخاص وتصوير  
الطبائع ، وما من عجب في ذلك فهو وليد حضارة ذكية خلاقة ، حق لنا أن  
نستخرج كنوزه المدفونة في كتب أدبنا وأن نبه الى محاسنها فعل الدكتور طه  
حسين وتوفيق الحكيم الذي يبين للناس كيف طبخ لهم هذا اللون من ألوان  
الادب في كتابه ( أشعب ) لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والاباريز من  
حوانيت أربعة مشاهير : الجاحظ ، ابن عبد ربه ، الخطيب البغدادي وبديع الزمان ،  
ملاً يده مما تخير من اطبايها وذهب به الى مطبخ فنه حيث مزجه وخلطه وجعل  
منه عجينة واحدة صاغ منها قصة أشعب المتصلة الفصول ، اقول فعل هذا الرجل  
وأضراجه ولربما تجد في قصيدة لأبي تمام أو المتنبي من ابيات الحماسة البليغة ما لا  
تجد في الف بيت متوالية في منظومة طويلة كالشاهنامة وربما كان في شعر المتنبي  
وحده من الابيات الحماسية القوية ما ليس في منظومة فيها عشرون الف بيت .

ألف المستشرق (براون) أكبر كتاب في تاريخ الادب الفارسي ولم يمنعه  
الحق أن يقول : ان الشاهنامه لا تقاس ساعة بعيون الشعر العربي الجاهلي ، فما  
ظنكم بما أبدع شعراء العرب في هذا الضرب بعد الجاهلية .

يقول الريحاني ان في قصيدة واحدة من قصائد المتنبى لوصفاً للجيش وصوراً  
هائلة من صور الحرب يقصر دونها هوميروس في ألياذته فهل يصح لنا ان نقول  
بعد ما تقدم ان أدبنا كاذب لا نلتمس من أكثره سوى النجيب والهجاء والغزل  
والمديح ، وان مقومات الرجولة الحقة ، ومقاييس الرجال الصحيحة لا دخل  
لشعرائنا بها . أيكون لدينا الشعر الجاهلي بقوته ، والشعر العباسي بسحره والشعر  
الاندلسي برقته ، وهؤلاء الشعراء المعاصرون بمواهبهم وتقنيهم بآلامنا وأحلامنا  
ثم نقف من أدبنا موقفاً ؟

أيها السادة :

ان الادب ولا سيما الشعر منه رسالة الحياة الاولى ، وهي واسعة المدى ،  
مختلفة الانماط أسمى من أن تشملها نظرة مهما تعمقت أو أن يستوعبها قلب مهما كبر ،  
ونحن وإن كنا نرتاح الى قول بشارة :

لوالف المجد سفيراً عن مفاخره      لراح يكتب في عنوانه حليبا  
بعض الجديد الذي يدعونه ادبا      يموت في يومه هذا اذا وهبا

نعتقد أن الروح لا اعتناقية ينبغي ألا تقوت أدبنا ولكننا نسكر أن ننظر اليه  
نظرة احتقار وازدراء فنكون مزدريين لأنفسنا متناسين ماضيها ومن لا ماضي له  
لا حاضر له . والسلام

المراجع : الاغاني - الثقافة - بلوغ الارب - كتب طه حسين - الفتوة عند العرب -  
وكتب غيرها .

# بين الأدب القومي والأدب الإنساني

الدكتور أمجد الطرابلسي

الاستاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

= القيت بتاريخ ٩ أيار ١٩٥٢ =



سيداتي وسادتي :

### فاتحة القول

عندما تفضل مضيفنا اليلة الاديب الكبير الاستاذ الكيالي فاقترح علي هذا الموضوع ترددت في قبوله بادي ذي بدء . ذلك أني كنت مشغولاً بدراسات من نوع آخر لا صلة لها بهذا البحث . وخفت أن يصرفني عنها هذا الموضوع الجديد . فكتبت الى الاستاذ ، حفظه الله ، أنبئه بترددي هذا ، فلم يشأ إرغامي وترك لي الحرية في اختيار الموضوع . ولكنني رأيت بعدئذ أن من أبسط آداب الضيافة أن ينزل الضيف على هوى المضيف ، وأن من أول قواعد المسامرة أن يختار المحدث ما يلذ مستمعيه سماعه . كما أتني - وقد فكرت في الأمر ملياً - تنهت الى أن من الممكن ، إذ لزم الموضوع المقترح ، تصحيح بعض الافكار الشائعة وردّها الى نصابها في هذا الباب . وهكذا عدت الى الموضوع متمسكاً به . وهأنذا اقدم اليكم حديثاً موجزاً في هذا المعنى ، أقدمه وانا اعترف أنه ليس لي منه إلا الصيغة واللقاء . أما اللباب فمنكم واليكم . فأديبكم هو الذي اقترح الموضوع وهدى الى الفكرة . وقدماً قال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

سيداتي وسادتي :

### القومية والانسانية

يقول شاعرنا الكبير الرصافي - رحمه الله - في أبي العلاء المعري :

لا تقل : شاعر العرب إنه شاعر البشر

وربما استشم من هذا القول ، أو من عنوان حديثنا اليملة ، أن هنالك تقابلاً - إن لم نقل : تناقضاً - بين القومية والانسانية . وقد يكون من الخير ان نتبين حقيقة الصلات بين هاتين النزعتين ، فذلك ما لا بد منه لموضوع مثل موضوعنا . ولكن الوقت لن يتسع لمثل هذا البحث الأخلاقي الفلسفي . لذلك سنتحاول البقاء في دائرة الادب لا نتعدها .

### تعريف الفن وطابعه الفردي

إن الفن - كما يعرفه بعضهم - هو التعبير عن التجارب أو الإدراكات أو الاحساسات الفردية البريئة غير النفعية . إن هذه التجارب التي هي مصدر لكل أثر فني ، توصف بالفردية لأنها تتكوّن لدى رجل الفن دون أن يشاركه فيها سواه . وتوصف بالبراءة لأنه لا غاية لها سوى الإدراك نفسه أو الاحساس نفسه . يقول علماء الجمال في تمثيل براءة الهدف الفني : ان المتنزّه المتعب ، اذا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام غابة ذهبها الخريف بألوانه البديعة ، لم يفكر الا في الراحة التي سيستسلم اليها جسمه المكدود في ظلال تلك الاشجار الوارفة . وأما تاجر الاخشاب فانما يذهب به الفكر أمام هذا المشهد عينه الى تخمين المبالغ التي يمكنه كسبها من استثمار اشجار تلك الغابة . وأما رجل الفن فانه يكتبني بتمثل هذا المنظر ويتبى نفسه في تأملاته البريئة .



## الطابع الاجتماعي للفن

ولكننا نرى الفنون - وغنم طابعها الفردي الذي تحدثنا عنه - تمثل المجمع الذي تظهر فيه وتتجاوب معه الى حد بعيد . لأن الفن هو في كنهه ظاهرة اجتماعية . ولا يعقل تصور الادب أو أي فن آخر إلا في وسطه الاجتماعي . والادب - شأنه في ذلك شأن كل الفنون - ليس مجرد تجربة وإدراك ، بل هو كما قلنا تعبير عن هذه التجربة أو هذا الإدراك ، ثم هو بعد ذلك نقل وايصال لهذا التعبير . ومن قال : تعبير ونقل وايصال ، قال : مجتمع وحياة اجتماعية . فالاديب - وان ظن انه يعبر عن إحساساته الفردية - انما يعبر في الحقيقة عن العالم الخارجي المحيط به ، وهو - بالتالي - يساعد هذا العالم الخارجي على التقارب والتمسك ، وذلك يجعله اياه يشترك في تقبل إحساسات فرد من افراده . إذ أن اشتراك جماعة من الجماعات في استحسان قصيدة أو ديوان شعر أو تمثال أو لوحة أو لحن من الالحن ان هو الا رابطة جديدة تزيد في تضامن افراد هذه الجماعة . ومن هنا قيل عن الشاعر القديم : انه يمثل قبيلته ، وعن الشاعر الحديث : انه ينطق بلسان امته . ومن هنا أيضاً كان الادب من أئمن الذخائر القومية . وكم من امة عريقة في الفكر والادب ، عصف بها الدهر في احدى جهلانه ، فقوَّض مجدها ودك استقلالها وفتح ابوابها للغزاة عصوراً طويلة ، فلم تياس ، بل فزعت - فيما فزعت اليه للدفاع عن كيائها - الى أدبها وتراثها الفني ، فعضت عليه بالنواجذ ، واكثرت من تدارسه لاعتقادها أن في إبقاء أدبها حياً ماثلاً في القلوب استمراراً لمقوماتها كأمة ، وسنداً لنضالها القومي . وهذا ما فعلته أمتنا العربية في محنتها . وهذا ما فعلته الاممة البولونية عندما تقسَّمتها الدول في الماضي ، وهذا ما فعلته اليونان والهند قبل نوالهما استقلالهما . وهذا ما فعله اليوم الهند الصينية وكثير من الشعوب المنكوبة بسيادتها وكيائها القومي .

## الطابع الانساني للفن

وإذا تابعنا المحاكمة في هذه الطريق ووسّعنا أفقها رأينا أن الفنون - رغم طابعها الفردي - لا تكتفي بتمثيل المجتمع القريب أو الأمة ، بل هي كثيراً ما تطمح - من وراء المجتمع ومن وراء الأمة - الى التجارب والانسانية كلها . فهي لا يقنعها أن تكون رابطة قومية وحسب ، بل كثيراً ما تسمو الى أن تقرب بين الانسان والانسان مهما تباعدا في الزمان أو في المكان أو في الجنس . ولا احسبني بحاجة الى أن أضرب الأمثلة الكثيرة على هذا الطابع الانساني الذي يطبع الادب والفنون الجميلة كلها احياناً فوق طابعها القومي الاجتماعي : فما اكثر الشعراء والكتّاب والمصورين والمثاليين والموسمقيين الذين انتزعوا إعجاب العالم فلم يعودوا ملك امتهم وحدها بل غدوا مفخرة الانسانية جمعاء . وترجمت الآثار الأدبية الرائعة الى لغتنا والى لغات العالم جميعاً في القديم والحديث ، أليست وحدها دليلاً كافياً على انسانية الادب ؟ ولهذا قال الفيلسوف اوغست كونت : « إن فن الأمة هو الجزء الوحيد من لغتها الذي في وسع العالم جميعه أن يفهمه . » وهذا ما يحسن بنا ان نفهمه من قول شاعرنا الرصافي :

آداب كل معاشر كملومهم جلت عن الاوطان في استنسابها

## القيم الانسانية المشتركة

قد يبدو من المستغرب لأول وهلة أن يصبح الادب - وهو في طابعه الفردي الذي تحدثنا عنه - لغة عالمية ورابطة إنسانية . ولكن هذا الاستغراب يزول من نفسه اذا تذكرنا أن هنالك قيماً انسانية مشتركة لا تبالي الزمان والمكان ، تحفق لها القلوب جميعاً : كالحب والاعجاب بالقيم الجمالية المتنوعة ، والنقمة على الظلم ، وعاطفة الابوة ، والصدقة ، والوفاء ، وتمجيد البطولة والتضحية وغيرها من المشاعر الانسانية . فاذا كانت التجربة الفنية الفردية من هذا النوع الانساني

الاصيل ، وأحسن التعبير عنها ، أمكنها أن تتردد في أجواء الانسانية على مر الزمن . وما أجمل ما قاله الشاعر الفرنسي هوغو في التعبير عن هذه الوحدة الانسانية . قال :

« ليس لأحد منا الحق في أن تكون له حياته الخاصة به . إن حياتي هي حياتك ، وحياتك هي حياتي . إنك ستحيا ما دمت انا حياً ، إن هذا القدر الذي فوقنا واحد . وأسفاه ! إنني لأتحدث عنك أنت عندما أتحدث عن نفسي فكيف لا تشعر بذلك ؟ ما أبلد شعورك يا من تظن أنني لست إياك ! »

وعلى مثل هذا الوتر يضرب ابن الفارض حين يقول في تأييده :

فلا حي إلا عن حياتي حياته وطوع مرادي كل نفس مريدة  
ولا قائل إلا بلفظي محدث ولا ناظر إلا بناظر مقلتي  
وكلمهم عن سبق معاني دائر بدائرتي أو وارد من شريعتي

### لا تناقض بين القومية والانسانية في الادب

وهكذا ترون ايها السيدات والسادة أنه ليس هنالك تناقض محتم بين الادب القومي والادب الانساني . وليس من الضروري حتماً أن يكون الادب إما قومياً وإما انسانياً . بل إنه من الممكن ومن المعقول ومن الطبيعي أن يكون الادب قومياً وانسانياً في آن واحد . وليس الفرق بين الادب القومي الصرف ، والادب القومي والانساني إلا في اتساع الافق وبعد الصدى الاجتماعي . وقد يكون في وسعنا أن نتصور أدباً قومياً صرفاً يستثير الحماسة الفنية ضمن النطاق القومي ولا يستثيرها لدى الاقوام الاخرى . ولكن من العسير علينا أن نتصور أدباً انسانياً غير قومي البتة . لأن الادب كما قلنا ظاهرة اجتماعية فلا بد له أن يعكس ما حوله ، ولأن المجتمع الضيق ، أو القوم ، أو الامة ، هو المنعكس الاول للتجربة الفنية ، والطريق التي لا بد من سلوكها لبلوغ الافق الانساني .

## انغماس الادب في الخلافات القومية

إن ما يُخجل الينا أحياناً أنه خلاف أو تناقض بين القومية والانسانية إن هو في الحقيقة الاختلاف بين قومية وقومية لا بين القومية والانسانية . وهو خلاف عارض له شروطه وظروفه الخاصة ويزول بزوال هذه الشروط والظروف . وقد يعادي قوم قومياً ويجهرون بهذا العداء ، ولكننا لم نسمع أن قومياً جهروا بعدائهم نحو الانسانية كلها ، بل هم على العكس يستشهدون الانسانية أبدأً على حقهم ويستعدونها على خصومهم .

وقد ينغمس الادب في هذه الخلافات التي تنشب بين امة وامة ، كما ينغمس في الخلافات التي تثور بين جماعة وجماعة في الامة ذاتها ، فيشتد إذ ذاك لونه القومي . وربما أصبح آتئذ في نظر الانسانية أداة للتفرقة بدلاً من أن يكون أداة للتقريب والتوحيد كما ذكرنا آنفاً . ولا شك أن مثل هذا الانغماس ضرورة قومية وطبيعة فنية . وأمثلة هذا الادب القومي أو الحزبي كثيرة في شعرنا القديم والحديث وفي شعر غيرنا من الأمم . وربما استطاع هذا الادب ، رغم انغماسه في الخلافات القبلية أو الحزبية أو القومية ، أن يحتفظ بطابعه الانساني اذا كان على حظ كبير من صدق التعبير وحرارة الحياة وكإل الأداء . ولا أدل على ذلك من خلود كثير من الملاحم ، كالإلياذة التي ليست في حقيقتها إلا تمجيداً لذكرى حروب ( طروادة ) وتخليداً لأبطالها ، وكقصص عنتره - أو بالأحرى عنتر - التي ليست إلا تمجيداً لمعارك داحس والغبراء وغيرها من وقائع هذا الشاعر الفارس .

## ترفع الادب عن الخلافات القومية

وقد نرى الادب أحياناً في مثل هذه الخلافات العارضة بين جماعات الامة ذاتها ، أو بين امة واخرى ، يترفع عن أن يكون أداة للتفرقة فيدعو الى التسامح والتعاطف ومسح الاحقاد . وهذا ما يكون أدعى الى احتفاظه بطابعه الانساني .

## بين غاندي وطاغور

لما لجأ غاندي زعيم الهند الى سياسة اللاتعاون ومقاطعة الاجنبي الظالم اقتصادياً وعسكرياً أنكر عليه بعض المفكرين أخذه بهذا الاسلوب النضالي العنيف . وكان من اكبر لأمي غاندي على سلوكه هذا شاعر الهند ( رابندراناث طاغور ) الذي كان يخشى ان تؤدي هذه الدعوة الى بتر الهند عن العالم فكراً وقلباً فكتب يقول :

« لا أحب أن يكون منزلي محاصراً من كل جانب ، ولا أن تكون كل نوافذه موصدة . ليس ديني دين سجن ، إن ديني لا يوصد ابوابه الا أمام وقاحة كبرياء الجنس والدين واللون .

« إن الطائر اذا أيقظته أضواء الفجر لا ينفق لحظات نهاره الاولى كلها في البحث عن الغذاء . بل هو يخفق بأجنحته ليحجبه داعي السماء ، بينما تسكب حنجرته في النور الجديد اناشيد الفرح .

« إن الانسانية الجديدة ترسل الينا بنداؤها ، فلتجها نفوسنا بلغتها . إن اول واجب علينا اذا بزغ الفجر أن نتذكر الواحد الأحد الذي لا يفرق بين طبقات البشر وألوانهم . فلندعُ الذي يهب عباده الحكمة أن يجمع شمل بني الانسان في تفاهم حق . »

هذا بعض ما قاله طاغور في لوم غاندي ، ولكن هذا لم يثن غاندي عن خطته في النضال القومي . واليك بعض ما كتبه غاندي في الرد على انسانية طاغور:

« عندما يتساقط من حوالي جوعاً لا يجوز لي أن أفكر بغير تغذية الجياع .

أما الشاعر فانه يعيش اغده لا ليومه . وهو يريد منا أن نخذو حذوه فيلوح لأعيننا المسحورة بصورة الطير الذي يستيقظ ليرتل آسايحه ويرفرف بجناحيه نحو السماء .

« إن هذه الطيور قد أصابت نصيبها من الغذاء وهي إذ تطير إنما تضرب  
الفضاء بأجنحة نالت قسطها من الراحة وتجدد الدم في أعراقها طوال الليل .

« ولكنني قد أتيت لي أنا أن أتألم لرؤية طيور فقدت قوتها فلم تعد ترغب  
في تحريك أجنحتها . إن الطائر الانساني تحت سماء الهند ليستيقظ صباحاً وهو أشد  
ضعفاً منه حين تظاهر بالنوم أول الليل . إن حياة الملايين من الهنود ليست الا  
سهاداً وإغماء متواصلين . لقد استحال عليّ أن اخفف من حدة آلام هؤلاء بالغناء .  
فلنعطهم عملاً لياًكلوا منه . »

وهكذا اصطرع الشاعر العظيم والزعيم العظيم . ولعمري إن غاندي في  
قوميته وفي تفتير قلبه لمظالم شعبه كان أعمق انسانية من انسانية طاغور .

### بين لا مرتين وموس

وهاكم ايها السيدات والسادة مثلاً آخر لتثبت الادب احياناً بالفكرة  
الانسانية وترفعه عن الانغاس في الخلاقات القومية :

في عام ١٨٤٠ نشب خلاف بين المانيا وفرنسا حول المسألة الشرقية . فنظم  
الشاعر الالماني ( نيقولا بكر N. Becker ) قصيدة عنوانها : ( انشودة الريف )  
يتحدى بها الفرنسيين . وكان كل مقطع من مقاطعها يبدأ بالعبارة التالية :

« لن يكون لهم ابدأ ، هذا ( الريف ) الالماني الحر ! »

فانبرى للرد عليه شاعران فرنسيان من اكبر شعراء ذلك العصر : أولهما  
الفرد دوموسه . وقد قابل هذا التحدي بمثله ونظم قصيدة عنيفة عنوانها ( الريف  
الالماني ) يقول فيها :

لقد سبق أن امتلكننا نهركم الالماني هذا !  
ولئن نسيت ذلك فلا شك أن فتياتكم قد احتفظن بذكرانا

إذ هن اللواتي كن يسقيننا خمر كم الابيض اللذيذ .

ولا بد لنا نحن الإبناء ، أن نمرّ حيث مرّ آباؤنا !

والشاعر الثاني هو (لامرتين) . ولم يشأ ان يزيد كغيره في حدة الخلاف

الطاريء ، فنظم قصيدته الفخمة التي سماها ( مارسيليز السلام ) . وفيها يقول :

« تدفق حراً رائئاً بين ضفتيك الفسيحتين ايها اليرين !

« واحمل في طياتك هذه الحقوق والمطامع التي تغمر صدور هذه الامم التي

ترتوي من مياهك .

« يا ابناء هذه الامم ! هل يقف الحب حيث تقف اقدامكم ؟!

« إن الأثرة والحقد وحدهما لهما وطن . أما الاخوة فلا تعترف بالاطوان »

وكلا هاتين القصيدتين من صميم الادب الفرنسي القومي . وقد تكون

قصيدة (موسه) نالت من الشهرة حين نظمها فوق ما نالته قصيدة زميله (لامرتين)

ولكن قصيدة لامرتين ثبتت فيما بعد خالدة في سجل الادب الانساني . وهو شرف

لم تظفر بمثله القصيدة الاخرى .

ولم يكن ذلك لضعف شعور لامرتين القومي . فكل من قرأ شعر

لامرتين عرف مدى حبه لوطنه وعبادته كل بقعة من بقاعها . ولكن وطنيته كانت

من النوع النبيل السامي . ولامرتين هو القائل في معرض آخر :

« هنالك وطنيتان : إحداهما مؤلفة من جميع الاحقاد والضغائن الموروثة

التي تحملها الشعوب بعضها لبعض . إني أكره وأحتقر الامم المجاورة أو المنافسة

لأمّتي فأنا اذاً وطني .

هذه هي الحكمة البربرية التي اتخذها بعض الرجال اليوم شعاراً لهم . إن

مثل هذه الوطنية لا تكلف صاحبها غالباً ، بل يكفيه من اجلها أن يكون جاهلاً ،

وأن يشتم ويحقد . اما الوطنية الثانية فهي على العكس مؤلفة من كل الحقائق  
والمواهب والحقوق التي هي مشاع بين الناس . إن هذه الوطنية التي تبدأ بتقديس  
وطنها الخاص تسمح لعطفها أن يتجاوز الحدود والاجناس واللغات . انها وطنية  
الاديان والفلاسفة ووطنية قلوب عظماء الرجال . »

### موقف زهير في صرب راحسى والغبراء

وقديماً وقف شاعرنا العربي زهير موقفاً يشبه موقف لامرئين هذا ،  
وذلك حين راعه أن يرى الدماء تسيل هدرًا من جراحات القبيلتين الاختين عبس  
وذبيان في حرب داحس والغبراء ، وحين راعه أن يرى الشعراء من الطرفين  
يلغون في هذه الدماء ، فنظم معلقته المعروفة في الدعوة الى الصلح وحقن الدماء  
وتمجيّد المصلحين والتكريه بالحرب وبيان ويلاتها مما أدخله في سجل شعراء  
الانسانية الخالدين .

\* \* \*

### الادب القومي وشروطه

نستنتج مما تقدم ايها السيدات والسادة أن الادب اذا تجاوب ونفسية الجماعة  
التي ينتمي اليها الاديب اصطلاحنا على تسميته أدباً قومياً . وليس من الضروري ان  
يكون الادب في الدفاع الصارخ عن القومية حتى نسماه قومياً ، بل إن قومية  
الادب هي قبل كل شيء في تمثيله المجتمع الذي يحيط به . والشروط التي يجب توفرها  
في الادب ليكون قومياً هي نزاهة الاحساس ، وصدق التعبير عنه ، والقدرة على  
النقل والايحاء ، والبقاء في محور الامة فكرياً وعاطفياً واعوياً . وهنا يسقط دفعة  
واحدة من حساب الادب القومي ، بل من حساب الادب نفسه ، كل هذا الرصف  
اللفظي المزركش البارد المقلد الذي لا يمت الى القلب بصلة ، والذي يخرج من  
شفتي صاحبه ليتبدد في الهواء . وهنا يسقط ايضاً من حساب الادب القومي كثير  
من أدب المدح والهجاء والتهاني الرسمية حين لا يكون له حافز الا الانانية والنفع ،



وحين لا يكون فيه كثير من الاخلاص أو التمثيل الصحيح للمجتمع . أقول :  
كثير من هذا الادب ، ولا اقول : كله ، لأن كثيراً من مدائح المتنبى لسيف الدولة  
ومدائح أبي تمام للمعتصم وأهاجي ابن الرومي لأبناء عصره كانت صدى عميقاً  
لعواطف المجتمعات العربية والاسلامية آنئذ ، وما يزال اكثرها يتجاوب وعواطفنا  
حتى اليوم .

### الادب الانساني وشروط

وإذا استطاع هذا الادب القومي أن يسمو ويتسع أفقاً فيتعدى الحدود  
الضيقة ويستجيب للعواطف الانسانية الأصيلة وينقل احساسه من المجتمع الذي  
يظهر فيه الى المجتمعات الاخرى اصطلاحنا على تسميته أدباً انسانياً . والشروط التي  
يجب أن تتوفر في الادب الانساني هي مبدئياً الشروط نفسها التي يجب ان تتوفر في  
الادب القومي الحق ، والفارق الحقيقي بينهما هو فارق نسبي بمعنى أن الادب  
الانساني هو أفدر على الايماء والايصال من الادب القومي . وهو دائم الاتصال  
بالقيم الانسانية الخالدة .

ويخطئ من يظن أنه ليس في وسع الادب السمو الى أفق الانسانية الا  
بالابتعاد عن اللون المحلي أو القومي . وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيراً  
ما كان الادب أصدق انسانية اذا كان أصدق قومية . ذلك أن الابتعاد المصطنع  
عن القضايا القومية والالوان المحلية يُخرج الادب عن نزاهته وصدقه . والنزاهة  
والصدق شرطان اساسيان من شروط الادب القومي ، بل من شروط الادب بلا  
تحديد . واذا عدنا الى قصصنا وأشعارنا الحديثة التي كتبت لها أن تترجم الى  
اللغات الاخرى وان تتجاوز حدودنا القومية وتندمج - ولو الى حد - في التراث  
الادبي الانساني ، - وذلك ككتاب الايام لطله حسين ، و كبعض تمثيلات شوقي  
وآثار تيمور وتوفيق الحكيم و'نعيمة - أقول ، لو عدنا الى هذه الآثار لرأيناها  
بوجه عام من أصدق آثارنا الادبية الحديثة بيئتنا القومية وبألواننا المحلية .

## الدولة عن الإنسانية الأدب

ولو طلب اليانا أن نبيّن أبرز دلائل الانسانية في الادب لذكرنا الدليلين التاليين :

١ — الديمومة : أما الدليل الاول فهو ديمومة الادب الانساني - إذ يبعد ان تختفي من سماء الشهرة بعد اليوم هذه النجوم الساطعة التي ما زالت تلمع فيها منذ قرون عديدة كالمعري ، وشكسبير ، ودانتي ، وابن الفارض ، وموليير ، والمتقي وغيرهم كثير .

٢ — الاحتفاظ بقيمته مترجماً الى اللغات الاخرى : وأما الدليل الثاني على انسانية الادب ، فهو قدرة هذا النوع من الادب على إثارة النشوة الفنية في نفوس الناس جميعاً ، مترجماً الى لغاتهم . ولا تبالن بعد ذلك ايها السيدات والسادة بما قاله سيد كتابنا الجاحظ ، ولا بما ردده الناس بعده من استحالة ترجمة الشعر .

فالادب ليس كله شعراً . كما أن الموسيقى ليست هي كل شيء في الشعر . فهناك حرارة القيم الانسانية الخالدة التي هي اكثر اصالة في الشعر من العنصر الموسيقي ، تلك القيم التي قلنا انها تجعل من الادب بوجه خاص والفن بوجه عام اللغة الالهية الطبيعية الوحيدة . وليس هنالك على وجه البسيطة أمة لا ترتعش نشوة عندما تقرأ هوميروس أو عمر الخيام أو الف ليلة وليلة في لغتها شعراً أو نثراً .

## الانسانية رابطة فكرية

وليس بمجيب أبداً أن يكون للادب مثل هذا الطابع الانساني وان يصبح من أمتن الروابط الانسانية ، إذ ان الانسانية في الحقيقة رابطة فكرية صرف لا رابطة عرق او جنس او لحم ودم . والقيم الانسانية الاصلية المشتركة التي تحدثنا عنها هي التي تربط الانسان بأخيه الانسان ، لا العصبية المختلفة . ولعل الادباء

ورجال الفنون كانوا أسبق الناس الى إدراك وحدة مواهبهم والى تمثّل هذا  
التعاطف الانساني الشامل . وما احلى ما قاله ابن قتيبة في هذا المعنى :

« ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به  
قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده . »

وفي اليابان جمعية اسمها جمعية ( الخيزران الابيض ) سميت بهذا الاسم لانها  
تجتمع تحت ظلال اشجار الخيزران في جبل ( اكاجي ) . ومبدأ هذه الجمعية ان  
الفنون الجميلة مظهر العبقرية الانسانية المتحررة من العصبية والتقاليد الضيقة ،  
وان الفن هو لغة الحقائق الانسانية الخالدة . ومن اهم اهداف هذه الجمعية نشر  
الآثار الفنية العالمية في اليابان . وقد اتخذ افراد هذه الجماعة من ذكريات ميلاد  
عظاء رجال الفكر والفن في العالم اعياداً سنوية لهم .

وهناك مؤسسة اخرى لها اليوم فروعها في كثير من انحاء العالم ، وقد  
جعلت شعارها : ( عالم واحد لذوي المواهب ) . ولا ننسى اخيراً منظمة اليونسكو  
التي تزعم هي ايضاً بدورها ان غايتها خدمة السلام والتمهيد له عن طريق التعاون  
الفكري بين الامم .

كل هذا يقوم دليلاً ايها السيدات والسادة على ان الانسانية هي رابطة  
فكرية قبل كل شيء . فلا عجب اذا اتخذت الفنون - ومنها الادب - هذا الطابع  
الانساني الذي تحدثنا عنه .

سيداتي وسادتي :

تطبيق ما تقدم على الادب العربي :

يخيل اليّ ان إطار الموضوع قد اتضح لنا بعد هذا الذي قدمناه ، ولم يبق  
علينا الا ان نطبق هذه المصطلحات والمفاهيم على ادبنا ، لا لئلا نرى أهو ادب قومي

أم انساني ، فمثل هذا السؤال لم يعد متفقاً مع ما تقدم ، ولكن انرى : هل في ادبنا القومي ما يمكن اعتباره ادباً انسانياً ؟

### الآثار الثانوية في الادب العربي

إن الادب العربي - كمثل أدب خصب عريق مثله - بحر زاخر يعجز الباحث الفرد ان يضم ما بين شواطئه في نظرة واحدة . ومن المعقول ان تختلف قيمة الآثار الفنية التي يجمعها هذا البحر الخضم والتي شهدت العصور الكثيرة المتتابعة ظهورها .

ففي ادبنا كثير من الآثار الثانوية التي هي ضعيفة الصبغة القومية من جهة ، وفقيرة بالحرارة الانسانية من جهة ثانية . هذه الآثار قد تفسح لها مجالاً في دراساتنا الادبية والتاريخية ، وقد نعي بنشرها وإحيائها وبذل الاموال الطائلة في سبيلها ، لأنها من النوع السامي الخالد ، ولا لكونها تتجاوب وعواطفنا القومية بشدة ، ولكن لأن الدراسات التاريخية لا تستهين بشيء . وكل أثر ادبي ، مهما ضؤل ، مفيد في توضيح معالم تاريخ الادب . ولا اعتقد اننا في حاجة الى ان نشير الى هذه الآثار ، فتاريخ ادبنا مملؤ بأسماء المغمورين . وهؤلاء يمكن ان يظهر وا في كل عهد ، ولكنهم يكثران خاصة في عصور الانحطاط وفي العهد الذي يفتقر فيها النشاط القومي وتنحل فيها مقومات القومية . واذا رأينا بعض المؤسسات العلمية اليوم تغي بنشر دواوينهم وإخراج آثارهم الى النور بعد ان اختبأت زماناً في زوايا النسيان فما نحسب ان هذه المؤسسات تفعل ذلك ثقة منها بالقيمة المطلقة لهذه الآثار ، وانما تفعل ذلك لأن إخراج هذه الآثار ضرورة لا بد منها لسد بعض الثغر في تاريخنا الادبي .

### ادبنا القومي

وفي ادبنا آثار أعلى طبقة وأنبض بالحياة ، كانت تتجاوب والعصر الذي

ظهرت فيه أي تجاوب ، ولا تزال حتى اليوم - رغم توالي العصور - نقرؤها فنتنسم فيها الحياة ، كمعظم شعر الجاهلية و صدر الاسلام في الهجاء والفخر والوصف والنسيب . وخير ما يمثل هذا الشعر في نظري ( ديوان الحماسة ) . إنا لنقرأ اشعاره فنلمح فيها صوراً مفعمة بالحياة تمثل العربي الصريح في سلمه وحرية ، وخصوماته وعصبانيته ودفاعه عن قوميته القبلية ، وتنعكس مثله العليا في الحياة ، وتمثل بيئته و صحراؤه أعنف تمثيل ، حتى لنحس من خلالها وهج الظهيرة ولذع الرمال وصفاء الليل وهمس النجوم ورجع الحداء . اننا لنجهد أنفسنا عبثاً حين نحاول أن نجد عصرراً من عصورنا الادبية أثبت صبغة قومية من عصور الجاهلية و صدر الاسلام .

### ادبنا الانساني

واخيراً فان في ادبنا آثاراً هي في قمة السمو فهي تتجاوب بشدة مع الجماعة والعصر اللذين نشأت فيهما . ولكن تجاوبها هذا لم يكن مع النزعات العارضة والاحساسات العابرة ، بل مع ما هو عميق عميق ، وشامل شامل في النفس الانسانية ، فهي لذلك ما تزال الى اليوم تهز اعماقنا . وستهز اعماق الاجيال بعدنا الى الأبد . وهي لذلك ايضاً - على صبغتها القومية الثابتة - قد تجاوزت الحدود لتنصهر في التراث الفني الانساني الباقي على الدهر .

### أمثلة لتميز النبرة الانسانية من النبرة القومية في ادبنا :

أراني هنا في حاجة - ايها السيدات والسادة - ، قبل ان اعرض عليكم مواطن الانسانية في ادبنا ، الى ان اضرب بعض الأمثلة لتميز النبرة القومية الصرفة من النبرة القومية الانسانية .

### مثال من معلقة طرفه :

لنأخذ معلقة طرفه ، فهي من أجمل آثار شعرنا القومي ، وهي تمثل حياة

البادية والفتوة العربية المتمردة أروع تمثيل . وقد قال المعري في رسالة الغفران مخاطباً طرفة بلسان ابن القارح : « لو لم يكن لك أثر في العاجلة الا قصيدتك التي على الدال ، لكنت قد أبقيت أثراً حسناً . »

يبدأ طرفة داليتها هذه بذكر محبوبته خولة وأطلالها . ثم ينتقل الى وصف ناقته التي يمضي بها الهم عند احتضاره فيصفيها وصفاً لم يجارده قبله أو بعده شاعر آخر في مثله . فهو يصف سيرها وسرعتها ، واتباعها الوظيف الوظيف فوق الطريق المعبد ، ثم يصفها وهي ترمي بين رفيقاتها ، ويتفان في وصف ذيلها الذيل المنبسط كجناحي النسر ، ثم يصف كل أجزاء جسمها : أخلافها ونفثها وأضلاعها ومرفقيها وقوائمها وكتفيها ، وآثار الأنساع في ظهرها وجنبها ، وعنقها ورأسها وخبثها وعينها واذنها وانفها ومشفرها وخنوق قلبها . وهو في كل هذه الاوصاف يعتمد الى التماثيل الحسية البدوية فيضعها موضعها بكثير من الحذق الفني . وليس من شك في أن هذا الوصف المسهب الدقيق إنما يعكس حب طرفة لناقته ، فهو يتفرس في ملاحظها ودقائق جسمها كما يتفرس المحب في محبوبته ، وكأنه يعيشها كلها . إن هذا الوصف سيدي ذخراً حياً من أدب صحرائنا وقوميتنا . ولكنه لن يرتقي الى الافق الانساني بسهولة ، لاغراقه في الحسية وبعده عن الايجاء الوجداني بعواطف صاحبه كائنات .

ولكن طرفة سرعان ما يتلفت من هذا الجو القومي الحسي المغلق ، الى جو قومي - انساني منبسط الآفاق . وذلك حين يجد نمط الحياة المستهتر الذي اصطفاه لنفسه ، وحين يذكر تمرده على أهله وثورته على الاعتبارات التقليدية :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي	وبهي وإنفاقي طريقي ومتلدي
الى ان تحامتي العشيرة كلها	وأفردت أفراد البعير المعبد
الا بهذا الزاجري أحضر الوغى	وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدي؟
فان كنت لا تستطيع دفع مني	فدعني ابادرها بما ملكت يدي
أرى قبر نحام بجيـل بماله	ككبر غوي في البطالة مفسد

تري حثوتين من تراب عليهما      صفايح صم من صفيح منضد  
 اذا مت فاعميني بما انا أهله      وشقي علي الجيب يا ابنة معبد  
 ولا تجعليني كامرئ ليس همه      كهمي ، ولا يغني غناي ومشهدي ؟

إن هذا الشعر من النخط العالي العالي . إنه من صميم أدبنا القومي ، لأنه ،  
 كالخمر المعتقة ، ما يزال ينشينا - نحن أبناء قومه - وقد مضى عليه أكثر من أربعة  
 عشر قرناً . وهو في الوقت ذاته من صميم التراث الانساني الخالد ، لأننا لا نتصور  
 انساناً أوتي نصيباً من الحس الفني لا تشبه هذه النعمة الخيامية الصحراوية .

### مثال من زهير

وهاكم مثلاً آخر من معلقة زهير . فزهير يبدأ ميميته بوصف أطلال  
 أم أوفى ، ووصف الطعائن وطريقهن وصفاً فاتناً هادئاً بالغاً غاية الاتقان والروعة .  
 ولكن يخيل إلي أن شعر زهير هذا يبقى في النطاق القومي ولا يسمو في قوميته  
 الى النبرة الانسانية الا في تلك المقاطع التي يصور فيها الحرب الاخوية بين عبس  
 وذيان أشنع تصوير ، ويدعو فيها الى حقن الدماء وتمجيد السلم وبطايه هرم  
 والحارث ، والا في تلك الابيات الحكيمية الجليلة التي يكشف فيها خلاصة تجاربه  
 العاقلة خلال حياة ثمانين سنة . :

تفانوا ودقوا بينهم عطر منثم	تداركتما عبسا وذيان بعدما
بمال ، ومعروف من القول ، نسلم	وقد قلتما ان ندرك السلم واسعاً
بميدن فيها من عقوق ومأثم	فأصبحتما منها على خير موطن
ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم	عظيمين في عليا معد هديتما
وذيان ، هل أقسمتم كل مقسم ؟	ألا ابلغ الأحلاف عني رسالة
ليخفي ، ومهما يكرم الله يعلم	فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
وما هو عنها بالحديث المرجم	وما الحرب الا ما علمتم وذقمتم
وتضر اذا ضرتموها فتضرم الخ..	متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

ان هذا الشعر هو ايضاً من النمط الانساني العالي . وهو وإن مثل البيئـة القومية التي ظهر فيها - يمثل في الوقت ذاته المشاعر الانسانية العميقة في كل بيئـة .

### مثال هجاء من المتنبي :

والأمثلة بعد كثيرة ايها السيدات والسادة :

فهجاء المتنبي لضبـة من النوع الرخيص المتـذل الذي يمثل المجتمع من أضعف نواحيه . وأما أهاجيه في كافور فمعظمها من الادب القومي العنيف الممتاز . وربما سما المتنبي في بعض مقاطع هذه الأهاجي الطائفة بالألم والثورة الى التبرة الانسانية المرنحة :

يا ساقبي ، أخمـر في كؤوسكما	أم في كؤوسكما همّ وتسبيد ؟
أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني	هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إذا اردت كيمت اللون صافية	وجدتها وحبب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه	أني بما أنا شاك منه محسود
وبلهـا خطـة ، ويلم قابلها	لمثلها خلق المهربة القود
وعندها لـدّ طعم الموت شاربه	إن المنيـة عند الذل تنديد !

### مثال من شعر ابن الروصي :

وكذلك أهاجي ابن الرومي المليء بالسباب الفاحش والظعن بالأعراض ظلماً وعدواناً أو انتقاماً ، فهي من الشعر القومي الرخيص ، بينما شعره في رثاء البصرة وفي وصف ( قالي الزلابية ) و ( الخباز ) و ( دجلة ) و ( بهارج البيروز ) فهو من النوع القومي الصحيح . وأما قصائده في رثاء صاحبتـه ( بستان ) ورثاء ابنـه ( محمد ) ووصف غروب الشمس ، والجمال الأعمى وو ... فهي كلها أدب انساني رائع :



رأيت حملاً مبين العمي يمر في الامم وفي الوهد  
محملاً ثقلاً على رأسه تعجز عنه قوة الجلد  
بين جمالات وأشباهها من بشر ناموا عن الجهد  
وكلهم يصدمه عامداً أو تأته اللب بلا عمد  
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبد  
وما اشتبهى الجهد واكنه فر من اللؤم الى الجهد  
فر الى الحمل على ثقله من كليات المكثر الوغد

وهكذا يمكننا أن نمد الأمثلة الى ما لا نهاية .

### بعض مواطن السمو الانساني في الارب العربي :

أما وقد اتضحت لنا ايها السيدات والسادة معالم الأدب القومي والأدب الانساني وما بينهما من وشائج ، ورأينا كيف يتسامى الشاعر إنسانياً فتختلف نبراته من قصيدة الى اخرى بل من مقطع الى آخر في القصيدة الواحدة ، فليسمحوا لي ان نستعرض ممأً وبإيجاز بعض مظان السمو الانساني في ادبنا القومي العريق .

### عصر الجاهلية وصدر الاسلام :

أما عصر الجاهلية وصدر الاسلام - وهو في عرف كثير من مؤرخي الأدب عصر واحد يتمم بمضه بعضاً - فأدبنا فيه كما بينا ذو صبغة قومية عنيفة لا تخلو من الضيق في كثير من الاحيان ، ومع هذا فكثير من شعراء هذا العصر استطاعوا السمو والانطلاق في المدى الانساني البعيد ووقفوا الى استعمال هذه النبرة الوجدانية التي تهز أعماق النفوس هزاً . ولقد سبق لنا أن مشننا لذلك بأبيات من شعر طرفة وشعر زهير . ويمكننا بسهولة أن نظفر بمثل هذه النبرة في كثير من شعر امرئ القيس وعنترة والمهمل والخنساء ، وبخاصة شعر الصعاليك كعروة بن الورد وتأبط شرا والشنفرى . ولا يخامرني الشك في أن لامية العرب

التي تنسب الى الشنفرى والتي تمثل حق التمثيل تمرد الفرد وإباده وعزيمه لهي من  
القصاصد الانسانية الرائعة . وكذلك عينية أبي ذؤيب التي تصور استسلام النفس  
الانسانية للقدر الجبار . ومثلها يائية مالك بن الريب التي رثي بها نفسه . فهي صورة  
انسانية مثيرة للفارس المجاهد النبيل يستقبل الموت وحده ، فتثور في نفسه ذكريات  
أحبابه ، ويتلفت حوله فلا يرى من يبكي عليه سوى سيفة ورمحه :

تذكرت من يبكي علي فلم أجد      سوى السيف والرحم الرديني باكيا  
واشقر خنذيذ يجر عنانه      الى الماء ، لم يترك له الدهر ساقيا !

ولا يحق لنا أن نطوي عصر صدر الاسلام دون أن نشير الى مواطنين  
ثميين من مواطن الشعر الانساني في أدبنا :

أولهما : الشعر العذري ، وجله كنز من النبضات والخفقات الانسانية  
أثارها في هيكل الصحراء الحب الخالص المبرح ، فهتفت بها الرمال والرياح بل  
والجبال ايضاً :

فأجهشت للتوباد حين رأيتَه      وكبّر للرحمن حين رأني !  
وهذه النغمات العذرية هي التي ستردد صداها في صدور شعراء العصور  
التالية كالعباس بن الاحنف والشريف الرضي وغيرها من انصار الشعر الخالص .

والموطن الثاني الذي أود أن اشير اليه هو أدب الخوارج ، ذلك الادب  
السياسي الحربي الخالص العنيف الذي يمجّد التضحية في سبيل الفكرة ، والجرأة  
في سبيل الحق ، ونكران الذات في سبيل الدفاع عن المبدأ . واذا كان للمؤرخين  
والفقهاء ان يأخذوا على الخوارج جرائمهم وغلوهم في سفك الدماء وتشدهم في  
تكفير كل من لم يدين برأيهم ، فليس لنا - في حرم الأدب - الا أن نمجّب بما  
تركوه لنا من أدب قومي هو من صميم العروبة وقلب الصحراء ، وليكنه أدب  
انساني ايضاً يمثل لنا ثورة الانسان في سبيل الحق ، أو في سبيل ما يعتقد أنه الحق :  
واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبنفسه العام لإحدى المقاذف (١)

(١) الايات للطرماح بن حكيم

فيا رب إن حالت وفاتي فلا تكن  
ولكن قبري بطن نسر مقيله  
وأسمي شهيداً ثابواً في عصاة  
فوارس من شيبان ألتف بينهم  
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى  
على شرح (١) يعلى بخضر المطارف  
بجو السماء في نسور عواكف  
بصابون في فنج من الأرض خائف  
تقى الله ، نزالون عند التراجف  
وصاروا الى ميعاد ما في الصحائف

### العصور العباسية :

وإذا انتقلنا الى أدب العصور العباسية وجدنا النبرة الانسانية والسمو  
الانساني يتجليان في كثير من صفحاته . فكأس أبي نواس وخمرته ونشوته ،  
وزهديات أبي العتاهية ، ووقفه البحري أمام أطلال المدائن ، ووسوسات ابن الرومي ،  
وحكم المتنبي وكثير من سيفياته ، وروميات أبي فراس ، كلها من الآثار الادبية  
التي توفرت فيها شروط السمو الانساني . ولكننا لا نجد في أدب هذه العصور ما  
يسامي في انسانته أدب أبي العلاء ، وفي روحانية شعر ابن الفارض . فليس من  
شك في أن أدب هذين الشعارين الخالدين هو أدب قومي رائع لأنه يمثل بصدق  
بعض النزعات التي عرفها عصرهما . وربما كان أدب أبي العلاء من هذه الناحية  
أغرق في القومية من أدب صوفينا ابن الفارض . ولكن كلا من هذين الشعارين  
كان له قلب كبير ورحيم يسع الانسانية بكاملها . أما ابن الفارض فإنه كان يؤمن  
بوحدة الوجود روحانياً ، وأما أبو العلاء فإنه كان يؤمن بوحدة العالم اجتماعياً .  
ولئن اختلفت الطرق فالهدف واحد ، وهو ان تتسق دقات قلب الشاعر ودقات  
قلب هذا الكون بأجمعه .

ولم نستعرض فيما استعرضنا الا الآثار الشعرية . ولا يجب أن ينسبنا ذلك  
كثيراً من آثارنا النثرية التي اندجت ايضاً بالتراث الأدبي العالمي ، كرسالة الغفران  
وبخلاء الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، والمقامات ، وقصصنا الشعبي وفي طبيعته (الف ليلة  
وليلة) و ( قصة عنتر ) .

(١) الشرح : النمش

ويلاحظ أننا اقتصرنا في هذا العرض السريع على الآثار الأدبية بالمعنى  
الفني الضيق للادب ، ولم ندخل في هذا التعداد آثارنا الفكرية الخالدة في الفلسفة  
والاخلاق والتاريخ والاجتماع ، تلك الآثار التي نجد من نافلة القول أن يقال عنها  
انها اصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الفكري الانساني .



هذه إشارات خاطفة ايها السيدات والسادة الى مواطن السحر الانساني  
في أدبنا الضخم ، أوردتها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر والاستيعاب .  
وكم كنت أود لو أكثر من الشواهد اصطفيها من شعر هؤلاء الشعراء ونثر هؤلاء  
الكتاب . ولكنني لم أشأ أن أكون كحامل التمر الى حجر ، فكلكم يعرف تمام المعرفة  
هذه الآثار التي أثمرت ايها .

وليس بمستغرب أن يرتفع أدبنا الى الافق الانساني في كثير من صفحاته ،  
وهو أدب أمة أسهمت في الحضارة الانسانية أعظم إسهام في ماضيها ، وأدب أمة  
تطلع الى مثل هذه المشاركة الخصبه المنتجة في مستقبلها .

يضاف الى هذا أن أدبنا العربي ، خاصة في عصور ازدهاره وانطلاقه ،  
انساني في مصدره ، شاركت في خلقه ثقافات متمازجة لكل منها مكانها في خدمة  
الحضارة الانسانية ، وتضافرت على إبداعه أجناس مختلفة جمعتها الالفه الفنية  
والانسجام الفكري ومحبة خالصة للغتنا العربية .



### مقررات الادب الانساني :

ولو تقرينا من جديد هذه الآثار الانسانية في أدبنا لتتعرف الى كنه  
انسانيتها ، ولنكشف عن الصفات التي صبغتها بهذه الصبغة العالمية مع احتفاظها  
بطابعها القومي .

لرأينا أن في وسعنا أن نرد مقومات الانسانية فيها الى ثلاثة امور :

الأمر الأول : هو شدة اتصال هذه الآثار بالقيم الانسانية الاصلية الثابتة التي أشرنا اليها في مطلع حديثنا .

والأمر الثاني : هو ما في هذه الآثار من وثبات عبقرية جاحجة . وأي وثبة أشد جموحاً من وثبة المعري السماوية في الغفران وتصويره جناحتها وجميها ومناعمها وأهوالها تصويراً ساحراً مهيجاً مرعباً لم يسبق اليه ؟ وأي انطلاقة تلك التي انطلقتها خيال البحري أمام إيوان كسرى حتى أنطق صورة انطاكية ، وحتى عاد أمامه القصر الموحش حياً يعجج بالوفود ويضج بالألحان ويعوج بالراقصات ، وما زال يسمو به خياله حتى رفع كأسه ليشرّب نخب كسرى ابرويز المصور على الجدار ، وغاب في حلمه تلك الغيبوبة الرائعة ، الى أن أفاق من سكرته الفنية أخيراً وهو يتسائل :

حلم مطبق على الشك عيني أم أمان غيرن ظني وحدي؟!!

وأما الأمر الثالث : فهو الحماسة ، ولا أعني بها شعر الفروسية والحرب كما هو مشهور بل أعني بها امتلاء نفس الاديب بفكرته وانتفاض قلبه بها . هي حماسة ابي نواس في خمرياته والمنتبي في سيفياته ، وابي فراس في رومياته والمعري في لزوميته ... هي حماسة العذريين في نسبهم والحوارج في عنفهم واستشهادهم ... هي الحماسة التي لا بد منها لكل أُر في خالد . وهذا معنى قولهم : ان ما يتفجّر من القلب يقع في القلب . وما أحلى قول أحد الفلاسفة في هذا المعنى :

« الحماسة قيمة لا تقدّر بثمن . نعم ، إن جزءاً من كل حماسة إنسانية لا بد ان يفر على مر الزمن ، ولكن في كل حماسة انسانية ايضاً جزءاً من القوة الحية التي لا تموت ، لأن الدم الحار يبقى فتياً أبداً . »

\* \* \*

ولست أدري ، هل يجوز لنا في ختام هذا الحديث أن نحكم على ادبنا المعاصر وهو في هذا البحران الذي تتجاذبه فيه النوازع الكثيرة . إنَّ في ادبنا الحديث تباشير كثيرة تجعلنا نتفاءل له بمسئقبل قومي وانساني كريم . ولكن الناقد كثيراً ما يخطئ في الحكم على عصره . ولا بد للآثار الفنية من ان تترك لعمل الزمان اللاشعوري . ولو كان يحق لهذا الضعيف العاجز ايها السيدات والسادة ان يوجه الكلام الى الادباء المعاصرين لقال لهم :

ان الشرط الذي لا بد منه كي يسمو الفن قومياً وانسانياً هو الاخلاص : إخلاص الفنان لنفسه وشخصيته ، إخلاصه لبيئته ومجتمعه ، إخلاصه في تعبيره ونقله وإيحائه . فالإخلاص والحماسة كنهه الانسانية وباب الفن . إن إخلاص الانسان لنفسه كإنسان ، وليبيئته كمجتمع انساني هو خير سبيل لمحبة الانسانية كلها ؛ كما ان إخلاص الانسان للانسانية هو خير سبيل لمحبة الوطن محبة حقيقية . وما اجمل ما قاله جان جوريس في هذا المعنى :

« إن النزعة الانسانية الضعيفة ربما أبعدت الانسان عن وطنه . اما النزعة الانسانية القوية الشاملة فهي التي تربطه بوطنه ربطاً لا انفصام له .

المحاضرة التاسعة

## اهداف الشباب ومشارم العليا

للمدكتور اريب نصور

= القيت بتاريخ ١٦ ايار ١٩٥٢ =

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ  
اٰمِیْن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ



اغلب الظن ان اختيار هذا الموضوع لمحاضرة عامة لم يكن مصادفة و اتفاقا .  
أليس مجرد هذا الاختيار تعليقا رائعا مختصراً على احوال الشباب عندنا ،  
وحظوظ الاهداف والمثل في بلادنا ؟؟

اني ارى ان صاحب هذه الدار حين فكر في مشاكل المجتمع واختار هذا  
الموضوع كان جاداً في التفكير ، موفقاً في الاختيار .

ولست واثقا من ان التوفيق قد صادفه في انتقاء المحاضر ايضا . . الكلمة  
في ذلك للجمهور الكريم - والمحاضر هو دائماً تحت رحمة الجمهور - ويا ويل  
المحاضر العائر من جمهور السامعين :

ويل امه اذا ارتجبل ثم أطال واحتفل

- كما كانت تقول العرب -

وكتب الادب العربي مليئة بنم الخطباء وذكر عيوبهم ، ولن تجد في  
الادب العربي ذكراً للجمهور ، لأن الجمهور هو المرجع دائماً وهو الحكم -

وجهور زماننا أشد مراسا وأصعب إرضاءً من الجمهور القديم - ويزداد خطر الجمهور الحديث اذا كان ذكياً ألعياً نقاداً ، الف ارتياد النوادي وشهود مجالس الادب ، واعتاد ان يأتيه كبار المحاضرين من مصر ولبنان والعواصم ، فهو يستمع ويقابل ويقارن ، وقد يبعث ويلهو ، ويمضي الي شأنه كأنه ما سمع وما رأى ..

واني ، ايها السادة ، لا اطمع في ان انجو من تقدمكم ، وانما اطلب الرفق في الانتقاد - ان المحاضر المائل امامكم ، ايها السادة ، يحتاج الي كثير من العطف والثناء .. لقد استدرج الي التحدث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا ، ولم يبق له في الشباب نصيب .. وسيجري في طيات حديثه تيار خفي عميق من اللوعة والأسى لأنه مفارق ومودع وحزين . واعلم ان الشيوخ منكم والكهول سيشرحهم هذا النغم الحزين لانهم مثلي قد فارقوا الشباب . والشباب منكم سيدكرون ان شبابهم هذا ليس ربيعاً دائماً وسيشاركون اخوانهم المتقدمين في الشعور برهبة القدر ..

وربما رأى صاحب هذه الدار بحكمته العالية ألا يختار لهذا الموضوع شاباً خاضعاً لطغيان الشباب ، ولا كهلاً بمؤ عهده بآمال الشباب وأحلامه ورؤاه ، وانما اختار محاضراً يودع الشباب خارجاً منه ، ويستقبل الكهولة داخلياً فيها ، فهو لذلك خليق ان يكون له انس باهداف الشباب ومثله العليا ، وجدير بان يصطنع الاناة وبلتمس الحكمة شأن الشيوخ وشأن المكتهلين ...

والموضوع بعد ذلك ذو خطر ؛ لأننا نعيش في عالم تزعزعت فيه عقائده وظهرت عقائده أحر ، وتداعت فيه قيم وارتفعت على انقاضها قيم ، وانهارت مثل وقامت بعدها مثل ، وشاعت آراء ، وذاعت دعوات وانتشرت نظريات - هذه الحال في عالمنا السوري الصغير ، وفي عالمنا العربي الكبير ، وفي العالم الانساني الأكبر .

ونحن حين نبحث عن اهداف الشباب ومثلهم العليا فانما نبحث عن اهداف الانسان ومثل الانسانية في طور الشباب وهو طور التهيؤ والتدبر والاقدام . والخطة التي ترسم في اول العمر توضع للعمر كله . والحياة الجميلة هي فكرة في الشباب تتحقق مع اكتمال العمر ..

الاهداف والمثـل الجديرة بالشباب ، اذن ، هي نفسها الاهداف والمثـل الجديرة بالانسان . وان أنبل الابحاث ، كما يقول افلاطون ، هو الانسان - كيف يجب ان يكون ، وكيف ينبغي له ان يعيش . وهذا العمري أهم بحث على الاطلاق -

اني عند التفكير في امر الشباب الناشئين في بلاد العرب عامة وفي سوريا على الخصوص اجد نفسي مردداً ما قال شوقي في انتحار الطلبة بمصر :

ناشي\* في الورد من ايامه حسبـه الله ابالورد عشر

وقد رأيت ورأينا شباب البلاد ومناطق الأمل ومعقد الرجاء يمثرون في الورد من ايامهم وتعثر معهم البلاد - والشباب فئات والعتار له حالات شتى واللوان تدل بمجموعها وتناقضها على قلق النفس واضطراب الفكر وفوضى الأمل -

اني افترح ان نلم للمأماً سريعاً بفئات الشباب التي تعثر او تتعثر في الورد من ايامها -

١ - ولنبدأ بأهون تلك الفئات - فئة الوجوديين ، وهؤلاء يكثرون في لبنان ومصر لكن لهم وجوداً ملحوظاً في سوريا واكثرهم قد مر بالحـي اللاتيني بباريس في اثناء الحرب الاخيرة او بعد الحرب واتصل من قريب او من بعيد بتلك الحركة الفكرية - العاطفية التي نشأت حول ( جان بول سارتر ) والتي يقال ان سارتر نفسه يبرأ منها ، ويمكن ان يلخص موقفها بقول الشاعر :

لا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين  
انت لا تأتي الى دنياك هذي مرتين

وانا اعلم ان الوجودية فلسفة عميقة محترمة وهي عند Kierkegaard و Heidegger وسارتر قد تختلف كثيراً او قليلاً عن مذهب الوجوديين المنتشرين في زوايا الحـي القديم ، لكن الوجودية التي تسربت اليـنا والتي اندفع بعض الشباب في تيارها لا تؤمن بشيء ولا تتحمس لمبدأ او فكرة او مثـل وإنما تدعو الشباب ان

يقبلوا على الحياة وينخوضوا في غمراتها ويأخذوا حظهم منها وألا يسيثوا لغاية  
سوى غاية العيش ..

وان قسما من شباننا لم يسمعوا بالوجودية قط ولم يتصلوا بها ، لكنهم في  
واقع الأمر وجوديون بدون فلسفة وأدب ولغو كثير .

٢ — وقريب من الوجوديين الخياميون ، لكن للخيامية شأننا آخر . فقد  
نظر عمر الخيام في الكون وتأمل فما وجد غير قدر رهيب ولا عالماً وراءه — هذا  
العالم فراح يعزى النفس بارضاء الحواس ويحملها على قبول الاشياء كما هي او كما  
قدر له ان يراها .

ولم يكن الخيام غالياً في طموحه ولا كان مفرطاً ، وانما رضي من الحياة  
بغصن ظليل في فقر ، وديوان شعر ، ورغيفين مع زجاجة خمر ، وحبيب ..

اما اصحاب عمر الخيام المحدثون فبعضهم نظر في الحياة كما فعل عمر ، وبعضهم  
تأمل في حال قومه فيئس من اصلاح الحال واقامه الهم بين العجز والتعب ، فلجأ  
الى اللذات هارباً من تبعات الفكر ومسئوليات المواطن وواجبات الانسان .

وهذا مذهب يغمره التشاؤم والظلام ، لا يرى صاحبه شيئاً وراء الحياة  
ولا يكاد يرى شيئاً في الحياة بعد الشباب —

وربيع الحياة عهد الصبأ  
وحياتي ككده الصهبأ  
حلوها الر في طي ودائي  
وبلخ أو نيسبور ساقضي  
فدعوني بعض اللبانة أقضي  
عيشتي نشوتي وعمري شبابي  
وغدا يدم المشيب الشبابا

٣ - وهناك فئة من الشباب أبعد هما ، وأكثر جداً ، واسمى ذكراً ، وأرق شعوراً - لها نواياها الحسنة ومثلها ، لكن مثاليتها لا تصل الى درجة الايمان الحار العميق ، وحسن النية لا يصحبه صحة العزم وصدق الارادة .

نفوس كريمة على ضعف ، فهي تتخبط وتهم . . . انهم أشباه (هاملت) في مأساة شكسبير :

آ = منهم الضائع بين الشرق والغرب - نشأ في الشرق القديم واتصل بالغرب القديم في اوربا أو الغرب الجديد في اميركا ، طالباً للعلم فتأثر بالشرق والغرب جميعاً واصبح موزعاً بين عالمين ، وعرف شقاء الانقسام الداخلي في النفس بين طريقتين في الحياة .

وهذا الانقسام الداخلي يحدث توتراً في العقل والعصب وينتج كتابة عميقة ، كثيراً ما تحتفي معها المثل ، وتصاب الارادة بالشلل .

لنا وفاق دراسة . . . يذهب احدهم الى لندن او باريس ويبقى في الغرب بضع سنين ثم يعود ، فلا يجد الأمن والراحة وطيب العيش الذي الفه في الغرب ، وتجده نفسه بالرجوع فلا يستطيع فيعيش كثيراً لفراق عالم عرفه وعلق به وافتقده الى الأبد - ويندب حظه ويلوم السماء لانها جعلت مولده في جحيم هذي البلاد . .

كتبت الى احد هؤلاء اقول : « يا اخي ، باريس ولندن وواشنطن وكل عواصم الدنيا لا معنى لها بدون دمشق وحلب وحماه - هنا حقيقتنا ومجدنا وشقاؤنا - هنا قدرنا . »

ولكن ما اضعف هاملت أمام القدر -

ب = ومن اصحاب هاملت ناشئ يرى البون شاماً بين الواقع والمثل بين ما هو كأن وما يجب ان يكون - ولا يجوز ان نسرف في اللوم على الناشئين ، وانما ينبغي ان نسائل انفسنا ، ماذا هيأتنا نحن لهم ؟

## ماذا يرى الناشيء في البلاد؟؟

يرى امة منقسمة على ذاتها تبحث عن شيء ولا تكاد تراه ، ويرى هيكلاً اجتماعياً يتداعى ، ويرى مشاكل العالم وتزاحم الامم ومطامع الدول ، ويرى .. ويرى .. ، فيصرخ مع هاملت صرخة اليأس والقنوط :

« ان الزمن لفي اعتلال واختلال ومن نكد طالبي ان اكون انا المنوط به علاجه والعود به الى النظام . »

لكن صاحبنا الضائع بين الشرق والغرب ، أو التائه بين الواقع والمثل لا يسقط بمعظمه وجلال كما سقط هاملت قتيلاً في آخر المساء ، ولا يهوى بروعة وجمال كما يهوى الشباب ، وانما ينطق نوره شيئاً فشيئاً ، ويدوب كما يدوب السراج -

اعرف شاباً كان من ألمع الشباب في الجامعة . ذهب الى اوروبا واميركا في خدمة الدولة وعاد بالأمس يحمل نظارتين غليظتين على عينيه ، وعلى كتفيه انقال .. لقد ازداد علماً وفيها ونضجاً ، لكنه فقد شيئاً أمن وأعلى من العلم والفهم والنضج - فقد ذلك اللمع القدسي ، فقد ايمانه بنفسه وبقومه وانعدمت عنده الرغبة في التفوق والامتياز - اكد اقول انتهى ، وهذي كلمة رثاء ...

كم كان ( امرسن Emersom ) موفقاً حين خاطب الناشيء الاميركي على ايامه قائلاً :

« عندما تقول - سأفعل كما فعل الآخرون ، اني متخل عن احلامي الاولى ورؤاي ، واكل من خيرات الارض ، ومودع الآمال والاحلام الى موسم آخر - عندها يموت الرجل فيك ، عندها تدبل براعم الفن والشعر والابداع وتفتي كما فتيت من قبل في الف الف انسان . »

ع - ولنترك اصحاب هاملت يهيمون في الارض ولنتعرف الى فئة اخرى من الشباب لا ينقصها طموح وانما يأتي خطرهما من شدة طموحها واندفاعه .

لا تظنوا ، ايها السادة ، اني عدو للطموح ، متهم للطامحين . اني ارى ، مع  
( كلايستون Gladstone ) ان الظماً الى المجد قريب جداً من حب الامتياز  
الحقيقي . ولا شيء اعظم أو أروع في حياة الادم والافراد ، على السواء ، من  
طموح نبيل مشروع يكون حافظاً للعمل الشريف النبيل .

ولكن ما اشد خطر الطموح حين يخطئ الشاب في اختيار الهدف ، فما  
اقبح ، مثلاً ، المجد الذي طمح اليه المتنبئ وصوره في شعر نغم جميل :

ولا تحسبن المجد زقا وقيمة فما المجد الا السيف والفتكة البكره  
وتضرب اعناق الرجال وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر  
وتركك في الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء اتمله العشر

فهذا طموح جاهلي بربري عنيف لا يتصل بحق او خير او جمال ، وانما  
يهم صاحبه ان يحدث في الدنيا ضجة وصخباً ، وان يتحدث به المتحدثون الى آخر  
الدهر .

ان قصة ( فاوست ) تتكرر دائماً في التاريخ ، وتذكرون ان فاوست وقع  
عقداً مع الشيطان وباع نفسه وجسده وخلوده في سبيل الحصول على المعرفة والقوة  
والسلطان الى أجل مسمى .

وفي كل يوم يبيع نفسه للشيطان بائع في سبيل شهرة أو مال أو جاه عريض .

ان فاوست يطمح الى ما لا يجوز ويتحدى قوانين السماء فتغضب عليه  
السماء ويشقى .

وقد يكون الهدف بحد ذاته مشروعاً سليماً ، لكن الطامح اليه غير مبسّر  
له وليس عنده الامكانيات الروحية أو المادية لتحقيقه ، فهو حين يحاول ان يحتل  
مكاناً لم تهيئه له الطبيعة يحتل النظام الطبيعي وتضج بأهلها الارض والسماء .

وقد بطمح الناشئ الى امر جليل ويجد في نفسه القدرة على اقتحام الطريق اليه لكن الدولة او المجتمع يقيم في طريقه العقبات . وويل يومئذ للمجتمع من الطامحين . ان اصحاب النفوس الكبيرة يتطلعون بطبيعة الحال الى نباهة الذكر ورفع الشأن، واذ لم يصلوا الى الصفوف الاولى بالطرق المشروعة امتلأت نفوسهم الخائبة ضعفاً وحقداً وعنفاً فسلكوا الطرق الملتوية الى الوصول وزلزلوا اركان الاجتماع .

٥ - لا يكون هذا العرض كاملاً اذا لم نذكر العقائديين من الشباب . هؤلاء وجدوا لهم اهدافاً ومثلاً وغايات جروا في اثرها فهم أقرب الناس الى المثالية، لكنها مثالية قد غلط بها . واكثر هؤلاء الشباب يذهبون ضحايا لأول دعوة تصادفهم في الطريق .

وقد اقبل الشباب في السنوات الاخيرة على المنظمات العقائدية إقبالاً يلفت النظر ، حتى ان رئيس الجامعة السورية وقف عند هذه الظاهرة في حفلة توزيع الشهادات في حزيران ١٩٥١ ، يقول :

« .. لقد غالى اهل هذا العصر في الايمان بالعقائد والنظم والمناهج ، وغدا الناس افراداً وجماعات ، يعلقون آمالهم في إنهاض اممهم وإصلاح البشرية ، على هذه العقيدة السياسية او تلك ، وهذا النظام الاقتصادي او ذاك . في حين انه يجب ان ننشد قبل العقائد والنظم والمناهج الرجال والنساء الذين سينفذونها ويوجهونها لخير المجتمع ورفيقه . فالاهمية هي دائماً للعامل البشري الفعال ، للشخصية المبدعة ، لا للعقيدة المجردة والمناهج المنظمة . » انتهى كلام الدكتور قسطنطين زريق .

والشاب سمح الطبع ، خصب الخيال ، مستعد بالطبع للجري وراء الاهداف والمثل . وهو طموح يريد ان يصنع شيئاً وان يرقى محلاً في مضمار الجهد العام ، وفي تلك « اللحظة البسيكولوجية » الملائمة تسرع اليه المنظمة العقائدية بفلسفة كاملة و برامج معدة ونشرات ووعود وتقول له : هذا هو الدواء وتلك هي السبيل »



وقد يتردد الشاب اول الأمر ثم لا يلبث ان يقع صريعاً انلك المدفعية  
الفكرية الهائلة ويخرج من حالة التردد والقلق . سمعت أكثر من شاب يقول بعد  
انتمائه لهذه المنظمة او تلك : « اني وجدت الآن راحة البال فانا لا اطيل التفكير  
ولا اتألم وانما اطيع ما يصدر الي من امر . »

وكثيرون هم الذين يفرون من حرية الفكر الى أمن الطاعة والنظام .

ولست بمستطيع ان اعدد الدعوات المختلفة التي اجتاحت دنيا الشباب في  
السنوات الاخيرة واخذت عليهم كل سبيل . بعض هذه الدعوات يأتي من الغرب  
وبعضها يخرج من الشرق ، وبعضها مزيج عجيب من هذا وذاك . وهي كلها دعوات  
جريئة ملحة مغرية لا اتناولها بالتفصيل وانما اسوق ملاحظات سريعة حولها :

١ — وأول ما نلاحظ ان هذه الدعوات تهتم بالعلم والتكنيك والعمل  
الخارجي المنظم اكثر مما تهتم بالفضيلة وتكوين النفس — انها بارعة في صنع الآلة ،  
متصرة في غير ذلك .

٢ — ونلاحظ ، ثانياً ، ان هذه الدعوات تؤكد على الحقوق دون  
الواجبات ، وهذي آفة الزمن الاخير — من الثورة الافرنسية في القرن الثامن عشر  
الى لجنة حقوق الانسان في هيئة الامم ونحن لا نسمع غير حديث الحقوق والمصالح ،  
وقلما يرتفع صوت نبيل يذكر بالواجبات لأن حديث الواجبات ثقيل على السمع ،  
يحمل صاحبه عبئاً ويكلفه جهداً وعسراً .

ومن عادة رجال الغوغاء ان يخلعوا بعضى سحرية جنات الفردوس امام  
العامة والدهما . اما المصلحون الكبار والانبياء والمرسلون الذين غيروا وجه  
التاريخ فلم يتحدثوا عن الحقوق والمصلحة والفائدة والامتيازات ، وانما تحدثوا عن  
الواجب والحب والتضحية والفداء — « والفرق بين رجال الحق ورجال الواجب » ،  
كما يقول مازيني ، « هو ان رجال الحقوق متى حصلوا على حقوقهم الفردية فانهم  
يتوقفون عن العمل لأن الدافع الاساسي ينعدم ، اما جهود رجال الواجب فلا  
تنتهي الا بانتهاء الحياة . »

٣ — ونلاحظ ، ثالثاً ، ان الدعوات الحديثة ، من عالمية ومحلية ، تستهدف المادة قبل المعنى ، فهي تطالب بتحسين العيش ورفع الاجور ، وتناح على اهمية الخبز والمتاع ، وتتحدث باحصاء وأرقام — واحسب ان هذي الامور لا بد منها ، لكنني استنكر ان تصبح الغاية الاولى في الحياة مادة واقتصاداً ، واعتقد انه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » —

عندما يتخلى الانسان عن حاجات الروح ومطامح الفكر ، فإذا بقي من الانسان؟ ألا يفقد حيواناً اقتصادياً هيناً ، كما اراد له (كارل ماركس) ان يكون؟

والشعب حين يزهد الشعب بالمثل الممنوية ، ما الفرق بينه وبين القطيع ؟

كان الشعب الروماني عظيماً صاحب سيادة وسلطان . وفي يوم من الايام اتى الشعب العظيم همومه الى الريج وتقلص طموحه وحصر همه في مطلبين ( الخبز والالعب Panem et Circenses ) يومذاك هبط الشعب العظيم واخذت الامبراطورية الرومانية بالانهيار ..

قد يقول قائل : ألم تسمع بدعوات دينية وحركات ؟ أقول بلى ، في الشرق والغرب حركات دينية منظمة ، واسعة الانتشار . لكنني لا اكاد اجد فيها نفحة من نفحات الروح ولو تحدثت بلغة الانبياء . والتيار الأقوى في العالم وفي البلاد هو تيار الالحاد ، وقد سمعت الكثير من الشباب يرددون قول نيتشه : « ألم تسمع في الغابة ان الله قد مات » —

٤ — ونلاحظ ، رابعاً ، ان هذه الدعوات لا تقتصر على نهج الحياة وانما تتناول كيان الانسان وشخصيته القومية فتقول له : « انت سوري ، انت عربي ، او انت مجهول النسب ، انت مسلم ، انت انسان ، انت كائن اقتصادي ، انت اقطاعي ، او رأسمالي ، او عامل ، او صعلوك . »

اضف الى هذا كله تلك الدعوات السمجة ، المبتذلة . المعادة كل صباح

وكل مساء - صوت اميركا ، راديو موسكو ، راديو باريس ، محطة الاذاعة  
البريطانية ، ولا انسى محطة الشرق الادنى -

أبعد هذا كله تعجبون من حيرة الشباب وتخطبهم وضلالهم البعيد؟؟

والواقع ان الامة باسرها في حيرة واضطراب . وحيرتنا ابلغ من حيرة  
سائر الامة لأن ابناء الحضارة القديمة المتصلة لا يؤخذون بسهولة ، والمجتمع القوي  
التماسك يصمد لهزات الفكر وموجات العاطفة وجموح الغرائز . وفي الامة الناضجة  
الواعية مؤسسات تعدل من اندفاع التيارات الطارئة وتنصح وتهدي وتشير .  
ولكن من عندنا يصحح ويمدل ويشير ويهدي؟؟ في خضم الدعوات وفوضى  
المذاهب والآراء ما صنعت المعارف السورية ، وما يصنع المفكرون وزعماء الرأي  
وقادة العمل؟؟؟

### المعارف :

اما المعارف فتزيد من هذه الفوضى وتشارك فيها ، وحسبي ان اذكر ان  
تلك الدعوات التي اشرت اليها كانت ممثلة في الاساندة والمعالمين وان منظمات عديدة  
اعتمدت على المعالمين في حشد الطلاب - وكنت تجد في المدرسة الواحدة معاماً  
شبيوعياً ، الى جواره معلم بعثي ، لها زميل قومي سوري ، ومعهم اخ مسلم . وكنا  
نتساءل : هل تعمل المعارف السورية على نشر الفكرة الشيوعية أم تبني القومية  
السورية ، أم تكون على مذهب الاخوان المسلمين ؟ هل للدولة توجيه؟؟

ان مئتي\* المدارس العامة في انكلترا كان يقول : اريد ان اعد جانتلمان ،  
مؤمناً ، متنوراً - ومضت المدارس العامة في إعداد طبقة ممتازة من المؤمنين  
المتنورين . فمن هو السوري الذي تعمل المعارف على إخراجه ؟ طرحت هذا  
السؤال على عدد من كبار رجال المعارف ومن صغارهم فلم أظفر بجواب . ان  
المعارف تكتفي بنشر العلم او المعلومات ولا تهتم بصنع الشخصية على مثال تراه .

لذلك لم يحمل المعلم السوري ، او لم تحمله المعارف ، رسالة غير تيسير العلم اليسير  
لأكبر عدد ممكن من الناس .

أرجو ألا يفهم مما تقدم اني لا اقدر الدور الذي تلعبه الاحزاب في النظام  
النيابي الحر ، كما أرجو ألا يفهم اني احرم على المعلم ان يفكر ويجهد نفسه ويعتق  
الفكرة السياسية التي يشاء ، ولكن لا يجوز للمعلم وهو عامل الدولة وامينها على  
ابنائها وحارس الحضارة والقيم ان يستغل مركزه للتأثير على الناشئين . واجب  
المعلم ان يعوّد الطالب على التفكير الطليق وان يهديه الى المثل الاخلاقية العليا  
ويتركه وشأنه بعد ذلك ، يختار ما شاء من مذاهب في السياسة والاجتماع .

### المفكرون :

أفي سوريا ادياء وشعراء وخطباء ومفكرون يقومون بحق الفكر والفن  
والادب ؟ ان اكثر كتابنا صحفيون ليس لما يكتبون قيمة في ميزان القيم ، وليس  
لهم سلطان ادبي يجعلهم مسموعي الكلمة محترمي الرأي ، واكثر ادياننا يفهمون  
الادب على انه تركيب الفاظ وصناعة إنشاء .

وشعراؤنا ؟ صادفت بالأمس شاعراً في دمشق ، فتن الشباب والعذارى  
وشهد له بالألمعية شعراء لبنان وأخرجت له ديواناً مطابع مصر - انه يستطيع ان  
يقول قصيدة كاملة في « المايوه الأزرق » وفي « احمر الشفاه » .. هو شاعر موهوب ،  
ما في ذلك ريب ، لكن هذه المواضيع لا يمكن ان تجعل منه شاعراً عظيماً يعني  
لشعب عظيم .

وأين أين المفكرون الذين يبحثون عن الحقائق ، ولهم الجرأة الكافية  
لاعلانها ؟

أتصدقون ، ايها السادة ، ان شهوراً عديدة تطوى وقد تمضي السنة  
والسنتان ولا يخرج في سوريا كتاب ؟ وفي بيروت لا يمضي اسبوع لا يصدر معه

كتاب من دار نشر واحدة ، وهناك عشرات الدور للنشر . ونزعم ان سوريا هي  
زعيمة الفكرة العربية ومركز الاشماع والانطلاق ؟

ومرت عاصفة فلسطين ولم تخلف في عالم الفكر سوى رسالة كتبت على عجل ..

والني دستور ، ووضع دستور ، وعلق دستور ، ولم نسمع كلمة المفكرين  
في نظام الحكم وما يلائم طبائع العرب وحاجات الزمان .

وحدثت الأحداث الجسام فما حركت مفكراً ولا اوحى بنظرية او  
رأي صريح .

فما بال المفكرين ، وما خطبهم ؟؟

لعل المفكرين في قيود من مطامهم وفي حرص شديد على الأمن والعافية .  
لأن من اراد ان ينصب نفسه معلماً لقوم ومرشداً وهادياً ، عليه ان يترفع ويتطهر  
كما فعل سعدي الشيرازي حين تقدم للهداية والاصلاح -

« يا سعدي ، لقد تشجعت في القول  
وما دام السيف بيدك فتول به الفتح  
وقل كل ما تعرفه فمن الخير ان تقول الحق  
فلست مرثياً ولا مرثياً  
ان الطمع قيد ، فاقطع بمحمتك هذا القيد  
واقض على الطمع وقل كل ما تريد . »

وهكذا استطاع سعدي ان يخاطب الملوك والامراء وان يفرض احترامه  
على الناس جميعاً .

قد يقول قائل : ولكن من يضمن حرية القول للمفكرين ؟ واجيب :  
ومتى كان المفكرون الكبار واصحاب الرسالات ينتظرون ان تهدي اليهم الحرية  
ليقولوا ، اذا وجد المفكر الاصيل فانه يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي  
ان يقال .

اليونان بأمرها والانسانية جمعاء مدينة لرجل اعلن الحق الذي رآه وذهب الى السجن راضياً ومشى الى الموت رافع الرأس وضرب للاجيال أروع مثال في الوطنية والاخلاق .

### الزعيماء

التفريق بين المعلم والمفكر والزعيم اقتضاه مجرد عرض الفكرة ، واني اعتبر الزعيم الحقيقي معلماً لقومه وهادياً ، واني حين افكر في الاصلاح والانقاذ اتمثل المنقذ في صورة معلم كما كان مازيني معلماً لقومه في القرن الماضي وكما كان غاندي قبيل انتصاف هذا القرن .

كم اتنى ان ارى شباب سوريا مجتمعون في حلقات حول مفكر كبير نبيل كما اجتمع شباب اثينا حول سقراط ، وشباب اميركا حول امرسن ، وشباب المانيا حول فيخت ( Fichte ) وجوته ( Goethe ) .

في قصة تانكريد ( Tancred ) لذرأيلي يقول اللورد تانكريد للاءير نخر الدين اللبناني : « اذا اردت ان تحرر بلادك وتكون امة من هذه الشعوب فلا تحسب الأمر يتم بارسال السفراء الى لندن وباريس ، فمن يدري ما يكون مصير المدينتين ؟ انما ينبغي ان تصنع مثل محمد وموسى . ان العالم لم يغلب قط بالكيده والدهاء ، وانما غلب العالم بالايمان واني اراك لا تؤمن بشي . »

ويجيب نخر الدين : « الايمان ، آه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشي° ويكتسح الدنيا .. فيعود تانكريد الى القول : « انظر يا فتى ، اني لا اجدا ما يعري في اكتساح الدنيا من اجل بيت شهاب - ان البيت المالك يزول كسائر الاشياء ، وانما يجب ان يغلب المرء العالم لينصر فكرة ، ان الفكرة وحدها تبقى الى الأبد ، ولكن اي فكرة ؟ هنا الفلسفة وكل الحكمة . »

ونحن نتساءل : أي اهداف وأي مثل ؟

اني احب كثيراً تلك الحكاية او الاسطورة التي يرويها افلاطون، وهي وان كانت من خيال الشاعر العظيم الا انها لا تخلو من عنصر حقيقة .

يزعم افلاطون ان النفس قبل ان تهبط الى هذا العالم تطوف السماء في صحبة الآلهة وترى المثل أو الفكر الخالدة - ترى الشجاعة الكاملة والعدالة التامة والجمال المطلق وكل الفضائل والكالات - والنفس بعد الولادة حين ترى وجهاً جميلاً أو تمر بروض انيق او تصغي الى شاعر عظيم تهفو وتصبو وتطرب لأنها تذكر ما رأت في السماء اثناء الطواف مع الآلهة .

ويزعم افلاطون ان التوفيق في الحياة يكون بقدر ما يحفظ الانسان ذكرى تلك الرؤيا الجميلة في السماء .

وهكذا ترون ايها السادة اني رجعي ارجع الى سقراط وافلاطون والقدماء ولا آتيكم بمجديد، وانظر بتحفظ الى دعوات الاصلاح السياسي والتجديد الاقتصادي وتوزيع الحقوق وتحسين العيش .

مشكلتنا أعمق بكثير من السياسة والاقتصاد، هي مشكلة امة فقدت مثلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مثلاً اخرى تتفق عليها . واني اعتقد ان العمل الجديد يجب ان يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء -

نحتاج الى من يقودنا ثانية الى المثل الخالدة - الى الحق لذات الحق، الى الخير لأنه خير، الى الجمال لوجه الله، الى الحرية مهما تكن العقبات، الى الشجاعة، الى الحب، الى كل فضيلة وكل كمال .

ولا يكفي ان نرشد الناشئين الى الفكر المجردة وانما ينبغي ان نضع امامهم أمثلة عالية من الادب والتاريخ والحياة - وان نعلمهم على أفضل ما كان وما كتب وما صنع وما خطر على بال . ولنغرس تلك الصور في صدورهم كقاييس يهتدون بها ويرجعون اليها في الحكم على الاشياء .

ان المؤدب اذا اراد ان يعدّ شاباً موهوباً ليكون فناناً او صاحب ذوق سليم يضع بين يديه أروع ما رسمت ريشة فنان .

واذا اراد ان يغذي شاعرية شاعر يطلعه على ما انتج اعظم شعراء العالم من هوميرو الى دانتى وشكسبير ، لأن حجة العبقريين تعودنا على جو المرتفعات وتعطينا النغم والنمط والاسلوب الذي ينبغي ان نجري عليه .

وهكذا اذا اردنا ان يصبح الناشئ مواطناً فاضلاً فلنضع أمامه أنبل الأمثلة عن المواطن الآثني في القديم والمواطن السويدي أو السويسري في هذا الزمان .

واذا اردنا مصلحاً ومنشئاً ورجل دولة فيجب ان ندله على نماذج فذة من الدول الفاضلة في التاريخ - آيينا على عهد بركليس ، روما يوم كان كاتو وشيشرون احراراً في مجلس الشيوخ ، اميركا على عهد لنكولن وواشنطن .

الرؤى الجميلة والمثل العالية هي الزاد الضروري لرحلة الحياة ، ويحصل الناشئ على ذلك الزاد في حجة أفضل الأشياء في العالم - اجمل الصور ، احسن البناء ، أفضل النظم ، أنبل الاشخاص ، وارقي الدول .

ايها السادة ، لقد تحدثت طويلاً عن الاهداف والمثل ولم اذكر بعد مصدر المثل جميعاً ومنبع الفكر ومبعث النور والحكمة وكل خير وكل جمال .

ان دعوتي ، ايها السادة ، ليست أقل ولا اكثر من العودة الى الله . والله المثل الأعلى ، كما جاء في القرآن الكريم ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض .



# التفاعل السياسي والثقافي بين البيزنطيين والمحمديين

فؤاد افرام البستاني

مدير دار المعلمين والمعلمات في بيروت  
واستاذ الآداب وتاريخ الحضارة  
العربية في جامعة القديس يوسف

= القيت بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٥٢ =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ

وَبِالْحَقِّ وَالْحَقَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

### ايها السيدات والسادة

أراني ، متكلماً عن الحمدانيين في عاصمتهم ، وفيها المؤرخ والشاعر والاديب ،  
كناقل التمر الى حجر . واراكم ، وقد استمتعتم بشيء من الصبر الى هذا الحديث ،  
تقولون : هذه بضاعتنا ردت اليها ! بيد ان ما شجعتني على المضي في هذا الموضوع  
دعوة الصديق الكريم الامناذ سامي الكيالي ؛ ثم رغبة الانسان في ان يسمع دائماً  
عمن يحبه ويمجبه به . ولم تكن حلب ، وقد احببت سيف الدولة وأحبابها ، لتخرج  
عن هذه القاعدة :

حديثه أو حديث عنه يطربني ...

\* \* \*

لا بد في الحرب من ان يتعارف الفريقان . يتعارفان في ساحة الوغى ، كما  
يتعارفان بتقارير العيون والارصاد ، وبدروس الخبراء والاختصاصيين . فيستفيد  
كل من تنظيم الفريق الآخر ، من مؤسساته الادارية والاجتماعية والثقافية .

فكان لا بد اذاً من ان يتعارف الحمدانيون والبيزنطيون ، وقد تحاربوا  
نحو ثلث قرن . فنتج عن ذلك تفاعل في السياسة والثقافة .

ونحن نفهم السياسة بمعناها الواسع القديم ، أي الادارة والتدبير ، ومنها تدبير الجيوش في السلم والحرب وما يلحق بذلك من تبادل الاسرى واساليب الفداء ، ثم سائر العلاقات بين الدولتين كالوفادة والسفارة .

اما الثقافة فتشمل مظاهر المعرفة جميعها .

ولا يخفى ان مصادر هذا البحث قليلة جداً ، لأنه قلما اهتم المؤرخون بهذه النواحي . انما كان اكثر همهم الحوادث الحربية . فكان محتوماً علينا ان نستنتج وتقابل . وقد عرضنا لكل ما امكننا الوصول اليه من اقوال مؤرخي العرب والبيزنطيين . ولم نهمل الشعراء ، وفي شعرهم شواهد تاريخية وثيقة لم نستغل بعد كما ينبغي ، لسوء الحظ .

ورأيت ان نبدأ الحديث بلوحة اجمالية نلخص فيها هذه الحروب المتتابعة على اكثر من ثلاثين سنة ، والبارزة فصلاً مختصراً من تاريخ الحروب البيزنطية - الاسلامية ، التي بدأت سنة ٦٣٤ ولم تنته الا بعد ثمانمائة وعشرين سنة ، بسقوط بيزنطية سنة ١٤٥٣ .

كان هم البيزنطيين ، منذ القرن الثامن ، ان يستعيدوا ما اغتصبهم اياه المسلمون من المناطق الواسعة - الا انهم ظلوا عاجزين عن الأخذ بالثأر طول ما كانت الخلافة العباسية قوية نشيطة . وكان لا يزال صهيل جياذ الرشيد والمعتم برن صده في انحاء هرقله ، وزبطره ، وأنقره ، وعمورية .

ولكن لم تأخذ وحدة الخلافة بالتجزؤ منذ اواخر القرن التاسع ، حتى استعاد البيزنطيون حماسهم القديمة ، ووضعوا خطة أخذوا بتنفيذها شيئاً فشيئاً ، حتى بدأ القرن العاشر ، واذا بهم قد تقدموا حتى حدود قيليقية . فصرحوا بمقاصدهم بمحسون جيوشهم وقوادهم ، وعلنوا ان غايتهم تخليص بيت المقدس واستعادة قبر المسيح . فكانوا من هذه الناحية سابقى الصليبيين الى فكرتهم .

ولو لم يقف امامهم قائد مدرب شجاع كسيف الدولة في اواسط القرن العاشر لما قويت الجيوش الاسلامية على اعتراضهم مدة طويلة . على ان سيف الدولة نفسه كان في الكثير من الاحيان يُضطر الى الدفاع بدل الغزو ، والى الفرار بدل الهجوم . وقد رأينا ايضا كما لهذه المعارك المتتامة مدة حكم سيف الدولة ، وتسهيلاً لفهم هذه الغزوات المتلاحقة كل سنة - أن تقسم حروب سيف الدولة والبيزنطيين أربع حقب :

### الحقبة الاولى ( ٩٣٨-٩٤٤ )

سيف الدولة : امير ديار بكر عليه ان يحارب البيزنطيين على حدود ارمينية وعلى حدود الجزيرة .

( قائد البيزنطيين إذذاك : الدمستق قرقاس ) ( Corcuas ) الارمني الاصل .

امبراطور الروم : رومانوس الاول ( Romaine Lecarpène )

الحرب سجال ، مع ميل الى النصر من ناحية الروم .

ينتصر سيف الدولة على اعدائه ، أول الأمر ، ويدخل حصن زياد ( خربوط ) في شتاء سنة ٩٣٨ ، ثم يضطر الى التراجع امام مائتي الف من عسكر الروم ، فيقيم بأرزن حتى الربيع .

يمود الى الغزو ، ويتقدم ، ويدخل قلونية ( قره حصار ) المدينة العظيمة المحصنة .

ولكن الفتن الداخلية بين القبائل العربية تشغله كثيراً . فيتقدم الروم سريعاً حتى يصلوا قرب حلب في اوائل سنة ٩٤٢ .

ثم يدخلون ديار بكر من جهة الشرق ، ويفتحون أرزن ويخربونها ، ويحاصرون ارها مطالبين بالتمديد المنطبعة عليه صورة المسيح . فيعطهم اياه المسلمون على شرط ان يطلقوا أسراهم .

وهكذا كان . فعاد الروم مغتبطين الى بيزنطية في ١٥ آب ٩٤٤ .

## الحقبة الثانية (٩٤٤-٩٥٤)

سيف الدولة : ملك حلب .

امبراطور الروم : قسطنطين السابع (٩٤٤-٩٥٩) (Gorphyrogénète)

الدمستق : بردس أو فردس بن الفقاس ( Berdos Ghocas )

على سيف الدولة ملك حلب ، ان يحمي كل الحدود الشامية والجزرية .  
من قواعده المهمة : حلب في سورية . وآمد ، وميفارقين في منطقة ديار بكر .  
أهمها فتحه حصن برزويه ، شمالي أرامية سنة ٩٤٧ .

ودخوله قيسارية قبادوقية ، وتوغله في بلاد الروم حتى سمندو ، في شمالي  
الطريق بين مرعش وقيسارية ، وحتى خرشنة في شمالي منطقة سيواس .

مرّ بنهر آس ، ونزل على صارخنة ، وهي على سبعة ايام من بيزنطية ،  
فأحرق ضياعها وكنائسها واكثر القتل في اهلها . وهزم الدمستق ، وأسر من  
بطارقته نحو ٨٠ ، « وكانت غزاة مشهورة وغنم المسلمون ما لا يوصف ، وبقوا في  
الغزو أشهراً » ، على قول الذهبي ، وذلك سنة ٩٥٠ .

على أن الدمستق لم يستسلم للخدلان ، وهو أعرف بمناطق بلاده . وعلى  
الطريق ، طريق الرجوع ، عقبة يسميها شراح المتنبّي « مقطعة الاثغار » ويسميها  
غيرهم « عقبة الشير » أو « درب الكنكرون » ؛ كان لا بد لسيف الدولة من  
اجتيازها بتلك الجيوش ، والاسرى ، والغنائم . فأسرع الدمستق وامتلكها ،  
وصفّ رجاله على جانبي الجبل . قال الذهبي :

« ورجع سيف الدولة في مضيق صعب . فأخذت الروم عليه الدروب ،  
وحالوا بينه وبين المقدمة ، وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ، ودهدوها الصخور  
في المضائق على الناس . والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون ، ولا  
منفذ لسيف الدولة . وكان معه اربعمائة اسير من وجوه الروم فضرب اعناقهم ،

وعقر جماله وكثيراً من دوابه ، وحرق الثقل ، وقاتل قتال الموت . فنجنا في نفر  
يسير . واستباح الدمستق اكثر الجيش وأسر امراء وقضاة . ووصل سيف الدولة  
الى حلب ولم يكده . »

وكان ذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ٩٥٠ .

وكان المتنبى مع سيف الدولة في هذه المعركة . فعمل على تخريج الانكسار  
تخریباً يخفف من عاره ، وينسبه الى جنين المسكر وخيانة السكان . وذلك في  
قصيدته العيضية التي ينهيا بمدح سيف الدولة وتعزيتته بانه سيمعود الى الأخذ بالثأر :

الدهر مقتدر ، والسيف منتظر ، وأرضهم لك مصطاف ومرتبِع

ولم يخطى<sup>٤</sup> المتنبى في توقعه الأخذ بالثأر ، فقد عادت الى سيف الدولة حميته ،  
فجمع فلول جيشه ، وعاد يستأنف الغزوات على الثغور ، ويبني ما نخرب من حصونه  
بسبب الحروب أو بسبب الزلازل المتوالية في سنة ٩٥١ .

وفي سنة ٩٥٣ ، ثارت القبائل في ديار مضر على سيف الدولة ، وأشدها  
بنو عقيل ، وقشير ، وعجلان ، فاضطر الى ترك الثغور الرومية لتأديب البدو  
ناحية المشرق .

وعرف الروم غيابه ، فتقدم الدمستق الى ناحية جيحان . وسمع به سيف  
الدولة فأسرع حتى أدركه على النهر . وهنا اشتبكت معركة شديدة جرح فيها  
الدمستق بردس قوكاس في وجهه ، واسر ابنه قسطنطين - وهو الثالث من اولاده  
بمد نقفور ولاون - في ٢٦ تموز سنة ٩٥٣ . وقد اتفق مؤرخو العرب ومؤرخو  
البيزنطيين على ذكر هذا الجرح . وكان المتنبى مع سيف الدولة ، على عادته ، فقال  
القصيدة التي مطلعها :

ليالي<sup>٥</sup> بعد الظاعنين ، شكول طوال ، وإبل العاشقين طويل

وكان ذكر هذا الانتصار بعيد الأثر في بلاد الأمير الحمداني ، فبعد ان  
أنشد فيه المتنبّي قصيدته الآتفة الذكر أخذ الشعراء يتبارون في موضوعه ، فيتبسّطون  
في شجاعة الأمير وما ناله من أسر ابن الدمستق وجرح ابيه . قال النامي :

وقد سار في الروم الدمستق باغياً له ساعة نكراء في نوب نكد  
وأسلم قسطنطين للقتل فردس وولى ، وقد خدّته فوهاء في الخد  
وظلّ الناس يذكرون هذا النصر العجيب مدة طويلة . وهذا المتنبّي يعود  
إليه في عيد الاضحى سنة ٣٤٢ الموافق ١٧ نيسان ٩٥٤ ، وقد مرّ عليه عشرة  
أشهر ، في داليتة الرائعة التي هنا بها سيف الدولة . ومطلعها :

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى  
ومنها ، في ذكر الحادثة :

فولى ، واعطاك ابنه وجيوشه جميعاً ، ولم يعط الجميع ليحمدا ...  
وأصبح يجتاب المسوح مخافةً ، وقد كان يجتاب الدلاص المسردا  
ويمشي به العكاز في الدير تائباً ، وما كان يرضى مشي أشقر اجردا

يشير الى اختفاء فردس ، وترقبه في أحد الاديار ، كما يشير غيره من  
الشعراء الى هذا الأمر . قال النامي :

لكنه طلب الترهّب خيفة ممن له تتقاصر الاعمار  
فمساك قائم سيفه عكازه ، ومساك ما يتمنطق الزنار

على انه لم ينكر هذا الأمر أحد من مؤرخي البيزنطيين . بل اتنازى ما  
يخالفه في ما يأتي من الاحداث . ذلك ان فردس نفسه جمع جيشاً جديداً في السنة  
التالية ، وأقبل يحارب سيف الدولة أمام قلعة الحدث كما سنرى . ولعله يكون قد  
لجأ ، في هربه ، الى احد الاديرة مخبئاً مؤقتاً ، فوصل الخبر الى معسكر سيف  
الدولة ، فعلق به الشعراء ، وولدوا منه حكاية الترهّب .



اما قسطنطين فقد قضى مدة في الاسر والذل ، وحاول ابوه افتدائه ،  
فعرض على سيف الدولة ثمانمائة الف دينار وثلاثة آلاف اسير ، على قول ابن شداد ،  
فلم يرض سيف الدولة . ويقول ابن العديم انه في آب ٩٥٧ أخبر سيف الدولة بان  
الروم يكتبون جماعة من غلمانه في أسر تسليمه اليهم ، فغضب ، وقتل من كان  
يحب من اسرى الروم . وكانوا زهاء اربعمائة . وضيق على ابن الدمستق وزاد في  
قيده ... حتى مرض قسطنطين ومات . فقال مؤرخو بيزنطية ، وفي طليعتهم  
قدريوس ، ان سيف الدولة سمّاه . وقال ابن شداد ان الدمستق ، ابا قسطنطين ،  
« سيّر الى عطار نصراني بحلب وأمره ان يسقي ولده سمّاً ففعل ، وذلك كي لا  
يستخدمه سيف الدولة » وهو غريب . ويقول كمال الدين ان سيف الدولة ، كان  
يحمل اسيره قسطنطين الابريق الى المتوضاً ، فيبكي هذا .

اما آخر انتصار في هذه الحقبة المجيدة فهو انتصار قلعة الحدث الذي طالما  
أشاد بذكره شعراء سيف الدولة ، ومن بعدهم مؤرخو العصر الحمداني .

كان جيش الروم في هذه الواقعة مؤلفاً من خمسين ألفاً يقوده الدمستق  
فردس ، ومعه ابنه تقفور الذي سيصير دمستقاً شديداً الوطأة على سيف الدولة ،  
وسيدخل حلب بعد ثمانى سنوات .

وكان سيف الدولة قد أتى الحدث بجيشه . ولا يذكر المؤرخون عدده .  
فبدأ بناء القلعة في ١٨ تشرين الاول سنة ٩٥٤ ، وحفر أول الاساس بيده . فنازله  
الدمستق في ٣٠ من الشهر نفسه . وكانت معركة شديدة من اول النهار الى العصر .  
وكان النصر قد مال الى البيزنطيين مدة ، فحمل سيف الدولة بنفسه في طليعة  
حرسه الخاص أو غلمانه المدربين ، وعددهم خمسمائة ، على قلب الجيش المنازل .  
فانهزم الدمستق وترك نحو ثلاثة آلاف قتيل . وأسر العرب عدداً من كبار القواد ،  
فقتل سيف الدولة اكثرهم ، واستبق بعضهم . منهم صهر الدمستق واسمه تودس  
الأعور ، أو تيودوسوس بطريق سمندو ولقندو ، وابنه ابي ابن بنت الدمستق ،  
ولم يذكر اسمه . واختفى تقفور بن فردس في قناة الحدث ، الى ان أتى الليل فخرج  
منها ولحق بأبيه . وغنم سيف الدولة الغنائم الكثيرة . وظل في المدينة حتى أمم

بناء القلعة ووضع آخر شرفة منها بيده في ١٣ تشرين الثاني ٩٥٤ فتبارى الشعراء  
في ذكر هذا الانتصار الجديد . من ذلك قول السري الرفاء :

رفعت بالحدث الحصن الذي خفضت منه الحوادث حتى ذلّ جانبه ،  
ولأبي الطيب في هذا الانتصار قصيدة نفحة تفتي شهرتها عن ذكرها ،  
ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

### الحقبة الثانية (٩٥٤-٩٦٠)

كان امبراطور الروم في هذه الحقبة لا يزال قسطنطين السابع  
(Corphyrogénète) وظلّ الدمستق نفسه فردس بن الفقاس . انما بدأ يعاونه  
ابناه : لاون وتقفور (Nicphore) .

وقد بدأ الروم يستعدون للانتقام ، على أثر تلك الكسرة الهائلة التي لحقتهم  
أمام قلعة الحدث ، فيلمون شعهم ، ويعودون الى الحصن نفسه ، فيحاصرونه في  
ايول ٩٥٥ ، ويقطعون الطرق ، فيسرع سيف الدولة خائفاً على قلعته ، حتى اذا  
قرب منها ، خرج اهل القلعة المحاصرون ، وجعلوا الروم بين الجيشين فكانت  
الكرة عليهم هذه المرة ايضاً . وفي هذه الموقعة يقول ائتمني قصيدته التي مطلعها :

ذي المعالي ! فليعلمون من تعالي هكذا هكذا ، والا فلا

وقد جراً هذا الانتصار سيف الدولة على متابعة غزواته في بلاد الروم .  
فمضى حتى قطع نهر أرسناس على اطواق وسفن حملها معه محملة ، كما يقول ابن  
ظافر - وأرسناس نهر يدعى ايضاً مراد - صو - ثم قطع الفرات ، واناخ على تلّ  
بطريق ، على الضفة الغربية . وفيه القائد ( Jean Tzimikés ) الذي يسميه  
العرب بأنس بن الشمشقيق . فأخلى المدينة . فدخلها سيف الدولة وأحرقها .

وقتل من الروم نحو اربعة آلاف وجسد ، وغنم ما يفوت الاحصاء من الدواب  
والديباج .

وكان ابن الشمشقيق بعد تراجعهم من تل بطريق ، قد التحق بالدمستق  
فردس ، فاتفقا على ربط الدرب على سيف الدولة في رجوعه . وهي خطة طالما  
لجأ اليها قواد الروم بعد أن ادركوا ما كان من اندفاع سيف الدولة في التغلغل في  
البلاد حتى التهور ، وعدم الاحتياط للرجوع . وما اتصف به من الاستبداد برأيه ،  
كما سنرى .

الا أن الانتصار كان لسيف الدولة هذه المرة ، فعاد سالماً الى آمد ، وذلك  
سنة ٩٥٦ .

وكان لاون البطريق ، ابن الدمستق فردس ، قد سار بشرزمة على دلوك .  
فالتقاه ابو العشار الحمداني - ويسميه البيزنطيون (Apolasar) - في جيشه .  
فانتصر لاون وأسر ابا العشار وحمله الى بيزنطية . وفيها مات .

وكان ابو الطيب مع سيف الدولة في المعركة، على عادته، فقال نونيته المعروفة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وتبعت هذه المعركة معارك كان فيها النصر تارة لسيف الدولة ، وطوراً  
للموم . وقد كان من ظفر الروم في هذه الحقبة أنهم اغاروا على ميفارقين  
( Miphracta ) فأحرقوا قراها ، ونهبوها ، وسبوا اهلها . وعادوا غانمين .

فمشى عليهم سيف الدولة حتى التقى بابن الشمشقيق، وكان لا يزال بطريقاً،  
فكسره وشتت جيشه وذلك سنة ٩٥٦، فكان نصر بنصر . ويذكر شراح ديوان  
المتني ان البطريق المذكور أقيم عند ملكه بأنه يفلب سيف الدولة ، ولا يرى  
اشارة الى هذا القسم في آثار المؤرخين . ولعل الشراح أخذوا بقول المتني في  
مطلع قصيدته الجزيلة الفائدة من جهة التاريخ ، وهي آخر قصيدة أنشدها الشاعر  
لسيف الدولة في حلب ، قبل فراقها . ومطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدمك القسم  
و كأن الطبيعة ختمت تلك المفاخر بهذه القصيدة الرفيعة . فأبعدت المتنبى  
عن اميره كي لا يرى تقهر جيوشه المتواصل .

وليس من شك في ان سيف الدولة أفلت كواكب سعده ، منذ سنة ٩٥٧ ،  
فدخل الدمستق حصن الحدث في حزيران وجلا اهله الى حلب ، وأخرب الحصن .

وسار ابن الشمشقيق الى آمد ، وأرزن ، وميفارقين ، سنة ٩٥٨ . فسير  
اليه سيف الدولة غلامه نجما في عشرة آلاف . فكسره ابن الشمشقيق ، وقتل  
منهم نحو ٥٠٠ على قول يحيى بن سعد . وتقدم ابن الشمشقيق ومعه البراكوس أو  
الباركونس (Basile le Parakimoumène) ففتحا سيمساط في أقل من يوم ،  
وحاصرا رعبان . فتقدم سيف الدولة بعسكره . ولكن لم تطل المعركة حتى انهزم  
سيف الدولة . فأوقع الروم ، وقتلوا وأسروا من اهله واصحابه ووجوه غلمانه ما  
كثرت عدده . وذلك في تشرين ٩٥٨ . ويزيد يحيى أن ابن الشمشقيق أدخل الى  
القسطنطينية من الاسرى الفأ وسبعمائة فارس ، وطوف بهم ، وهم على خيولهم ،  
لابسون سلاحهم . ثم اغارت الروم على قورس وسبوا خلقاً من اهلهما ، الا ان  
سيف الدولة خلص منهم الأسرى .

وكانت هذه الانتصارات مقدمات لتلك الغزوات البعيدة المدى في بلاد  
الاسلام التي قادت بيزنطية من حيث الاعمال الحربية الى دخول حلب سنة ٩٦٢ ،  
ومن حيث السياسة الى فرض معاهدة شديدة الوطأة على الحمدانيين شاء القدر ان  
يخلص سيف الدولة من ألم توقيعها ، مات قبل امضائها بسنتين . وذلك في الحقبة  
الرابعة .

#### الحقبة الرابعة (٩٦٠-٩٧٠)

توفي الامبراطور قسطنطين السابع سنة ٩٥٩ ، خلفه رومانوس الثاني .

وكان الدمستق فردس قد شاخ ، فعين الامبراطور الشاب دمستقاً شاباً على جيوش الشرق ، هو لاون بن فردس ، وعين اخاه نقفور بن فردس قائداً عاماً ، أو دمستقاً ، على جيوش الغرب .

فسار نقفور لفتح جزيرة اقريطش . وكان كثيراً ما حاول القواد فتحها قبل ذلك فمجزوا . وظل الدمستق الجديد على حصارها حتى فتحها سنة ٩٦٠ . وكان اخوه لاون قد مشى على نواحي طرسوس . فسبي ، وأخرب ، وفتح الهارونية . وسار الى ديار بكر داكاً الحصون في طريقه . وأسر في احدي وقائمه محمد بن ناصر الدولة .

وكان الانتصارات الرومية دفعت الحماسة في نلب سيف الدولة فاستعاد شيئاً من قوته ، وأغار على بلاد الروم في صيف ٩٦٠ . فأحرق عدة قرى ، وفتح بعض الحصون ، واكثر السبي متوغلاً في البلاد . حتى اذا اراد الرجوع ماراً بدرب مغارة الكحل ( Andrasos ) قريباً من مصبيصة ( Moponete ) وجد الدمستق لاون قد ملك عليه المضيق ، جارياً على الخطة المعروفة - وقد ذكر ابن الأثير ان بعض اهل طرسوس قالوا لسيف الدولة قبل وصوله الى المضيق : « ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه ، والرأي ان ترجع معنا ... فلم يقبل منهم ، وكان معجباً برأيه ، يجب ان يستبد ولا يشاور احداً ، لئلا يقال انه اصاب برأي غيره . وعاد في الدرب الذي دخل منه . فظهر الروم عليه . واستردوا ما كان معه من الغنائم . . . ووضعوا السيف في احجابه ، فأتوا عليهم قتلاً وأسراً . » وكان من جملة الأسرى ابو فراس الشاعر ، وعلي بن منقذ ابن نصر الكنتاني . ويقول كمال الدين ان سيف الدولة « لما أخذوا عليه الطريق وثب به حصانه عشرين ذراعاً وقيل اربعين ، فنجوا في نفر قليل ، » يجعلهم ابن الأثير ثلاثمائة ، ويزيد : « وهذا من سوء رأي من يجهل آراء الناس العقلاء ! » .

ولم يمض القليل حتى رجع نقفور ظافراً من بعثة اقريطش ، فعدا اعظم رجل في الامبراطورية خطراً . فأوجس منه الامبراطور نفسه ، وخاف ان يبقى في العاصمة ، فولاه دمستقية المشرق مكان اخيه لاون . واذا بالقياد الجديد يتقدم نحو

بلاد الحمدانيين بجيش عظيم يبلغ به مؤرخو الروم مأتي ، ويزيد مؤرخو العرب نحو  
الستين الفاً ، على التفصيل الآتي ، مأخوذاً عن ابن العديم :

فارس	٢٠٠٠٠٠
راجل بالجواشن	٣٠٠٠٠
عامل للهدم وتطوير الثلوج	٣٠٠٠٠
بغل	٤٠٠٠

تجمّع هذا الجيش على الأرجح ، في قبسارية قبادوقية . ثم مشى قاطعاً  
جبل طوروس دون مقاومة تذكر ، ماراً من « الدروب » أو « الابواب القيلية »  
( Piles Ciliciennes ) ، حتى اذا ظهرت طلائمه في سهول قيليقية ، في اواخر  
كانون الأول ٩٦٦ ، تسارع المسلمون الى الحصون الجبلية يحمون بها . وكانت  
الحصون منتشرة في المرتفعات كأو كار النسور ، وكها في يد الحمدانيين ، فوق ما  
في السهول والبطائح من المدن المحصنة كطرسوس ، وأدنه ، ومصيصة ، وسلوقية ،  
وعين زربة ( Anazarbe ) وهذه الأخيرة من أشهر المواقع المحصنة في بلاد الثغور ،  
ارتفعت على أحد سواعد جيجان ( بيرام ) فأشرفت على الطريق من طرسوس الى  
بلاد الشام . حصنها أولاً الامبراطور يوستينوس ثم يوستينيانوس ، ثم هرون  
الرشيد ، فاشتهرت بمناعتها وعلو اسوارها . وكان الحمدانيون يضبطون ايضاً منافذ  
الطرق القيلية الى بلاد الشام ، وهي دروب الأمانوس أو جبل اللكام .

الا ان جيش نقفور الهائل أوقع الایجاس في قلب سيف الدولة ، فأمر  
باخلاء السهول والتراجع الى الحصون .

وتقدم نقفور مسرعاً من انتصار الى انتصار حتى بلغ ما احتله ، في ٢٢  
يوماً ، ٥٥ حصناً ومدينة ، على قول ابي الفرج ، و٥٤ على قول ثابت بن سنان  
وابن الأثير ، واكثر من ٦٠ على قول لاون الشمس . ولم يهاجم جيشه مهاجمة  
تذكر الا مرتين : الاولى : في طريقه الى حصار عين زربة ، إذ هاجمه ابن الزيات ،  
امير طرسوس ، فباء بالفشل . والثانية في اثناء الصوم ، وقد هجم نجا ، أحد قواد  
سيف الدولة ، غازياً قيليقية ، فاضطره الجيش البيزنطي الى الرجوع حالاً .

ومما يذكر من الاحداث المهمة في هذه المدة سقوط عين زربة . وذلك ان حاميها كانت قليلة الذخيرة ، فما اقام الجيش البيزنطي على حصارها حتى طلبت الأمان . فأمن تقفور سكانها ، على ان يخرجوا حاملين ما شاءوا . ودخل الجيش القلعة في اوائل شباط ٩٦٢ . بيد ان المستق نقض عهده مع السكان في ما خص ممتلكاتهم .

ثم أخرج أسوار المدينة ، وما كان فيها من جوامع . واتصل الخراب بالضواحي فقطع المسكر اكثر ما كان في الأرباض من الشجر ، وكانت أشبه بغوطة دمشق ، على قول المؤرخين .

وتقدم الروم الى حصن سيس ، على أحد سواعد جيحان ، فسقط في يدهم . بعد ذلك أمر تقفور رجاله بالراحة ، مدة الصوم الكبير . واتجه هو الى قيسارية مدينة ملوك قبادوقية ، ليقضي صومه وفصحته ، وقد وقع الفصح تلك السنة ٩٦٢ في ٣٠ آذار .

ثم أتى الصيف وجيش البيزنطيين مخلص الى السكينة ، وجيش الحمدانيين منتظر هجوم الأعداء .

ولم يتحرك تقفور الا في الخريف . فتابع سيره نحو منافذ الامانوس ، تحت الاسكندرونة ، وهو «الابواب» أو «الدروب» الشامية (Pyles Syriennes) ومنها مدخلان الى بلاد الشام : مدخل بيلان ، ومدخل بغراس . ولم يصادف الجيش لديهما مقاومة تذكر ، فقطعهما في اوائل كانون الأول ٩٦٢ . وكانت مرعش ودلوك قد سقطتا . وافتدى اهل بغراس انفسهم بالمال . فأصبحت سورية مفتوحة الانحاء أمام تقفور .

عند ذلك أسرع سيف الدولة لجمع نحو اربعة آلاف رجل ، وهجم على مقدمة الروم ، قرب اعزاز ، على اثني عشرة ساعة شمالي حلب . ولكنه اضطر الى التراجع أمام ذلك الجيش الهائل ، فعاد الى عاصمته يمحضنها . وترك في اعزاز قائده نجا في ثلاثة آلاف يكشفون حركات العدو ويؤخرون تقدمه ، اذا امكن .

على ان الجيش لم يكن ليتأخر ، والحصون تسقط في يده واحداً اثر واحد ،  
والسكان يهربون أمامه . وقد امتلك مرعش ، ودلوك ، وعينتاب ، وورعبان ، ومنبج .

وكان امير منبج ، ابو فراس الحمداني الشاعر ، في الصيد ، إذ تقدم الى  
حصار مدينته ، تيودور ، ابن أخي الهمستق في تشرين الثاني ٩٦٢ . ففاجأت  
الشاعر كشافاة البيزنطيين فدافع عن نفسه دفاعاً شديداً حتى ثقلت عليه الجراح  
فاستسلم مع سبعين من رجاله ، فاسر وحمل الى بيزنطية ، وظل أثر الجرح في نغذه ،  
يعرج منه طول حياته . وفي هذه الواقعة يقول :

أسرت ، وما صحبي بعزلٍ لدى الوغى ، ولا فرسي مهر ، ولا ربه غمر  
ولكن اذا حمَّ القضاء على امرئٍ فليس له بر ، وليس له بحر ؟

وظال الأسر على ابي فراس ، وهو يرجو ان يفديه سيف الدولة ، ولا يعلم  
تلك المصاعب التي كان يتخبط فيها سيف الدولة ، فيعتب ، ويحنق ، ثم يكبح  
أنفته ، فيستعطف ، ويكتب الى والدته معزياً مؤملاً بالفرج القريب . كل ذلك في  
قصائد رائعة باخلاص العاطفة ولطف التعبير ، حتى غدت «رومياته» - أي القصائد  
التي كان يرسلها من بلاد الروم - من أجود المذكرات الأدبية بالدرس والتأمل .

أما البيزنطيون فقد واصلوا سيرهم نحو الفرات . وسيف الدولة مجدداً في  
تحصين حلب . وكانت اسوارها تبلغ خمسة كيلومترات طولاً ، وفيها سبعة ابواب  
أهمها باب قنسرين في الجنوب الغربي من القلعة .

وظلَّ الجيش البيزنطي على تقدمه لا يقف في وجهه حاجز . حتى قطعت  
طليعة خيالاته نهر القويق عوماً لأن الجسورة كلها كانت بيد الحمدانيين . وكان مع  
الهمستق تقفور رفيقه ابن الشمشقيق .

وايس لنا في وصف تقدم البيزنطيين ، وتراجع الحمدانيين ، أفضل من  
رواية المؤرخ كالدين ، وعنه أخذ من أروخا الحادثة من المستشرقين ، فضلاً  
عن العرب ، ككفريتاخ وشلومبرجه .



وخلصتها ان تقفور دخل المدينة في ٢٢ كانون الأول ٩٦٢ ، فتحصنت الحامية في القلعة ، وكان من الطبيعي ان يخرب قصر سيف الدولة . فأخذ منه تقفور ٣٩٠ بكرة دراهم ، و ٢٤٠٠٠ بقل ، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى . ثم أحرقه وأخرب الجامع الأكبر . ولم يتعرض لسواد حلب واقرى التي حوله . وقد كان وقع هذا الفتح عظيماً في بيزنطية ، كما كان وقعه عظيماً كذلك في انحاء العالم الاسلامي .

أما تقفور فانه لم يقم طويلاً في حلب . وقد أتاه البريد ب وفاة الامبراطور رومانوس الضعيف ، فأسرع الى العاصمة حيث 'توج' امبراطوراً باسم تقفور ، وتزوج تيوفانو ، امرأة رومانوس . وترك دمستقاً على المشرق رفيقه ابن الشمشقيق . فسهل على سيف الدولة الرجوع الى حلب .

وفي كانون الثاني ٩٦٣ ، عاد سيف الدولة الى حلب . فعمر ما خرب منها ورمم المسجد الجامع . وعادت الحرب سجالاً بينه وبين الروم ، على تقدم وهجوم من ناحية الروم ، وعلى ضعف ودفاع من ناحيته . وقد اخذت بوادر المرض تمهك قواه . وكان تقفور ، الذي اصبح امبراطوراً ، قد رجع بنفسه ، يتابع انتصاراته في الشرق . فاحتل مصبيصة وطرسوس سنة ٩٦٥ .

وظلت الجيوش البيزنطية على تقدمها من ناحية آمد - ديار بكر . وسيف الدولة يحس بالضعف ، ويستنجد بالعرب ، فينجده بعضهم . الى ان دخلت سنة ٩٦٧ فاشتد المرض على الامير ، واختلف فيه . فقال بعضهم هو الفالج . وأنكر غيرهم . بيد أن الثابت ان الامير توفي بعسر البول نهار الجمعة في ٨ شباط ٩٦٧ ، في حلب . فنقل الى ميفارقين ، وفيها دفن باحتفال مهيب .

خلفه ابنه ابو المعالي ، وكان صغيراً . فتولى الوصاية الحاجب قرعويه . ولم يكن يخلو من طموح الى الاستئثار بالحكم ، فزادت الاضطرابات ، وتتابع تقدم الروم . وتفاقت الحالة بشورة ابي فراس في نواحي حمص ، تلك الثورة التي انتهت بقتله في نيسان ٩٦٨ .

وفي تشرين الأول من السنة نفسها ، عاد الامبراطور تقفور الى بلاد  
 الحمدانيين ، فاكتسح وادي العاصي حتى حمص ، وهبط منها الى طرابلس . ومشى  
 على الساحل حتى انطاكية . وفي السنة التالية عمّر تقفور حصن بغيراس وجنر  
 جيوشه للحرب ، وأقام قائداً عليها ابن اخيه لاون ، بطرس فوكاس الملقب  
 ( Stratopédarque ) والذي يعرفه العرب باسم الطربازي والاطربازي . ورجع  
 الامبراطور الى بيزنطية لما وصله من ان البلاط شاغب عليه . وكانت زوجته تيوفانو  
 قد اتفقت على التخلص منه مع زميله السابق ابن الشمشقيق ، فنفذت مأربها في ليلة  
 ١٠-١١ كانون الأول ٩٦٩ قاتلة تقفور ، منادية بصاحبها امبراطوراً .

وكان الطربازي يتابع سيره على حواضر العالم الاسلامي . فدخل انطاكية  
 في ٢٨ تشرين الأول ٩٦٩ ومشى على حلب . فانسحب ابو المعالي الى حمص . وكان  
 محاصراً حلب انتقاماً من قرعويه الذي ثار عليه ، واستقل بالمدينة . ففرح قرعويه ،  
 الا ان فرحه لم يطل ، لأن الطربازي أخذ بمحاصر المدينة من جديد ، حتى فتحت  
 ابوابها في اوائل كانون الأول ٩٦٩ .

وعلى اثر ذلك عقدت معاهدة شهيرة أقرت حماية البيزنطيين ، أو انتدابهم ،  
 على مملكة حلب ، فختمت تلك الحروب المستطيلة . وقد وقعت المعاهدة قبل مقتل  
 الامبراطور تقفور ببضعة ايام ، فأمكنه ان يموت قرير العين .

\* \* \*

كان سيف الدولة أول الأمر - ولا سيما زمن امارته على ديار بكر - يقوم  
 بالحروب على شكل غزوات سريعة يكتفي فيها بالتخريب والاحراق والنهب والأمر .  
 وكثيراً ما كان يهمل السهر على طريق الرجوع ، فيقع في ما كان ينظمه الروم من  
 اشراك في العقبات ، فيخسر كل ما يكون قد افاده في تلك الغزوات الصاعقة .

على انه لم يكن يستتب له الأمر في حلب ، وتوالي المعارك المنظمة بينه  
 وبين الروم ، حتى أخذ يستفيد من طرق التنظيم في الجيش الرومي ، ومن خطط

قواده ، في اساليب الهجوم والدفاع . ولاروم ماضٍ عريق في هذه الشؤون ، وخبرة واسعة افادوها من حروب متواصلة في الشرق والغرب مدة القرون الطويلة . حتى ان تقفور ترك كتاباً شهيراً في هذا الموضوع أسهب فيه في تحديد الطرق التي ينبغي للقواد أن يسيروا عليها في حروبهم مع المسلمين من ناحية الثغور الجنوبية أي من ناحية الشام ( طوروس واللكام ) ، وأشار الى كيفية قطع العقبات والمنافذ الجبلية مع وصف الخابئ والملاجئ والخدع الحربية مما يدل على تقدم بالغ في تنظيم الخطط وسائر الاساليب المعروفة بالستراتيجية . حتى انه لم يهمل جليلاً ولا دقيقاً في باب الاستعداد للحرب وقيادتها : الاسلحة ، الذخائر ، المؤن ، المياه وتوزيعها في اثناء المعارك . الكشافة ، الطلائع ، مدة السير في كل نهار ، حفظ المعرقات ومراقبتها ، احتلال المضائق في الجبال قبل وصول العدو ، مفاجأة العدو ومباغتته بعد رجوعه من الغزوة . مراقبة حركات الجيش العربي ، اساليب التخمين في تقدير عدده ووعده . دور المشاة ولا سيما في الدفاع عن المجازات والطرق الجبلية . وهناك فصل خاص في ما يجب اتخاذه لدرء هجمة غير منتظرة ، وفي تنظيم الموافقة بين سير الخيالة وسير المشاة ، مع المحافظة على المعدات والذخائر ، والاسراع في نقلها . ثم في اساليب نصب الاشرار لجيش يفوق الجيش البيزنطي عدداً ، وفي تنظيم اللحاق به بفرق قليلة العدد منتشرة الغارات . ولم يفته الحصار فدرس اساليبه في الحصون الجبلية ، وفي القلاع الساحلية . الى غير ذلك مما استفاد منه سيف الدولة إذ رآه مطبقاً في الجيش البيزنطي ، كما استفاد من نظام العسكر المأجور في جيش الروم فأحدثه في جيشه . وهكذا أمكننا ان نصف الجيشين المتحاربين وصفاً يكاد يكون تاماً استقدينا فيه الى المصادر العديدة شرقية وغربية .

كان جيش سيف الدولة مؤلفاً من عسكر نظامي يشتمل على مسلمي بلاد سيف الدولة ، يضاف اليهم كثير من الشبان المتحمسين المعجبين بجهاد الامير في سبيل الاسلام ، يأتون من جميع انحاء العالم الاسلامي ، كل ربيع ، فينخرطون في الجيش الحمداني .

وكان هناك فرق من الفرسان أشهرها فرقة غلمان سيف الدولة ، أو  
حرسه الخاص ، تجمع الموالي الناشئين في حماه ، وأكثرها من الصبية المأسورين في  
بلاد الروم أو في غيرها من ديار الحرب .

وفوق ذلك فرق العبيد المأجورين من مصر خاصة ، ومن بلاد الترك .  
يلتحق بهم عدد من السودان والبربر ، مسلمين وغير مسلمين .

ولكل هذه الفرق ، فرساناً ومشاة ، نظام دقيق و ترتيب عسكري لا يقل  
في شيء عن نظام البيزنطيين .

ولهم العيون والجواسيس والطلائع ، المتعززة على السرعة والانتباه والحذر ،  
تحتل المنافذ والدروب ، فتقف على غايات العدو ومقاصده ، وتطير حامله الى الأمير ،  
أو الى أقرب قواده اليها ، المعلومات الدقيقة .

أما اسلحة العرب فكانت القوس والنشاب ، والحراب ، والرماح ، والسيوف ،  
والفؤوس ، والعمد أو المستوفيات ، وهي عمد من حديد مربعة يبلغ طول الواحد  
منها الذراعين ، وله مقبض مدور . وكانوا يلبسون الخوذ والدروع . ولكنها كانت  
تختلف عن دروع البيزنطيين بأن دروع البيزنطيين كانت سابعة طويلة . اما دروع  
العرب فتغطي صدورهم وحدها . وقد يلحقون قطعاً لتغطية السواعد والاختاذ  
والسيقان . وكان للبيزنطيين دروع للخيول سابعة تغطي اجسامها وبعض قوائمها .  
وهي التي قصدها المتنبي إذ قال في وصف جيش الروم الزاحف على الحدت :

أنوك يجرون الحديد ، كأنما سروا بجيادٍ ما لهن قوائم

ولم يكن لحيل العرب دروع . على انهم كانوا يستعملون تروساً واسعة تستر  
البطل بكامله .

وفي ما عدا دروع الخيل ، كانت الاسلحة تشابه في الجيشين .

اما الاختلاف فكان في طرق نقل الذخائر . كان البيزنطيون ينقلونها في  
المركبات ، أو على ظهور البغال . والمسلمون يحملونها على ظهور الجمال . ثم كان  
الحمدايون لا يستعملون الابواق في الحرب . بل الطبول الصغيرة يقرعونها قرعاً  
متقارباً مستطيلاً . فكان هذا القرع يُجفل خيول البيزنطيين ، اذا ما التقى الجيشان ،  
كما يقول الامبراطور لاون . وكذلك القول عن منظر الجمال بما عليها من الشرائط  
والشراريب المتدلّية المتنوعة الالوان ، فانه كان يؤثر في الخيل البيزنطية فتضطرب .

وهناك اختلاف في طرق الحصار ، واستعمال آلاته . فقد كان الجيش  
البيزنطي اكثر تقدماً فيها . كما كان خيالة الحمدايين أجراً على الهجوم وأسرع  
في الرجوع .

كان للبيزنطيين أكباش قوية ، وهي آلات لهدم الاسوار . ومجانيق ،  
وعرّادات ، وللعرب منها . إلا ان مجانيق البيزنطيين أقوى وأضخم يمكنهم ان  
يرموا بواسطتها صخوراً كبيرة على المحاصرين . وقد رموا في حصارهم مدينة  
الخدق في جزيرة اقريطش ، بقيادة نففور بن فردس الذي كان دمستقاً في الغرب  
سنة ٩٦٢ ، حماراً حياً . وكان ذلك على سبيل المداعبة عندما عض الجوع المسلمون  
المحاصرين فهزى منهم البيزنطيون بأن رموا اليهم بالحمار لياً كلوه .

وكان البيزنطيون يستعملون النار اليونانية ، تلك النار التي اخترعها كاليبيكوس  
البناني من اهل بعلبك ، حملها الى بيزنطية سنة ٦٧٢ ، وظل البيزنطيون يتناقلون  
سرها فيستفيدون باستعمالها دون غيرهم من رجال الحرب حتى القرن الثاني عشر .

أما الجيش البيزنطي فكان مجموعة من الامم المتباينة تتكلم اللغات المختلفة :

كان فيه الخزر وهم نصارى ، والفرغان أو الفارنجيون ، والمجريون الترك ،  
والارمن ، والصقلب أو السلافيون ، والدلماسيون ، ثم المردة ، وهم أشجع عساكر  
الامبراطورية البيزنطية ، وأشرسهم على قول شلومبرجه ، وهم أنسباء الموارنة في  
لبنان ، والمرديون والارناووط في ألبانية .

وكان من اشهر خيالة الجيش البيزنطي الروس ، ارباب الخيول المصفحة ،  
اذا صح التعبير . وقد أخذ المتنبى بمنظرهم فوصف خيولهم المدرعة ، ودروعهم ،  
وخوذهم ، وأسلحتهم البيضاء الالامعة كأنها تحت وقع أشعة الشمس حتى لا يسكاد  
الناظر يعز بين الفارس والفرس ، وبين الثياب والعمائم والدروع والخوذ ؛ على حد  
قوله :

أتوك يجرون الحديد كأنما      سروا بجياد ما لهن قوائم  
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم      ثيابهم من مثلها والعمائم

وقد قرنهم بالروم في بيت آخر دلالة على اهميتهم :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها      وذا الطعن أساس لها ودعائم

وكان هؤلاء الروس وثنيين في بلادهم يسكنون مناطق اسكندرية ،  
ويأتون جماعات الى بيزنطية بطريق البحر في قوارب صغيرة يحفرونها في جذوع  
الاشجار . ولقرط ما اشتهروا به من القوة والبطش كان الامبراطرة يعقدون مع  
امرائهم معاهدات ليرسلوا كل سنة الى بيزنطية عدداً معيناً منهم . فكان البيزنطيون  
يعمدونهم ( ينصرونهم ) فور وصولهم ، ويدخلونهم في الجيش بين المأجورين  
أو المرتزقة . وقد عرفوا بضخامة ابدانهم وبسلاح خاص : هو سيف عربي ،  
أو رمح طويل ذو سنان مزدوج ، أو فأس منحنية لها حربة في رأسها . الخلاصة  
كانوا يمثلون على خيولهم المدرعة ما تمثله الفيلة في الحروب القديمة ، وما تمثله  
الدبابات في عصرنا .

وكان لكل من هذه الشعوب لغة خاصة به . ولم يكن بد للقائد البيزنطي  
الأعلى من ترجمة ينقلون او امره الى لغات هذه الفرق . وهو ما أشار اليه المتنبى  
ايضاً في وصفه الجيش الزاحف على الحدث :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه      وفي اذن الجوزاء منه زمائم  
تجمع فيه كل لسن وأمة      فما تفهم الحداث الا التراجم

ولنتقل الى ذكر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين بادئين بالاشارة الى الوفود في سبيل مفاداة الاسرى .

يذكر المسعودي فداء آتمة سيف الدولة في خلافة المطيع في تشرين الاول ٩٤٦ وكان القيم به نصر الثملى من قبل سيف الدولة. وعدد من مُفدي من المسلمين ٢٤٨٢ من ذكر واثى . وفضل للروم على المسلمين قرصاً مائتان وثلاثون لكثرة ما كان في ايديهم فوفاهم سيف الدولة ذلك وحمله اليهم . وهذا الفداء كان قدباشره الاخشيد على يد أبي عمر عدى بن احمد بن عبد الباقي الأذني ( نسبة الى أذنة ) المعروف بشيخ الثغور . وكان قد قدم دمشق في السنة السابقة مع رسول ملك الروم الذي يسميه المسعودي يوانس الأنسيبطوس البطريقوس المسدقوس المترقب ويقول عنه : « وكان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم ومن كان في أعصارهم من الفلاسفة وقد أشرف على شيء من آرائهم . »

أما ابو عمر عدى بن احمد الأذني فالعروف عنه انه كان سفيراً في بيزنطية ، على عهد الامبراطور لاون السادس ( ٨٨٦-٩١٢ ) وقد رافق الوفد البيزنطي الى بغداد على عهد المقتدر .

وهناك رجل تصح تسميته سفير سيف الدولة في بلاد البيزنطيين ، هو ابو القاسم الحسين بن علي المغربي ، الذي ارسله سيف الدولة سنة ٩٦٥ الى تقفور رهينة عن بعض الاسرى . فكان من حسن سياسته ولطف دهانته ان غدا يقوم ، لا مقام الرهينة ، بل مقام السفير .

وكان سيف الدولة بحاجة الى هدنة يرتب فيها امور مملكته وبطلب مفاداة الاسرى الذين كثروا عند الروم ، وبينهم ابو الفوارس محمد بن ناصر الدولة ، وابو فراس الذي كان يلج بطلب المفاداة منذ اربع سنوات . وكان لدى سيف الدولة عدد من اسرى الروم في طرسوس كان الغلاء وسوء الحال وقلة الاقوات تعجز الدولة عن إعالتهم .

فكان في تلك الهدنة مصالح عدة . وكان لأبي فراس دور مهم في إقرار  
 الفداء ، حتى اذا ورد كتاب الشاعر بموافقة الروم على طلب سيف الدولة « وفيه  
 خط ملك الروم بالاحمر وخطوط بطارقتة » على ما في قول الذهبي؛ سار سيف الدولة  
 « الى سيمساط ، وأقام الفداء على شاطئ الفرات ، في يوم الخميس مستهل رجب  
 سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ( أي ٢٣٣ حزيران ٩٢٦ ) ، كما يقول يحيى بن سعيد؛  
 وفادى بمحمد بن ناصر الدولة ، وبأبي فراس ، وغيرهما من بني حمدان ، وبالقاضي  
 ابي الهيثم بن ابي الحصين ، وزهير ، وقطاس ، وغيرهم من غلمانة ... ودفع بدتهم  
 من بطارقة الروم رأساً برأس . « وكان ابو العشار قدم مات في القسطنطينية في  
 الحبس ... ولما لم يبق عند سيف الدولة من الروم من يفادى به اشترى من الروم  
 بقية أسرى المسلمين . وكان عددهم ثلاثة آلاف بمائتين واربعين الف دينار رومية .»

ولم تقتصر الوفادات على مفاداة الاسرى . بل كانت تأتي احياناً في طلب  
 الهدنة ، كالوفد الذي رئسه بولس مونوماك ، فوصل حلب في حزيران ٩٥٤ ،  
 وسيف الدولة في اجهة مجده ، فاستقبله استقبالاً باهراً أظهر فيه عظمة جيوشه في  
 سفح جبل جوشن ، على ما جاء في ديوان ابي فراس ، « وأمر بالركوب بالسلاح  
 فركب من داره الف غلام مملوك بألف جوشن مذهب على الف فرس عتيق والف  
 تجفاف ... وركب الناس والقواد على طبقاتهم حتى الجيش . » وفي ذلك يقول  
 أبو فراس :

علونا جوشناً بأشد منه      وأثبت عنه مشجّر الرماح

وللمتني في هذه الوفادة قصيدتان اشهرها اللامية التي يشير في مطلعها الى  
 كتاب ملك الروم في طلب الهدنة ، والى ان ذلك محاولة منه لتأخير الغزوة وبنها  
 يتأهب للقتال ، فيقول :

دروع لملك الروم هذي الرسائل      يرد بها عن نفسه ويشاغل

وفي تاريخ كمال الدين ( زبدة الحلب ) ان ملك الروم ارسل وفداً الى  
 سيف الدولة ، وكان في آمد ، سنة ٣٣٨ هـ ( ٩٤٩ م ) وكان في رجال سيف الدولة



مروان العقبلي القرمطي . ولأمر ما قتل مروان رجلاً من اصحاب موفد الروم .  
« فتلا في سيف الدولة ذلك وسير الى ملك الروم هدية سنوية ، وافرة دية المقتول ،  
واعتذر ان مروان فعل ذلك عن سكر . »

وكان بين الدولتين ، على وغم المعارك المتتابعة ، مجاملات ، ومعاملات  
انسانية راقية ، نوجب بها حتى في عصرنا ، اذا ما شهدنا العلاقات الدولية في اثناء  
الحرب . من ذلك انه لما توفي قسطنطين ابن الدمستق فردس ، في أسر سيف الدولة ،  
أعطى الأمير جثته نصارى حلب فدفنوها في احدى كنائسهم باحتفال لائق .  
وكتب الى ابيه كتاب تعزية .

ومنها ان الامبراطور البيزنطي أمر ان يفرد في السجن المعروف بالبريتون  
( Praetorium ) في بيزنطية ، محل خاص حوّل مسجداً ليتمكن أسرى المسلمين  
من اداء الصلاة . ويذكر ابو الفداء مسجداً آخر في بيزنطية رجمه الامبراطور  
قسطنطين مونوماك .

نذكر ذلك فيزيد إعجابنا ان تلك الحروب كاذت دينية خالصة . ويتضاعف  
احترامنا لهذا التساهل الذي لحنا أثره في المعاهدة الاخيرة التي حسمت الحروب المستطيلة  
بين بيزنطية ودولة الحمدانيين ، معاهدة فرضها الغالب البيزنطي سنة ٩٦٩ فكانت  
أشبه بصك الانتداب . ومع ذلك فقد نصت في احدى موادها بما يلي حرفياً :  
« وأي مسلم دخل في دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه . ومن دخل من  
النصارى في ملة الاسلام فلا سبيل للروم عليه . »

ومن هذه المجاملات ان الامبراطور كان كثيراً ما يدعو كبار الأسرى من  
امراء الحمدانيين الى الحفلات العامة ، فيحادثهم ، ويناقشهم احياناً تلك المناقشات  
الدينية التي عرف بها البيزنطيون . فيتخذ التفاعل شكلاً ثقافياً . ولا يخفى ان  
العرب كانوا قد أخذوا يعرفون ، في هذا العصر ، بالعلم ، والتبجر ، والتصرف في  
مختلف انواع الكتابة ، كما عرفوا بضعف السلطة المركزية ، وانحطاط قوة الخلافة .  
فكان البيزنطيون ينسبونهم بالاكثر الى الكتابة . متظاهرين باهمال خطرهم الحربي ،  
بينما كانوا يدلون بأنهم ، أي البيزنطيين ، لا يزالون محتفظين بالسلطتين : الثقافية  
والحربية . وفي ديوان ابي فراس اصداء لهذه المناقشات .

يدلنا بعضها على رغبة المستق - وهز بالأرجح تقفور المعروف بتقواه  
وحسن عبادته - في المناظرات اللاهوتية . وقد حضر الشاعر الحمداني واحدة منها ،  
فأحفظه ان يحوض المستق في شؤون الحلال والحرام ، متباحثاً مع بطارقتيه  
الكثاف اللحي ، الضخام العثانين ، فيشير بما يخالف معتقد الشاعر الأسير ،  
فيقول هذا :

ألا من أعجب الاشياء علج يعرفني الحلال من الحرام !  
وتكفنه بطارقة تيوس تبارى بالعثانين الضخام

وفي مناظرة اخرى - ولا ندري موضوعها لسوء الحظ - ولا مصدر لنا  
في هذا سموي ديوان ابي فراس ، يظهر ان الشاعر تجاوز الحد ، في وهيج الجدل ،  
فأحفظ المستق فقال هذا : « انما اتم كتاب ، ولا تعرفون الحرب ، فقال ابو فراس :  
« نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ »

ثم دون ذلك في شعره ، شأنه في ما كان يعرض له في بيزنطية حتى صح  
ان الروميات خير مذكرات أسره . فقال :

أترعهم يا ضخم اللغاديد ، اننا ونحن اسود الحرب ، لا نعرف الحربا  
ومنها :

بأقلامنا أبحرت أم بسيوفنا ؟ وأسد الشرى قدنا اليك أم الكتبا ؟ .  
ولننتبه لدقة الوصف في نعته المستق بضخامة اللغاديد ، وهي جمع اللغديد  
واللغدود أي اللحيمات بين الحنك وصفحة العنق ، وهو وصف يوافق ما يذكره  
مؤرخو الروم عن تقفور .

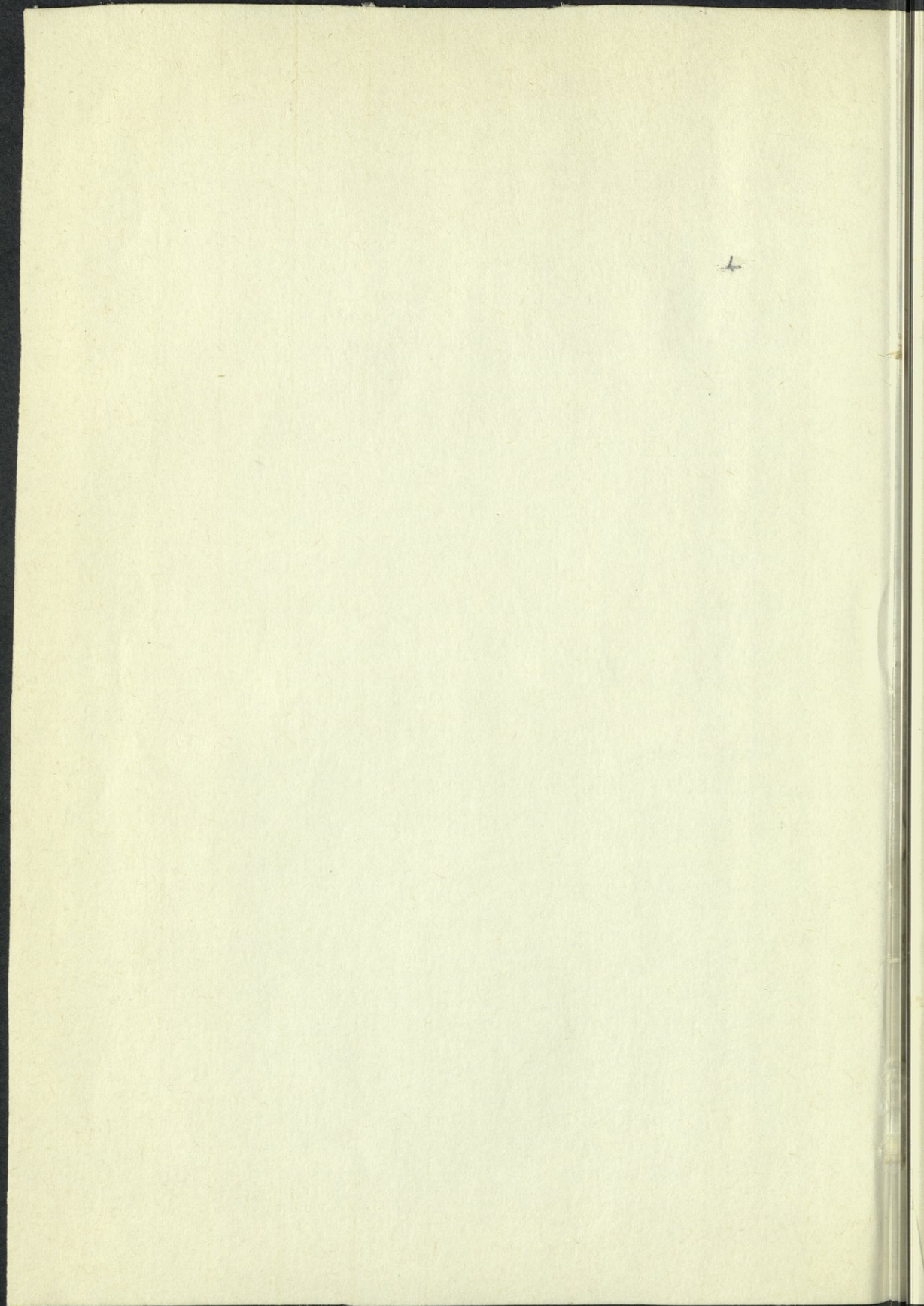
وهذا مما يزيد في قيمة شعر ابي فراس خاصة ، والشعر الحمداني عامة ،  
فيدفعنا الى التدقيق في تفهم هذه النصوص ، وبالتالي الى تحطبي ذكر الاحداث  
الحربية ، وما تجرّه من تخريب ونهب وإحراق ، الى استجلاء مظاهر التفاعل  
السياسي والثقافي بين الحمدانيين والبيزنطيين .

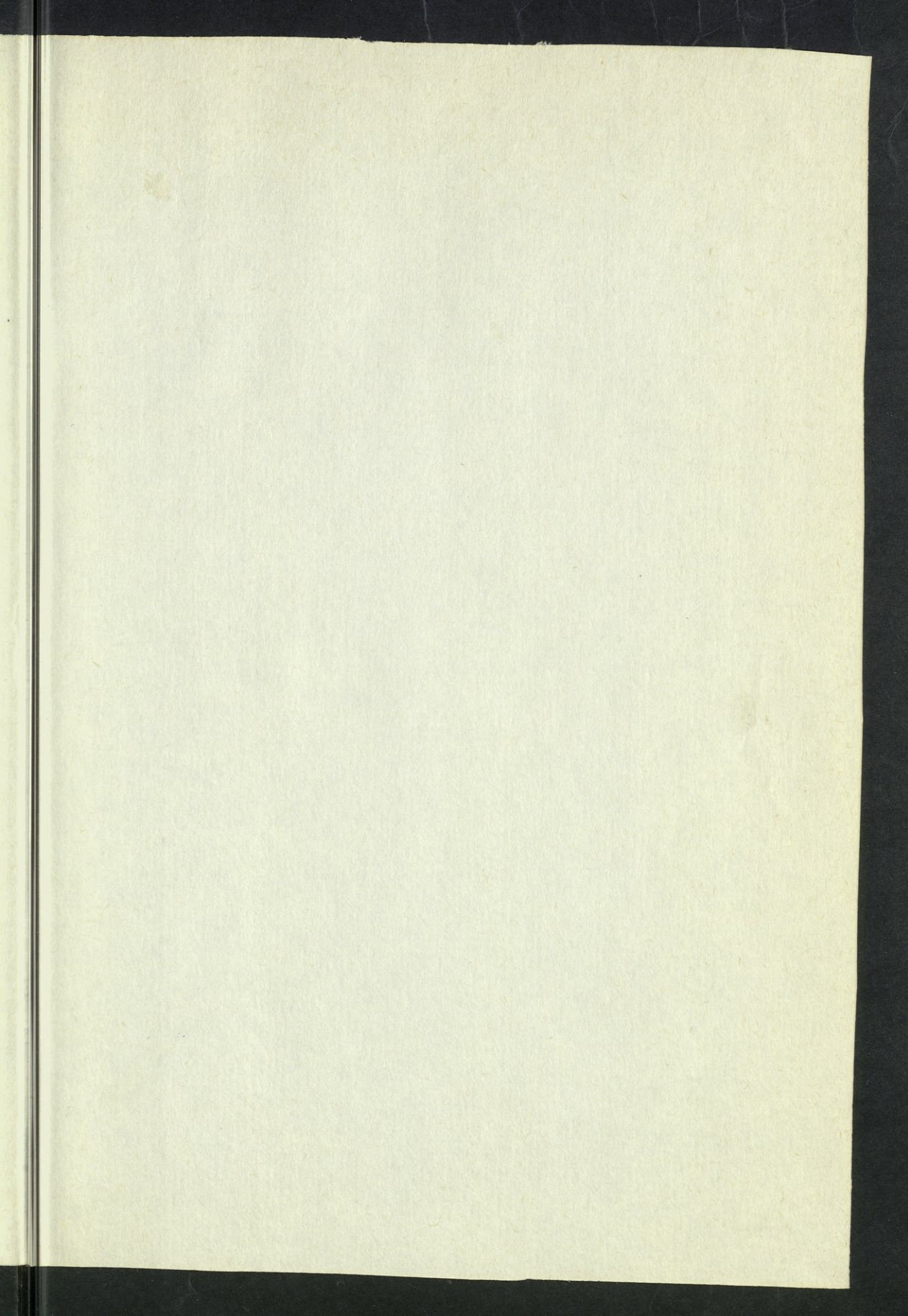
# الفهرس

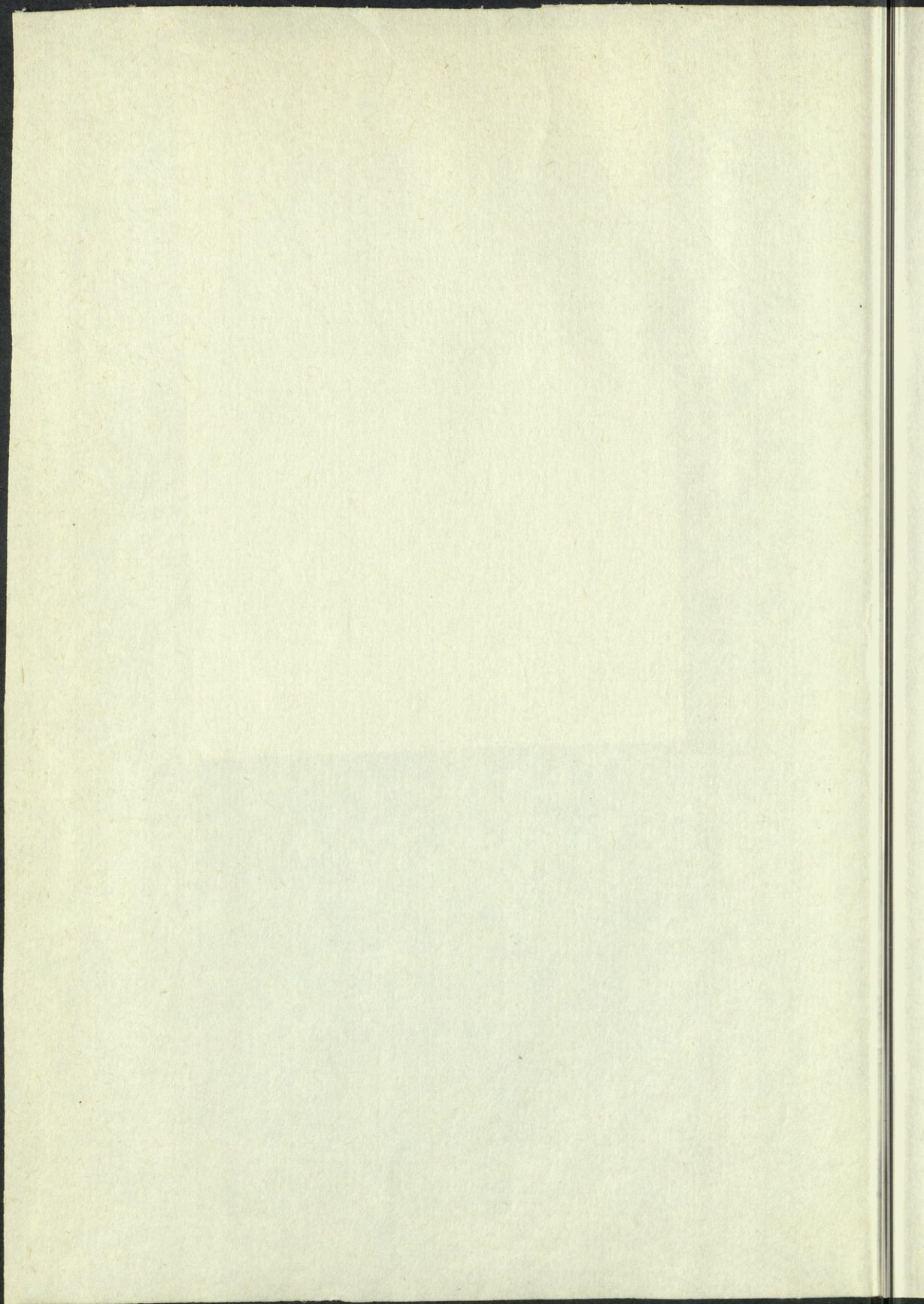
	صفحة
	أ
الاستاذ سامي الكبيالي	صفحة من تاريخ حلب الادبي ١
= خليل الزندرابي	١٩ — الحركات الادبية التي عاصرتها
= غسان التويني	٣٨ نحن في المعترك
= وجيه السمان	٥٥ العلم يسير بخطوات المارد
= محمد سعيد الزعيم	٧٧ نمو الاقتصاد العربي وتوجيهه للصمود في وجه اسرائيل
الركنور عبدالرحمن الكبيالي	١١٩ التطور الاجتماعي في سوريا
الاستاذ عمر مجي	١٤٩ — نظرنا الى أدبنا
الركنور محمد الطرابلسي	١٧١ — الادب العربي بين الادب القومي والادب الانساني
الركنور اريب منصور	١٩٧ اهداف الشباب ومثلهم العليا
الاستاذ فؤاد افرام البستاني	٢١٥ التفاعل السياسي والثقافي بين البيزنطيين والحمدانيين

## تصويبات

الصواب	الخطأ	السطر	الصحيفة
<del>والتمش</del>	<del>التميل</del>	١١	ب
والقائل	القائل	١٤	٩
ولئن	ولأن	١٨	١٤
والقصيرة	القصيرة	١٠	٣٣
وبوشأخ	وبوشأخ	٦	٤١
نحو	نحواً	٢٠	١٠٣
الاعمال	الاعمار	٥	١٠٥
المظاهر	للمظاهر	٣	١٢٩
لا ينتض	لا ينفض	١٤	١٤٢
نازعوا	تنازعوا	٢٠	١٤٤
الجرآء	الجرأ	١	١٥٥
والذئب	ولذئب	١	١٥٦
فضت	قضت	١٨	١٥٨
لذكراك	بذكراك	٥	١٥٩
بهرتنا	وبهرتنا	٨	١٦٢
المتبسم	المتبسم	١٣	١٦٤
وشدوا	وشد	٥	١٦٧
شدة	وشدة	٥	١٦٧
واحياها	واجياها	١٠	١٨٦
ايهذا	ايهذا	٢٢	١٨٨
جثوتين	جثوتين	١	١٨٩
قنديد	تنديد	١٥	١٩٠
المليئة	المليء	١٧	١٩٠
قيمة	قيمة	٧	٢٠٥
مششجر	مششجر	١٨	٢٣٨











892.74.H15MA.1052.1

حلب. دار الكتب الوطنية

المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢-١٩٥٧

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039026

089.927  
D213mA  
1952  
c. 1